
عبدالله آل عياف
حفرة إلى السماء
مكتبة ياسمين
رواية

عبدالله آل عياف

حفرة إلى السماء

«مجهرة» مسكن الأساطير ومقبرة الأحلام، فيها من أساطير الأوّلين والآخرين وحكايات الجنّ ورؤى الصالحين وقصص القادمين إلى هذا المكان اللغز، قرية كبطن الحوت تبتلع الناس ولا تُعيدهم إلّا في صور ذكرياتٍ أو رموز أحلامٍ ترى فيها الإنسان كالذئب تارةً يأكل لحم أخيه وطورًا يحنو عليه فإذا هو حميم.

ذاكرة مكانٍ تحفر عميقًا في المكان وفي الإنسان وهو يصارع الزمان في حُفرةٍ لا يخرج منها إلّا ليعود إليها مُظَلّلًا بزُرقةٍ مرعبةٍ خادعةٍ في يوم نحسٍ، حفرةٍ تتعالى منها أصواتٌ وترجيعُ أصداء ووجوهٌ تتراقص في العيون، حتّى إذا ردّها السرد إلى المرآة وانكشفت لها الحقائق أصابها من أنفسها العَجَبُ.

ليست مجهرة إلّا صورةً مصغّرةً عن الأرض/ الأمّ، ينشأ منها الإنسان وإليها يعود في دورةٍ أبديّةٍ بين رَحِمَيْنِ: رحمِ البداية ورحمِ النهاية. يغادر الجدّ/ الأصل «سالم الجَبِرْ» هذا العالم، لكنّ الكون يأبى الفراغَ والنقصانَ فيُجهض القبرَ في غير وقتٍ بالحفيد/ الفرع «غيث»، في لحظةٍ عجيبةٍ يتقاطع فيها قطبان حُدوديّان هما الموت والحياة ويلتقيان في حفرةٍ واحدةٍ: «حفرة إلى السماء» لا «سالم» فيها سالم ولا «غيث» غيث.

عبدالله آل عياف

حفرة إلى السماء

رواية



الكاتب: عبدالله آل عياف

عنوان الكتاب: حفرة إلى السماء

خط الغلاف: الفنّان سمير بن قويعة

تنضيد: سعيد البقاعي

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-24-130-3

الطبعة الأولى: 2020



السعودية - عرعر - حي الجوهرة- شارع الخمسين

الهاتف: 00966-547094709

https://rashm-store.com

الإيميل: rashm.ksa@gmail.com



مسكلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



إلى أمّي وأبي،

وإلى حصة ونورة وريما وناصر وفيصل.


تليجرام
معنا
سور الأزبكية

(1)
مغادرة ووصول

أمام رجال (مِجْهِرَة) وآخرين قدموا من القرى المجاورة، كان على تيماء أن تختار: إمّا أن تتعرّى هي أو يتعرّى والدها الشيخ الكبير. تمنّت أنّها لبست كلّ ثيابها ذلك اليوم، واحدًا فوق آخر، حتّى تتجنّب أسوأ يومٍ مرّ بها.

عندما استيقظت فجرًا كان كلّ ما حولها يشير إلى أنّ هذا الثلاثاء سيكون عاديًّا في القرية. أشعلت الفرن لتسخّن الماء لها ولوالدها، صلّت فرضَها، أيقظت الرجل من غير أن تقول كلمةً واحدةً. كان في تدليكها لقدميه ولمساتها المدرّبة ما يكفي لإيقاظه من قاع المرض وتذكيره بموعد نوبة سعالٍ أخرى تعتصر فؤادَه المتعَب. دهنت قدميه الباردتين بزيتٍ دافئٍ من دون أن تنظر إلى وجهه، كأنّها تتجنّب ذلك.

أخرجت من جانب مخدعها صرّةً متخمةً بأقمشةٍ وخيوطٍ متباينة الألوان. جلست بصعوبةٍ. فرزتها وهي تهمس مع كلّ مجموعة باسم امرأةٍ أو بيتٍ، محاولةً التقاطَ نفسٍ طويلٍ بين اسمٍ وآخر. ناداها وهو يسعل. فنهضت وأحضرت له لبنًا.

هل نسيها حقًّا؟ لم ينسَ نفسه ولا بيته، فكيف ينساها؟! لو أنّه

أحبّها بمقدار ما يحدّث به عن حبّها له لما نسي. هربت من تلك الأسئلة ومن المكان.

همّت بإغلاق الباب وهي تغادر لكنّها تردّدت. فكّرت وهي تتأمّل درفتيه. مرّرت يدها على الباب الذي حمل رسومًا لنقوشٍ لم تغطِّ غير ثُلثيه. حزمت أمرها وتركته شبه موصدٍ. زارت جارتها أمّ مبارك. لم تقضِ عندها وقتًا طويلًا، فصباحها اليوم مزدحمٌ.

عندما سألتها فطوم، كانت تلك المرأة تتذكّر كلّ ما مرّ بها ذلك النهار، رغم السنوات اللاحقة وتعاقب الفصول وذبول ذاكرتها. طافت بين باعة السوق المتنقّل الذي يصل إلى قريتها صباح كلّ ثلاثاء ويقامُ في أرضٍ خلاءٍ على أطرافها. وقف الباعة بسيّاراتهم المدجّجة بالبضائع وقد نثروا نصف معروضاتهم على بُسطٍ سميكةٍ، وعلّقوا نصفَها الآخر على جوانب السيّارات التي يستظلّون بها. اشترت ثوبًا خفيفًا، أعجبها لونه البطّيخيّ الذي لا يروق للفتيات في سنّها. لم يكن اللون هو ما بحثت عنه في ذلك الثوب، ما يهمّها هو حجمه الفضفاض الذي سيستوعب بطنها المنتفخ. هذا الطفل في أحشائها يكبر كلّ دقيقةٍ. ما عاد يتّسع له بطنها ولا ملابسها ولا يومها.

أمضى حبيّب بائع المكسّرات دقيقةً كاملةً يحاول إقناعها بشراء فصفص جديد يزعم أنّه الوحيد الذي يجلبه من العاصمة، لم يتوقّف رغم مرورها بجانبه وكأنّها لا تسمع صوته الجهير. استطاع لفت انتباهها عندما لوّح بكيس فصفص وسمعته يصرخ: ببلاش يا خالة، ببلاش. حنا نبّي نكسب الطيّبين والطيّبات.

أخذتها، نظرت إليه بتردّدٍ، تأمّلت الفصفص، بدا لها جيّدًا. لم تشكره، كان بالها مشغولًا بصاحبتها. لولا تعب والدها الذي تركته مريضًا وصدى أنفاسه تتردّد بالبيت لكانت مع أمّ سرور منذ الفجر. لا يوجد ما هو أسوأ من الصباح الأوّل في حياة المطلّقة إلّا أن تقضيه وحيدةً.

ما تستاهل أمّ سرور. ردّدت في قرارة نفسها.

لم تقضِ هناك إلّا ساعةً واحدةً، فهي ليست كبقيّة النساء اللواتي يأتين السوق ويقضين نهارهنّ كلّه فيه لأنّهن يجدنه المتنفّس الوحيد. لا شيء يحدث هنا. الرتابة تلخّص حياة سبعمائة واثنتي عشرة نَفْسًا ضمّتها مجهرة. يمّمت ناصيتها شطرَ منـزلٍ بعيدٍ بدا كأنّ القرية لفظته خارجها.

يا لهذا البطن المتعِب! حملت مرّتين قبل ذلك لكنّها لم تكابد كما تفعل اليوم! أصبحت الخطى بين الباعة وبيت أمّ سرور أبعدَ ممّا تظنّ. يبدو أنّ السوق نفسها ملّت القريةَ فأخذت تنأى بعيدًا عنها. هذا هو التفسير الوحيد. فالجميع يهربون من مجهرة. لا تتذكّر آخر مرّةٍ رأت فيها بعوضةً في القرية!

لعنك الله يا فرج، أوّلًا لأنّك طلّقت أمّ سرور البارحة، وقبلها لأنّك اخترت أبعد مكانٍ في القرية لتجعل عليه منزلك. أيّها الخائب، ألم يخطر لك أنّك قد تطلّق زوجتك يومًا وأنّ صاحبتها الحامل قد تُضطرّ إلى قطع تلك المسافة الطويلة مشيًا وهي في شهرها السابع وفي يديها أكياس مشتريات من الملابس والفصفص والشامبو؟!

أصوات منازل القرية تخفُت، ولم تعد تسمع سوى خطواتها وجرٍّ نعلَيها على الأرض الرمليّة. كادت الزلابيا الرخيصة التي اشترتها تسقط من يدها المتعرّقة. أعادت تثبيتها. التفتت وراءها إلى القرية. أدركت أنّها في المنتصف، أنفاسها تتقطّع! ما أطول الدرب! راعها أنّها ستقطعه مرّةً أخرى.

«خلاص»، قالتها بصوتٍ مسموعٍ، وتلك عادةٌ لازمتها وجلبت تندُّر صاحباتها وهنّ يسمعنها بين حينٍ وآخر. أكسبتها تلك العادة لقبَ الموسوسة بينهنّ. فهنّ لا يسمعن منها سوى كلمةٍ أو كلمتين، أمّا باقي ما يدور في ذهنها فتُضمره.

خلاص، لن أكرّر زيارتي إلى أمّ سرور حتّى أضع ما ببطني بعد شهرين.

كيف نسيها؟

ما أقبح السماء! فكّرت وهي تتأمّل سقفًا زجاجيًّا لا يراه سواها. لم تخبر به أحدًا، ولا سيّما أمّ سرور. لن يفهموا شيئًا، وسيتندّرن أكثر على وساوسها وسيتّهمنها بالجنون هذه المرّة. وحدها ترى تلك الغيمة من الأرواح المعلّقة فوق مجهرة، التصقت بالسقف المخفيّ الذي منعها من الصعود، حتّى الأرواح لا تودّ المكوث هنا، لكن لا مهرب، فالطريق من مجهرة إلى الجنّة ليست معبّدةً.

كيف نسيها؟

ها هو البيت يقترب، وبعيدًا من خلفه بدت التلالُ والكهوفُ التي ذهبت إليها مع والدها عندما كانت صغيرةً. هل يتذكّر تلك

الكهوف أم تراه نسيها هي أيضًا؟ تتذكّر ضحكاته عندما ألقت بنفسها على الأرض كي تقاوم سَحْبَه إيّاها نحو المغارة المظلمة. لم يرَ أحدٌ ما كانت تراه في تلك المغارة وما حولها من التلال وما تشكّله من وجوهٍ بشريّةٍ مخيفةٍ.

تأمّلت أعلى المنزل وهي تقترب. كانت جدرانه أعلى من كلّ الجدران في القرية. ما أقبحه! تساءلت: لمَ لا يهتمّ الرجال بالأسطح عند بناء منازلهم؟

حين بلغت بابَ أمّ سرور لم تَدخل رأسًا. تنفّست بصعوبةٍ مستندةً بيدها اليسرى على الجدار، لم يسمح لها الإرهاق بوضع الأكياس على الأرض فأبقت عليها في يديها. رفعت رأسها، نظرت إلى الباب الصغير الذي حمل أربعة أقفالٍ مختلفةٍ ومهمَلةٍ عجزت كلّها عن منع الداخلين. استجمعت قواها ودفعت الباب بعنفٍ منطلقةً نحو فناء المنزل. وبعد أن استقرّت في منتصفه، بدأت تنادي أهله مستأذنةً كما تفعل نسوة القرية.

على غير عادة بقيّة البيوت، ولغياب جيرانٍ يزاحمونه، كان بيت أبي سرور كبيرًا تتوسّطه باحةٌ يسبقها مدخلٌ ضيّقٌ. وقد عوّض اتساع الباحة على الأطفال عزلتَهم. فصارت ملعبًا.

مرّت بين عمودين من الخشب يستخدمهما الأولاد مرمى كرة القدم، لكنّ الفتيات وضعن قماشًا على أحدهما محوّلات إيّاه إلى خيمةٍ ثبّتن أطرافها ببعض الحصى.

خرجت فاطمة ذات السنين السبع من المطبخ مستقبلةً وهي

تحمل أخاها الذي لم يكمل عامه الأوّل. تلاها جيشٌ من الأطفال ينتظر بشغفٍ أيّ زيارة حرمتهم إيّاها المسافةُ بينهم وبين بقيّة القرية. توجّهت تيباء إلى مجلس النساء، الغرفة التي حبلت بكلّ حكايات الغيبة والنميمة، وفيها اعتادت مسامرة صاحبتها على أخبار كلّ نساء القرية ورجالها، الأحياء والأموات. انتبهت إلى تمتمةٍ من فاطمة، فهمت منها أن تتّجه إلى إحدى الغرف الصغيرة بجانب مجلس الرجال. فاتّجهت وفتحت بابها المغلق.

تدفّقت رائحةٌ رطبةٌ خارج الغرفة غامرةً البيت المفتوح، سبحت في رائحة سجائر ثقيلةٍ كتمت أنفاسَها. رأت أمّ سرور جالسةً على الأرض في زاوية الغرفة وهي تسند رأسها إلى كفّها. اتّجهت إلى النافذة لتفتحها:

- ايش مجلّسك في الكتمة؟ خلّي الهواء ينسّم علينا. مريت البياعين، ماش، ما هنا جديد، حبيّب الهيس يقول لي (يا خالة) وهو في سن أبوي! تخلخلت عظامه.

قالتها وهي تُظهر ثوبها البطّيخيّ الجديد للمرأة المكلومة التي لفّها الصمت.

- والله إن يبطي ما يحصل مثلك، مردّه يعوّد لك ويراضيك، الخايب أبو المفاتيح.

لم تُعر المرأةُ الحزينة أيّ انتباهٍ لزائرتها ولا للثوب الذي وُضع قسرًا في يدها لتتحسّسه. دخلت الصغيرة فاطمة وهي تحمل التمر والقهوة ووضعتها أمام تيباء. جلست استعدادًا لصبّ القهوة. أمرتها تيباء بأن

تغادر وتتركها وحدها. تحرّكت أمّ سرور أخيـرًا فأخذت القهوة لتصبّ لضيفتها فنجانًا، لكنّ تيياء أمسكت بدلّة القهوة مصرّة على فعل ذلك بنفسها. رفعت أمّ سرور عينين حمراوين ظلّتا تحدّقان في ضيفتها بطريقةٍ جعلت الضيفة تترك الدلّة.

- الردي ردي، يوم رحّب به أبوي ووافق يزوّجه، من كان يعرفه ذاك الوقت؟ ما أحد.

جاءت كلمات أمّ سرور بطيئةً ومتباعدةً، تفصل بينها دفقات من الأنفاس الحارّة.

- قبل آخذه، من كان يضم قروشه اللّي بعثرها هنا وهناك؟ من صبر معه على علومه الردية اللّي تعرفون بعضها وتجهلون أكثرها؟ ويوم بنى بيته في أقصى الدنيا ما مانعت ولا قلت كلمة. ومن بنى له هالبيت؟ تدرين إني بايعة ذهبي عشان يكمل مجلس الرجال ويذبح لنزالة بيته؟ النزالة اللّي لولاي ما سوّاها ولا نوى يسوّيها! أنا اللّي سويته رجّال وعطيته سبعة من الورعان، ايش عطاني هو غيـر الهمّ والغمّ والمرض والبلاء؟ الله لا يردّه. والله إن أفرح أيامي كلها يوم فرقاه، قليل الحلا والمروة.

سكتت أمّ سرور وهي تتابع خطوات فاطمة التي حملت أخاها بيدٍ وباليد الأخرى مِبْخَرةً أمسك الباب دخانَها الممتدّ خلفها. وقبل إكمال دورتها الأولى في المكان، صدم الصغيرةَ صراخُ والدتها تنهَرها وتطلب منها المغادرة. أحسّت فاطمة بالحرج الشديد أمام الضيفة

فغادرت حاملةً المبخرة ودموعًا متردّدةً لم تقرّر النزول بعد. كانت خطوات الفتاة سريعةً وهي تتّجه إلى الخارج، لكنّ دموع الأمّ كانت أسرع.

لم تفهم تيماء سبب موجة البكاء الشديد التي اجتاحت أمّ سرور. حاولت تهدئتها.

- من قال للكلبة تجيب دخون؟

- اذكري الله، البنيّة ما سوّت إلا الزين، جاءت تبّي تطيب المكان اللّي أنتِ حابسة نفسك فيه، ريحة التِتن ذبحتنا.

- جعله الجدري! ايش اللّي يخليه يطلّقني؟ والله ما يلقى مثلي، قليل البخت لكن الشرهة عليّ أنا ماهي عليه.

صمتت تيماء وهي تشاهد صديقة طفولتها تبكي. لم يتغيّر بكاؤها. تعتصر عضلات وجهها كمن يعاني كثيرًا، فيتألّم مَن يشاهدها لألمها.

استعادت النائحة تماسكها بشكلٍ سريعٍ وعادت لتمسك دلّة القهوة وتصبّ لضيفتها.

- يوم طلقني المرة الأولى، قلتوا لي «ارجعي له وتعوّذي من الشيطان»، قلت لكم «أخاف أرجع بنفسي ثم يطلّقني ثانية»، جاب الرضاوة وحلف بالله العظيم ما يكرّرها، كنت خبل وصدّقته. اليوم لا، الرجال متغيّر، شايف له شوفه، ما عاد هو خويي اللّي أعرفه سنين.

التفتت تيماء إلى اليد الممتدّة بالفنجان وراحت تتأمّل أساورها الذهبيّة التي جلبها زوجها «رضاوة» لها قبل ثمانية أشهر، كانت مثار

غيرةٍ، وصارت «غوايش» أمّ سرور، محور حديث النساء، فقد غطّت الأساور نصف ذراعيها وكان صوتها يزرع الحسد في قلوب بعضهنّ.

انتقلت عينا تيماء من الذراعين إلى الوجه، لا تتذكّر أنّها رأت كلّ هذه التجاعيد الصغيرة في وجه أمّ سرور عندما زارتها بمنزلها قبل أربعة أيّامٍ. لعن الله الطلاق ما أظلمه!

همّت تيماء بالمغادرة. التفتت فلم ترَ فاطمة. ذهبت إلى المطبخ. وجدتها واقفةً أمام قدر يغلي. أمسكت يدها بحنانٍ وهمست في أذنها مواسِيةً. قالت لها فاطمة إنّ أمّها لم تأكل شيئًا منذ أمس ورجتها أن تبقى لتقنعها بتناول الغداء معها. استجابت. ابتسمت وهي تدخل على المكلومة وتعلّلت بأنّها لا تزال متعبةً من المشي وتودّ الجلوس حتّى تخفّ حرارة الشمس. جلست تثرثر مع أمّ سرور إلى حين انتهاء الغداء الذي لن يجهز إلّا قبيل صلاة العصر. أحسّت تيماء بأنّ مهمّتها انتهت وهي ترى أمَّ سرور تأكل أمامها. تناولت هي نفسها عددًا قليلًا من اللقيمات ونظرت بإعجابٍ إلى صاحبتها وهي تطلب من فطّوم أن تجهّز قدرًا من الأرز لتأخذه الضيفة معها. شكرتها، وقالت إنّها أوصت جارتها أمّ مبارك بأن ترسل أحدَ الأبناء إلى والدها المريض عند مغادرتها هذا الصباح. نهضت بصعوبةٍ، وتعلّلت بالتقاط أنفاسها لأطول فترةٍ ممكنةٍ وهي تسمع من أمّ سرور سؤالًا سيقودهما حتمًا إلى آخرَ مزعجٍ.

- شلون الشايب؟

- تعبان من البارحة، الكحّة ذابحته.

- عساه تذكّر؟

- ..

- ما عرف أمّك؟

- لا.

- يا الله حسن الخاتمة، تعرفين الكبر والمرض..

لم تسمع تيماء بقيّة الكلام.

حتّى أنتِ يا سوَيّر؟ أتفهّم بحث النسوة عن عذرٍ لرجلٍ ينسى زوجتَه وأمّ عياله، لكن أنت؟ من بين كلّ نساء العالم كان عليك ألّا تغفري مثلي لأيّ قلبٍ ينسى شريكه. لم ينس اسمه، ولم ينسَ ابنته، ولم ينسَ اسم بعيره الذي مات وأنا طفلة، لم ينس بعض جيرانه، مازال يذكر بعضهم. يتذكّر أسماء لم أعرفها أنا ابنته الوحيدة. قبل ليالٍ ذكر لي قصّةً عن مصبّح الذي رحل ذات ليلة وترك القرية. حدّثني عن شبابه، لكنّه نسي أمّي! وهو الذي قال إنّه أحبّها حبًّا أنساه كلّ شيء. كيف ينسى الرجل من يحبّ؟ ليته نسيني بدلًا منها.

ولّت هاربةً من أسئلة أمّ سرور. تركت باب بيتهم مشرعًا عندما لمحت عددًا من النساء يقتربن حاملاتٍ بعضَ الأواني. سامحها الله. كانت تودّ أن أحمل قدرًا ثقيلًا من الأرز كلّ هذه المسافة؟

رغم تخفّفها قليلًا من همّ صاحبتها، لم تحسّ بأنّ رحلة العودة سهلةٌ. ما يزال الدرب مرهقًا. كان المنظر في العودة أقلّ وحشةً. القدوم إلى القرية لا يوحي بطول المسافة كما فعل الذهاب إلى بيت أمّ سرور النائي. رأت النساء يدردشن سعيداتٍ! ما أقبحهنّ! يتضاحكن وهنّ

في طريقهنّ لمواساة امرأةٍ حزينةٍ! لفت نظرَها مشهدُ الأكياس وعلب الكرتون التي خلّفها الباعة بعدَهم. ما أقبح تلك الأكياس، القرية كفيلة بطردها!

خلف الساحة التي مرّت بها صباحًا، رأت أطيافَ سيّاراتٍ وأشخاصٍ يقفون جهة المقبرة. الله يستر! جعلها فضولُها تحرّف السير يمينًا نحو المقبرة، لعلّها تعرف ما يجري. مرّت سنةٌ كاملةٌ منذ توفّي أحد أفراد القرية. رحم الله أمّ مقبل، لم يحضر جنازتَها كثيرون.

اقتربت. عرفت أصحاب عددٍ من السيّارات. سيّارة آل عايض الكبيرة موجودة! عجيب، ليس من عادة مسفر أن يعود من عمله في مُوارَيَهْ من أجل جنازةٍ في منتصف اليوم، فهو يقدّس العمل كتقديسه والديه أو يزيد. لن يترك عمله إلّا لأمرٍ جللٍ!

لا حول ولا قوّة إلّا بالله، يبدو أنّ الشيخ عايض أبا مسفر قد رحل. كيف سأخبر والدي؟ سينفطر قلبه لسماع خبر رحيل صاحبه. فالرجل المسنّ ذو الحدبة الكبيرة كان من المقرّبين إلى والدها جدًّا ومن آخر معاصريه الأحياء. كان أبو مسفر يداوم على زيارة والدها المُقعَد، لكنّه توقّف قبل سنواتٍ بسبب آلامٍ في ظهره أعجزته عن صلاة الجماعة التي كان يؤدّيها من قبل. رحمك الله يا أبا مسفر. هل سيتذكّرك والدي؟

لا تعرف ما إذا كانت ستسعد أم تنزعج لو تذكّر. رأت المزيد من السيّارات تقف ويتوجّه كلّ من فيها إلى داخل المقبرة. بدأت تقترب وتسمع من بعيدٍ أصواتهم. خرج رجلٌ، اثنان، بل خمسةٌ من المقبرة

واتّجهوا إلى سيّارة آل عايض. الجميع يريدون نَيْلَ الأجر والمشاركة في حمل الميّت.

عجيب! لم يتّجهوا إلى مؤخّرة السيّارة، بل إلى باب الراكب الأماميّ. هل وضع مسفر والده بجانبه؟ ربّما، فمثل الشيخ عايض لا يركب في مؤخّرة السيّارة حيًّا كان أو ميتًا.

اقتربت أكثر. لم يعد يفصلها عنهم أكثر من مائتي متر. ولعلّها أقرب مسافةٍ على الإطلاق تقف فيها من المقبرة. نظرت تيماء بارتباكٍ إلى الرجال وهم يُنزلون رجلًا يبدو أنّه حيٌّ. مشى الجميع ببطءٍ، اثنان تقدّما، ثلاثة فقط يمسكون رجلًا يكاد وجهه يلامس الأرض من شدّة تقوّس ظهره. تنهّدت بارتياحٍ وهي ترى أبا مسفر حيًّا يمشي الهوينى. لماذا يرهق الشيخ عايض نفسَه بالقدوم إلى المقبرة وهو الذي لم يخرج منذ مدّةٍ طويلةٍ؟ لا شكّ أنّ عزيزًا عليه قد..

لم تكمل الفكرة. توقّفت. وقبل أن يسقط ما تحمله على الأرض، سقط قلبها.

* * * *

تزاحم الرجال في المقبرة وهم يحاولون مساعدة عيسى في تجهيز القبر وإحضار الطين والحصى. انتظروا قدوم الشيخ عايض ليستطيع اللحاق بهم والصلاة على أبي تيماء، سالم الجَبِرْ، الذي وافته المنيّة صباح اليوم. اقترب الشيخ الهرم، فاصطفّ الناس. حاولوا تقديم عيسى، لكنّه أشار إلى الطين الذي غطّى ذراعيه. تقدّم مسفر ليؤمّ الناس. كبّر وشرع الناس في قراءة الفاتحة.

سمع الرجال صوتًا مستنكرًا في المقبرة، صوت امرأةٍ. لقد اقتربت تيماء من باب المقبرة، فرآها أحد الصبيان وبادرها بالتعزية فصرخت تسأل:

- من اللّي توفّى؟ من؟

قطع جارها أبو مبارك صلاته وانطلق محاولًا تهدئتها وموضّحًا أنّهم بحثوا عنها فلم يجدوها منذ الصباح. انطلقت نحو باب المقبرة. حاول أبو مبارك إيقافها، لكنّه لم يجرؤ على لمسها.

- تيماء، اذكري الله، ما يجوز تدخلين، حرام يا أخيتي.. حرام.

دخلت المقبرة وجارها يحثّ السير خلفها. كان جثمان والدها بجانب القبر المحفور، وخلفه وقف الرجال في صفّين طويلين متقاربين. كانوا لا يزالون في صلاتهم عندما فجعهم وصول تيماء إلى داخل المقبرة متّجهةً إليهم باكيةً تندب والدها. أسرع الإمام مُنهيًا الصلاة على عجلٍ.

عمّ لغطٌ كبيرٌ ما بين مستنكرٍ دخولَها المقبرةَ ومتعاطفٍ مع فجيعة تلك المرأة.

تعالت صيحات أحدهم: ما يجوز يا حرمة، ما يجوز تدخلين المقبرة، حرام.

تجاهلتهم مواصلةً مشيها وقد زاده الحمل اختلالًا وتمايلًا. قفز أبو مبارك محاولًا منعها من الوصول إلى جسد والدها. أحسّ بالخزي من الموقف. كان يعاملها سابقًا معاملة الأخت، لكنّها هنا بالمقبرة تصرخ أمام كلّ هؤلاء الرجال. لا شيء يتجاوز مشاعر الفقد لدى الرجال

سوى الغيرة. وكزها في كتفها بغلظةٍ. انبرى له رجلان وأمسكاه كي لا يؤذيها. دفعاه بعيدًا عنها. غافلتهم وتمكّنت من بلوغ النعش. انكبّت مجهشة على رأسه تحضنه وتقبّله. لم تعد تسمع الصرخات الداعية إلى خروجها من المقبرة.

لماذا يحول هؤلاء الحمقى بيني وبينه! تركته هذا الصباح لينام. كيف لم أرَ في وجهه علامات الرحيل؟ هل حاول إخباري ولم أفطن! لا شكّ أنّ البطن اللعين ودوختَه هما السبب. لم أقضِ معه ساعاته الأخيرة وهو أمرٌ لن أغفره لنفسي مادمت على قيد الحياة. كيف يجرؤون على دفنه ولا ألقي عليه نظرةً أخيرةً؟ لا بدّ أن أرى وجهه، لحيته، عينيه.

حاولت فتح الكفن والرباط الذي عُقد حول رقبته. نهرها عايض. صرخ أبو مبارك مستنكرًا. علا الصراخ. لم يعد أحدٌ يسمع أحدًا. أمّا الرجلان اللذان أمسكا جارها أبا مبارك فقد أفلتا قبضتيهما عنه ليتدخّل. الوضع مختلفٌ الآن. حرمة الميّت مقدّسةٌ. سحبها أبو مبارك عنوةً، وأوقفها، وحال بينها وبين الميّت. دفعته. ولم تنتبه إلى القبر المحفور خلفها وهي تحاول الالتفاف حوله، فزلّت قدمها وسقطت.

عمّ الصمت. توقّفت الطيور. جمد الهواء حابسًا أنفاسَ الحاضرين.

تحت ستار الغبار المتصاعد نحو السماء، رأى رجال مجهرة، ومَن قدم من القرى المجاورة، المرأةَ في قاع القبر وهي تئنّ. سمعت نسوة القرية صراخًا عاليًا آتيًا من جهة الموت، صراخًا يعرفنه جيّدًا وإن أنكرن الجهة التي يأتي منها، صراخ من يلفظ جوفُها طفلًا نحو العالم.

(2)
كعبة وفرج

يُمّة، من هي أمّ تيماء؟

قاطعت سويّر أمّها التي كانت تمشّط شعرها. بعد تصفّح محتويات صندوقٍ تُجمع فيه صورُ مكّة، كان أكثر ما يجلب السعادة إلى قلب تلك الطفلة هو الاستماع إلى قصص أمّها وأحاديثها. منحتها صفةُ البنت الكبرى الحقَّ في مرافقة أمّها خلال زياراتها لنساء القرية. ولم يكن حمل القهوة والشاي هو كلّ ما يناط بها، بل كانت أسئلتها المتتالية مصدرَ بهجة أمّها وضمانًا لعدم توقّف عجلة الحديث. كانت سويّر ترى في أمّها مندوبة السعادة والفرح في القرية، تنتقل معها من مكانٍ إلى مكانٍ حاملةً أخبارًا تتلقّفها النسوة بشغفٍ. كانت نسوة القرية يستمعن بانشداهٍ إلى ما تحكيه لهنّ أمّها. تتذكّر كيف تنسى النسوة إرضاع أطفالهنّ وهنّ تحت سحر ما تقوله هذه المرأة. أمّ غريدل التي تتندّر صديقاتها بمدى تقديسها لزوجها، نسيت ما أوصاها به أبو غريدل بسبب إحدى تلك الحكايا. كانت زيارات أمّها هي نصيب أولئك النسوة من العزاء ونسيان الواقع المرير. منحُ البائسات بعضَ الفرح هو أنبل ما رأته سويّر من فعلِ خيّرٍ في مجهرة.

أمّ تيماء؟

تفاجأت الأمّ بالسؤال البعيد عمّا كانت فيه من حديثٍ. كادت تعلن انزعاجها، لكنّ شهوة الكلام تغلّبت عليها فبدأت جولةً جديدةً من الحديث المتسارع وهي تضع المشط جانبًا وتجدّل الضفائر.

لن تنسى سويّر هذا الحوار العابر. لو لم تخبرها أمّها بأنّها رأت البكماء شرعاء ابنة عامر رأيَ العين وهي تنجب تيماء، لما صدّقت الصبيّة أنّ لتيماء والدين مثلها، ولظنّت أنّ والدة تلك الفتاة كانت نجمةً من نجوم السماء وأنّ والدها كان شهابًا خاطفًا عبرَ القرية واختفى. فمنذ عرفتها سويّر، لا تكفّ تيماء عن التحديق نحو السماء. لم ترَها قطّ تُوجّه نظرها إلى الأسفل! حتّى عندما تعلّمت الصلاة، كانت تغمض عينيها وهي تسجد، متجنّبةً النظر إلى الأرض! كانت سويّر ترى عروق عنق الفتاة أكثر من بقيّة ملامح وجهها.

ما كان لها أن تصدّق. لكنّ أمّها، أصدق الناس والمصدر الموثوق لدى كلّ نساء القرية، أخبرتها. فآمنت الصغيرة بأنّ لتيماء أمًّا كبقيّة البشر. واصلت الأمّ سرد حكاية شرعاء أمّ تيماء وواصلت الفتاة الانبهار.

كانت شرعاء ثامن أطفال الشيخ عامر الصُّمَيح. لم يكمل أيّ واحد ممّن سبقوها شهره الأوّل، ففقدان الأطفال صار تقليدًا في القرية، حتّى اتفق الجميع على ألّا تُقام مراسم عزاءٍ لطفلٍ لم يكمل شهره الثاني. ما عادوا يقيمون العقيقة للمواليد الجدد إلّا في الشهر الثالث.

لم تكن القرية ترحّب بضيوفها الصغار الذين جلبتهم أمّ شرعاء. قيل إنّ السبب هو الهواء الذي تغيّر منذ غزت ماكينات مياه الآبار

فضاءَ مجهرة. وقيل إنّ الأمّ مسحورةٌ. وقيل إنّ الجنّ غضبوا على والدها لأنّه دلَق قهوةً تغلي بالقرب من بئر (أم المطاليب) حيث ينام ابن ملك الجنّ، وهي حكاية يؤمن بها معظم نسوة القرية.

لم تتعلّق بها الأمّ كثيرًا عند قدومها، بل كانت تستعدّ لتوديعها خلال أيّام، فلا جسد الطفلة النحيل الذي يصغر كثيرًا سابقيه يبشّر بعافيةٍ، ولا خمولها المحبط الذي منعها البكاء كبقيّة الأطفال يبشّر بأملٍ. كان الضعف يلفّها والموت ينفث أنفاسَه في وجهها الصغير.

مرّت الأشهر الثلاثة الأولى والطفلة متمسّكةٌ بأهداب الحياة. هل اكتفى الجنّ بما أخذوه أم نسوا أنّ ذاك الجسد لا يزال يحمل روحًا؟ وقبيل إتمامها شهرها الرابع، أقام والدها مأدبةً كبيرةً ذَبح فيها شاةً ودعا إليها رجال القرية. كبرت شرعاء ولم تنطق بحرفٍ. وكلّ محاولات أمّها ونساء القرية لانتزاع كلمةٍ واحدةٍ منها ضاعت هباءً. تؤمن أمّ شُذوي أن الجنّ عقدوا على لسان شرعاء لتكون تذكيرًا للعالم أجمع ورادعًا لمن يضرّ أيّ واحدٍ من الجنّ، قصَدَ ذلك أم لم يقصد.

- البنت ذي مبروكة وبيكون لها شأن.

واسى أبو شرعاء زوجتَه الباكية بعد انتهاء واحدةٍ من محاولاتها الفاشلة لحثّ طفلتها على النطق. كان العزاءُ الوحيد للأمّ حملَها الجديدَ الذي جلب صبيًّا ليكون أخًا لشرعاء ذات الأربع سنوات. سعد الجيران برؤية الصبيّ يكبر معافًى جالبًا السلوى لأمّه، لكنّهم رأوه هو أيضًا لا يتكلّم. كان كأخته إلّا أنّه يخرج أصواتًا مُعجَمة كافيةً لطمأنة أمّه بأنّه سيتحدّث يومًا ما. أقسمت الأمّ أن تذهب إلى الحجّ

وتعفّر وجهها في تراب الكعبة كي يفكّ الله عن أطفالها قيودَ الجنّ.

وبعد أن فطمت الأمّ ابنها:

- راحت وتركت وراها بزرين وأبوهم، ما عرفنا المرض الذي ذبحها، الحمّى خلّتها تهذري أيام وليالي طويلة، وما سكّتها إلّا القبر. ماتت. تظنين أن شرعاء بكت أو صاحت وهي تشوف أمها تدفن؟

شدّت الأمّ شعر سويّر محاولةً تشذيب ضفيرةٍ تبدو أطول بكثيرٍ ممّا يكون لفتاةٍ في عمرها. وأكملت حكايتها:

- أبد، كانت قدّام قبر أمها. لا كلمة، لا دمعة. يا قو بأسها.

ثمّ واصلت:

- عانت المسيكينة! كل نسوان الحارة سوّوا الواجب واعتنوا باليتيمة وأخوها، خيّطت لها بيدي فستان أصفر ما شاف أحد مثله. كبر أخوها على حاله، هيه، أحمد الله أن أمها ماتت قبل ما تشوف الولد يطلع أطرم مثل اخته. عوّض الله عليها وجبرها وكانت حياتها سعيدة إلى أن توفّي والدها، وبعد ما توفّي بسنوات قام سالم بن جبر سوّد الله وجهه وأظهر للناس بأنّه حريص على هاليتيمة ولمّا جاته فرصة استغلها وأقنع الرجّال يتزوّجها. قطعت قلبي شوفة البنيّة الطرماء عند ذاك النذل اللّي ما منعه كبر سنّه وشيب رأسه عن شهوته، يظن البنية الصغيرة بترجّع له من العمر ما راح. ما أدري كيف سمح آل صميح له يتزوّجها!

صمتت الأمّ بغضبٍ مكبوتٍ بعد جملتها الأخيرة. سرحت سويّر بفكرها متخيّلةً شكل شرعاء، تذكّرت أنّها ذهبت مع أمّها مرّةً لزيارة امرأةٍ بكماء. أكانت تلك هي أمّ تيماء؟ لا تتذكّر ملامح شرعاء بدقّةٍ. حاولت استرجاع أقدم صورةٍ لها من المخيّلة. استطاعت لململة صورةٍ من شتات ذاكرتها. لم تكن الصورة واضحةً لكنّها كافيةٌ لإعادة ذلك اليوم المليء بالغبار والأتربة، يوم أخذت أمّها بيدها لزيارة شرعاء. وصلتا فوجدتا إحدى الجارات قد سبقتهما مع ابنيها الصغيرين.

اختلطت المشاهد التي تظنّ سويّر أنّها تتذكّرها بما سمعته من أمّها مرّةً بعد مرّةٍ. اختلط الماضي بالمتخيّل، لكنّهما شكّلا صورةً باهتةً تتمسّك بها الفتاة محاولةً عيشها مرّةً أخرى.

كان اللقاء غريبًا. عادت سويّر إلى ذلك اليوم.

كانت أمّي تحتسي القهوة، تنظر إلى مضيّفتها البكماء حينًا وإلى الجدران حينًا آخر. سألتُ أمّي عن تلك الطفلة التي تتنفّس بصعوبةٍ في أقصى الغرفة، «أصصصص» قالتها أمّي بهدوءٍ هازّةً ذراعي: «إذا تكلّم الكبار إسكتي». هذا ما كانت تقوله لي كلّ يومٍ، لكن ما عساها أن تقول الآن؟ فلا حوار ولا كلمات بين الكبار. إشارة باليد من هنا وإشارة أخرى هناك لا أفهم منها شيئًا. أشارت أمّي إلى ثوبي الأصفر وأومأت إلى البكماء إيماءاتٍ لم أفهمها، فضحكت أمّي وتبسّمت الأخرى. عادت سويّر من ذكرياتها لتسأل:

- يمة.. تيماء هي البنية الصغيرة المريضة؟

- ايه، هي. ارفعي راسك، خلّيني أخلّص قذلتك.

- ليه هاوشتيني يوم رحت أشوف وجهها؟

- كم مرّة قلت لك هالكلام؟ كانت مريضة، ما بغيتها تعديك.

انطلقت الأمّ تسرد كيف إنّها رأت سويّر وابني المرأة التي كانت معها خلال زيارة شرعاء يلعبون ثلاثتهم بالقرب من تيماء. كانت تيماء ثاويةً، مصفرّة اللون، هزيلةً لا يدلّ على حياتها سوى صوت تنفّسٍ مُجهَد يفطر القلوب. رغم أنّ شرعاء لم تسمع ذلك الصوت، فإنّها واصلت الالتفات بين فينةٍ وأخرى نحو الطفلة. سألت الأمّ مضيّفتها عن الطفلة فأشارت بأنّها مريضةٌ، وتحدّثت جارتهم لها قائلةً إنّ الطفلة المسكينة تعاني من مرض الحصبة.

- كنتي تروحين جنب الولدين الذين يلعبون مع البنية المحصوبة. قمت مرعوبة مثل الخبل صوبك وشلتك، شفت بعيني الولدين يجلسون ويلعبون مع البنت. شفت، والله يشهد، واحد من الولدين يأخذ حلاوة من فم البنية المريضة ويحطها في فمه! تظنّين أمّهم هاوشتهم ولا قامت وشالت الحلاوة من فم الورع؟ جلست كأنها ما شافت شيء! نقزت وشلتك بين يديني وغطيت وجهك بجِلالي، انحشت للبيت وخلّيت القهوة والنسوان. بغيت أحميك من الحصبة. لكن ربّي قال والله إن تحصبين! ركبتك الحصبة ليلتها، بغيتي تموتين ذلك الليل لولا لطف الله وصدقة السر. تظنّين الولدين جاهم شيء؟ لا. قال ربّي: بأجزيك يا أمهم على إيمانك وتوكّلك على الله وأنتِ يالّي انحشتي من قدر الله بتمرض بنتك.

لا أحد يسرد القصص مثل أمّي. صدقُها جعلها تعترف بأخطائها وتذكُر ما حدث فعلًا دون تغييرٍ. صراحتُها كانت سببَ غضب بعض نسوة القرية منها عندما كانت تخبرهنّ بما فعل أزواجهنّ وأبناؤهنّ، كنّ ينفعلن حينًا ويصمتن حينًا آخر. الحقيقة مرّة، إلّا على لسان أمّي.

* * * *

كبرت سويّر وكبرت تلك البنت الصغيرة وأصبحت صديقتها الأقرب. كانت تذهب إلى منزل صديقتها الجديدة لتشهد ما كانت تظنّه سحرًا. تيماء تنظر إلى أمّها التي تحرّك يدها في الهواء وكأنّها تلمس جدارًا خفيًّا، ترسم عليه علامات غريبةً ما إن تراها تيماء حتّى تنطلق لتفعل شيئًا أو تحضره. بينما كانت هي وسويّر تلعبان في باحة المنزل، أتت شرعاء بهدوءٍ ونظرت إليهما. بادلتها ابنتها النظر. وفي أقلّ من ثانيتين نهضت تيماء وهي تتمتم بخجلٍ: نسيت، نسيت.

عندما عادت تيماء ممّا كانت فيه داخل إحدى الغرف سألتها سويّر عمّا جرى فردّت:

- أمّي زعلانة علي.
- ليه؟
- نسيت أصك الباب ودخل القطو ولعب في أغراض أمّي. قلت لها تراني صكيته، فقالت لي لا ما صكيتيه، فقلت يمكن نسيت. ورحت أصكه.

جرى كلّ ذلك الحوار في ثوانٍ من الصمت دون أيّ حركةٍ من يد الأمّ! كان لهذا الحدث الصغير أثرٌ في تعميق علاقة البنتين. رأت سويّر

في تيماء فتاةً خارقةً. كانت ترى فيها شيئًا مختلفًا، الصدقَ والوضوحَ، صدقًا آخر يختلف عن صدق أمّها، لا يحتاج حتّى إلى كلماتٍ. عادت إلى منزلها وقد أيقنت أنّه ليس لأحدٍ أن يكذب بعينيه أمام تيماء.

* * * *

تجاهلت سويّر ألمَ شدّ شعرها خلال الجدل، سألت:

- وين راحت أمّها؟ ليه تركتها؟

- ما تركتها، مرضت تيماء وودّوها للشيخ يقرأ عليها وما زان حالها، قال الشيخ لأمّها ودّيها للمستشفى في الجزيرة! راحت شرعاء ببنتها للساحل وركبت بمركب في البحر. كان يوم ما شفنا مثله، جانا هواء قلّع الشجر، والله لو إني أدري بنواياها كان منعتها تروح ذاك اليوم لكن قدر ونصيب. غرق المركب، يوم أسود مات فيه خلق كثير، غرقت الأم ونجّى الله البنيّة المريضة. ليت أبوها هو اللّي راح بدال أمّها المسكينة.

سمعت سويّر لاحقًا كلامًا كثيرًا من نسوة القرية عن رحيل شرعاء. قيل إنّها غرقت وهي تصرخ طلبًا للنجدة ممّن حولها بكلماتٍ مفهومةٍ! فالجنّيّ الذي ربط لسانها هرب -هو نفسه- محاولًا النجاة من أهوال ذلك اليوم الأسود تاركًا لسان شرعاء ينطلق. وقيل إنّها نجت بعدما أنقذها قاربٌ مليءٌ بالتجّار الهنود. سفيان بائع الأقمشة في الساحل يقول إنّه رآها بعد ثلاث سنوات من يوم الغرق تبيع الشاي في أحد أسواق بومباي، ويُقسم أنّها كانت تتكلّم بلسانٍ هنديٍّ مُبينٍ وأنّها ما إن لمحته حتّى توارت واختفت بين الجموع. التفسير

الأخير هو ما تؤمن به أمّ سويّر، وكانت تسأل: هل تلُمْنَها؟ كانت الوسيلة الوحيدة للهرب من الزوج الكهل الجبّار ومن الجنّ الذين لم يفارقوها إلّا عندما غادرت هذه القرية المسكونة.

كان عمر تيماء تسع سنين عندما عادت إلى والدها وإلى القرية. لم تتحدّث كثيرًا عن السنوات التي قضّتها عند آل زبن. تذكرهم بالخير، لكنّها لم تتحدّث عنهم بالتفصيل مطلقًا. لا تتذكّر سويّر أنّها سمعتها قطّ تتحدّث عن بنات العائلة وأولادها ولا عن عددهم وعاداتهم وقصصهم. «الله يذكرهم بالخير»، هذا ما كانت تيماء تكتفي بقوله.

عندما علمت أمّي ونساء الحارة أنّ تيماء لا تعرف القراءة والكتابة حدّثن أزواجهنّ كي يقنعوا سالم بإدخال ابنته المدرسةَ. وافق على الفور، لكنّ الفتاة لم تكمل شهرًا حتّى توقّفت عن الحضور. كان الشهر كافيًا لتكوّن صداقةً مع سويّر. كانتا تجلسان سويًّا. لم تقتنع سويّر بكلّ الأعذار التي سمعتها من صاحبتها لتبرير عدم قدومها إلى المدرسة. فهي تؤمن في قرارة نفسها بأنّ صاحبتها لم تحبّ المدرسة، ولا يومها المنظوم بدقّة المعلّمات وصرامتهنّ، لأنّها مليئةٌ بالكلام والصوت العالي. لم يجبرها والدها على الدراسة كبقيّة أولياء الأمور، بل قبّل رأسَها ولم يَعُد إلى ذكر المدرسة أمامها مطلقًا. بعد مغادرة تيماء الدراسة، صارت معظم اللقاءات بين الفتاتين في الحارة أو في منزل أمّ سويّر.

لم تبدِ تيماء أيَّ خوفٍ عندما أسرّت لها سويّر أمرًا لم تخبر به أحدًا. كان الجنّ يعبثون بمنزلهم ويغيّرون ترتيب ملابسها إذا تركوا البيت.

- أمّك ايش تقول؟

- ما قلت لها.

- وهي ما تشوف بنفسها؟

- لا، الجن ما يقربون غرفة أمّي لأنها صالحة، بس يعيشون في غرفتنا والمطبخ، أنا اللّي أرتّب وأعرف ايش تغير. أمس لقيتهم مغيرين ترتيب ثيابنا.

- يرتبون ثيابك؟ ليتهم ينظفون البيت بالمرّة.

ضحكت تيماء وهي تقول ذلك بسخريّةٍ جعلت سويّر لا تخاف مرّةً أخرى ممّا يقوم به الجنّ. تشعر بالأمان مع هذه الفتاة.

تذكّرت سويّر كيف زارت منزلَ تيماء ذات يومٍ رغم أنّ والدتها منعتها من ذلك. لعبتا طويلًا في البيت، رأت والد تيماء يحمل دلوًا ممتلئًا بالرمّان فتوقّفت. خافت منه. هذا الذي لا تحبّه أمّي! دعاها فدنت منه بتوجّسٍ. أعطاها رمّانتين كبيرتين لا يجاوز حجمَهما سوى الابتسامة التي رأتها في عينيه. أخذتهما على غير رغبتها. أعطتهما لتيماء التي ردّت أن ليس بعدُ وليس هكذا. لم تفهم. وضعتهما جانبًا، وانطلقت تلهو مع تيماء ساعةً. كانتا تقضيان وقتًا ممتعًا لم يمنع عيني سويّر عن الانشغال بمتابعة الشيخ الكبير وهو يقوم بفعلٍ بدا لها غريبًا. كان يجلس صامتًا يرمقهما مبتسمًا وهو يمسك بالرمّان ويقضّي وقتًا طويلًا في تقشيره أو لمسه. لم يتّضح لها بدقّةٍ ما كان يفعل.

الرّمان يا تويم. نادى الشيخ ابنتَه بصوتٍ هادئٍ نداءً واحدًا. تويم! هكذا كان ينادي ابنته! فكّرت سويّر وتيماء تسحبها من يدها

راكضةً نحو والدها. وصلتا إلى الشيخ فوجدتاه يجلس وابتسامتُه لا تزال مرتسمةً على وجهه، أمامه كومةٌ عظيمةٌ من قشور الرمّان بدأ ينقلها داخل الدلو الفارغ مفسحًا المجال أمامها لصحنٍ أبيض متوسّط الحجم فُرشت عليه حبيبات الرمّان المنثورة النقيّة من كلّ الشوائب حتّى غطّت كامل الصحن.

كان منظر الرمّان الكثير والنقيّ أجملَ ما رأته عينا سويّر على الإطلاق. وقبل نهوضه مدّ يده الكبيرة وفيها حفنة رمّانٍ زادت حمرتُها عن غيرها. أقبلت ابنته وأمسكت بيده لتثبّتها والتقطت بيدها الأخرى تلك الحبيبات واحدةً تلو أخرى. توقّفت قبل التقاط الأخيرة ونظرت إلى وجهه، ثمّ التقطتها بخفّة ثمّ تحاول العودة لضربِ كفّه لكنّه سحبها بسرعةٍ لا تناسب رزانته. أطلقت الفتاة صرخة انزعاجٍ. ضحك وهو يقول: اليوم غلبتك.

عندما حمل الشيخ الدلو مبتعدًا عنها، كانت سويّر تنظر بدهشة إلى الرمّان تارةً وإلى الشيخ وهو ينشر القشور على حصير تحت أشعّة الشمس تارةً أخرى. ذلك المساء، أدركت سويّر أنّها تحبّ الرمّان. وللمرّة الأولى في حياتها أدركت أنّ أمّها لم تخبرها الحقيقة. لم ترَ في هذا الشيخ الكبير أيّ صفةٍ من الصفات السيّئة التي رجمته بها.

عادت سويّر إلى منزلها تحمل شيئًا من الشكّ في مصداقيّة أمّها. بدأ هذا الشكّ ينمو مع السنوات وزادته المواقف رسوخًا. رفع الشكّ غشاوةً كانت على عينَي سويّر فأصبحت ترى نظرات نسوة القرية إلى أمّها بشكلٍ مختلفٍ. لم تعد تلك النظرات نظرات إعجابٍ. فخلف

الابتسامة كانت كلٍّ منهنّ تخفي ازدراءً وعدمَ تصديقٍ لما يُقال. يبدو أنّ الساحرة الصغيرة تيماء قد منحتها شيئًا من تلك الكرامة في نزع الأقنعة ورؤية ما وراءها. بدأت تفقد ثقتها بتلك الأقنعة. ومع الأيّام تعوّدت سويّر على مجاراتها بقناعٍ مشابهٍ. فالكلّ يكذب على الكلّ هنا.

* * * *

كبرت البنات بخجلٍ يشبه نموّ مجهرة. حين بلغت سويّر التاسعة عشرة تقدّم لها ابن عمّها فلاح ليتزوّجها. أخبرت صديقتها. لم ترَ في عينيها حماسًا. كانت ردّة فعل تيماء كافيةً. لا شكّ أنّ تيماء رأت في عينَي فلاح ما لا يراه غيرها. غضب والدها، لكنّها أقنعت أمّها بأنّها لا تحبّ فلاح. استغلّت الأمّ الفرصةَ لتوعز إلى ابن أختها فرج بالتودّد إلى ابنتها طوال سنةٍ كاملةٍ، لكنّ سويّر لم ترَ في كلّ الرجال من حولها ما يروق لها. قرّرت الانتظار حتّى يصل رجلٌ مختلفٌ وصادقٌ، رجلٌ بلا قناع.

مع مرور الوقت وتوالي السنوات بدأت تدرك أنّها لو رفضت كلّ الأقنعة فلن تتزوّج. صاحبتها مريم ابنة البلسي الأصقه أكبر منها سنًّا وأجمل منها بل ومن كلّ فتيات القرية، لكنّها لم تتزوّج بعدُ. كان باب علي البلسي كبيرًا وعليه كثيرٌ من علامات الطرق والخدوش القديمة والحديثة، لعلّها بقايا أحلام الخاطبين المهشّمة. لم يوصل جمال مريم صوتَ طرقات الخاطبين إلى أذن والدها الذي لم يعد يسمع شيئًا. تبدّد الطَّرقُ وشبابُ ابنته لأنّ أذنه قرّرت تجاهل العالم. رأت سويّر شباب مريم يذوي عامًا بعد آخر في انتظار رجلٍ يستحقّ جمالَها. فقرّرت هي أيضًا ألّا تغامر، لذا جاء فرج.

كان فرج يسكن مع والدته بالبيت الملاصق لبيت سويّر. يعيش على أجرة السيّارة التي يقودها من الساحل وإليه. لم تكن تراه كثيرًا. سرقَه طريق الساحل وشغله عن القرية. ويوم ارتقى الأبكم مئذنة المسجد وجمع الناس حوله، رآها فرج تمشي وحيدةً وهي تغادر ذلك الحشد. فأوقفها وقال لها إنّه سيتزوّجها وسيرزقان أطفالًا وسيطوف العالم بها وبالأطفال في تلك السيّارة. يومها ابتسمت من جرأته ومن شكل شنبه المضحك الذي يبدو أنّه شذّبه في ليلةٍ مظلمةٍ. سألته عن أطول مشوار وطريق سلكها بتلك السيّارة، أجاب: مكّة. باغتها جوابه. قفزت سويّر بخيالها إلى مكّة ورأت نفسها أمام الكعبة وفرج بجانبها ومعهما طفلان. في تلك اللحظة، وبينما انشغلت القرية بإنزال ذلك الأبكم من المئذنة، اختطفت نظرةً أخيرةً إلى فرج. وقبل أن تغادره، علمت سويّر أنّها ستتزوّجه. لم تسأل عن رأي تيماء فيه. وتجنّبت حتّى الحديث معها في شأنه. بعض الطعام ألذّ عندما تبتلعه مُغمَض العينين.

تزوّجته وانتقلت إلى السكن معه وأهله. أرشدها إلى غرفتها. فتحت الباب وقبل أن تدلف قدمها إلى الداخل، لفت انتباهها اللون الأخضر الذي تسلّق جدرانها. دهنت جوانب الغرفة بخضرةٍ داكنةٍ ارتفعت إلى منتصف الجدران تاركةً اللون الأبيض معلّقًا يغطّي النصف الأعلى والسقف.

لا شكّ أنّ الساحل منح فرج بعضًا من حلاوة اللسان التي لم تُنبتها مجهرة. كان يغنّي لها، يكثر الغزل، بل ويهمس لها بكلامٍ لا يليق في حضرة أمّها وأمّه. قال لها إنّها قمره ونجمته. أمسك مرّة بكلتا يديها:

- قلت لك قصتي مع النجوم؟

- أي نجوم؟

- كنت في صغري أنام لحالي على السطح، وكان منظر النجوم يسحرني، كنت أظن أنه مع صلاة المغرب تطلع خالتي لسطحكم وترسل النجوم من بيتها وتنشرها في السماء. أجمل منظر يشوفه بشر هو رجعة النجم لسطح أمّك مع الفجر. كنت أحاول أصحى بدري عشان أشوفه، لكني دايم أصحى بعد ما تختفي النجوم.

- ولا مرّة شفتها تختفي؟

- البارحة، كنت أتمقّل فيك وأنت نائمة، وأطالع جمالك، ما حسّيت بنفسي إلّا وأنا أقوم من النوم والصباح قد طلع، دريت أن النجوم ما تغيب، حنا اللّي ننام، أو نغمض عنها.

لم تدر بما تشعر، لم تعتد سماع كلامٍ جميلٍ كهذا، وإن لم تكن متأكّدة ممّا إذا كان يتغزّل بها أم يسرد واحدةً من قصص طفولته.

توافدت النساء لزيارتها كما يفعلن مع كلّ عروس. وجاءت تيماء معهنّ. فأشارت إليها بأن تنتظر ولا تغادر مع الأخريات. تحدّثتا عن الزواج وطقوسه والمواقف الطريفة التي حدثت. روت لها تيماء أنّ والدها عاد ضاحكًا على أحد كبار السنّ إذ نام خلال الحفل ولم توقظه إلّا طلقات نار أطلقت احتفالًا بقدوم العريس من بندقيّة بجانبه، فقام فزعًا.

جالت تيماء بعينيها في أطراف الغرفة الكبيرة التي بدت نظيفةً.

تأمّلت خاتمًا بيد العروس التي أشارت إلى صندوقٍ كبيرٍ وُضِع في أحد زوايا الغرفة.

- تشوفينه؟ ملأه فرج بالهدايا. ذهب، عطورات، كحل، ملابس، حذيان.

- الله يسعدكم.

- ما قدرت أقفله من كثرة ما فيه.. شفتي الأخضر؟ ما فيه غرفة ثانية بالبيت بنفس اللون، يقول فرج أنه أحلى الألوان.

- الأزرق والأخضر حلوين.

قضّت الليالي الأولى تُعيد ترتيب الغرفة الواسعة التي أصبحت لها، عالمها الجديد.

لا شكّ أنّها حملت البذرة منذ ليلة زواجها الأولى. فلم تكد تكمل شهرها التاسع حتّى أنجبت مولودها الأوّل. أرادت تسميتها مكّة فصرخ فرج بوجهها:

- ما يجوز.

- ايش اللّي ما يجوز؟ اسم أبرك الديار وبحول الله تتبارك البنت به.

- حرام يا مسلمة، البنيّة لو ضربت رفيقة لها، هل ترضين تسمعينهم يسبّون ويلعنون مكّة لأنه اسم البنت؟ ما يجوز.

- ..

- سمّيها اسم زين مثل فاطمة، اسم بنت الرسول.

فاطمة هو اسم ابنة الرسول، وهو أيضًا اسم خالتها أمّ فرج. وافقت على مضضٍ، فمكّة كان الاسم الذي خاطبت به الجنين في بطنها ستّة أشهرٍ. مكّة، اسم جميل للذكر والأنثى فلمَ لا يريدونه؟ لا أمّي ولا فرج ولا حتّى تيماء كما يبدو!

* * * *

تؤرّخ سويّر بداية الشقاق بينها وبين زوجها بشهرين قبل ميلاد سرور، طفلهما الثالث وأوّل الأولاد. كانت في شهرها السابع عندما بدأت الشكوك تظهر في عالمها حول فرج. أصبح يكثر البقاء في الساحل، وصار أكثر معرفةً بأسماء عطورات السيّدات وحوائجهنّ. انتبهت إلى أنّه ينظر إلى البيت باعتباره مكانًا للنوم فقط. لم يعد يتغزّل بها ولا يغنّي لها آخر الليل كما كان يفعل.

عاد ليلةً قُبيل الفجر مختلف الهيئة نتن الرائحة. شعرت بأنّه غير طبيعيٍّ. يبدو أنّه مسحورٌ. يبدو أنّ إحدى نساء الساحل سحرته كي تستولي على ما يجنيه. اللعنة، لقد انتبهت للتوّ إلى أنّه لم يعد يجلب المال إلى البيت في الفترة الأخيرة. يتعلّل بسوء السوق وبأنّ الحافلات التي دشّنتها المدينة لربط الساحل بما حوله قد سرقت منه نصف رزقه. كذب، إنّه السحر. عيناه كانتا محمرّتين، زائغتين، تسبحان في الفضاء. رائحته نتنة، أنفاسه كريهة.

لم تصبر ذلك الصباح، فاتّجهت إلى الشيخ عيسى ووصفت له ما كان.

- حاله ما يتغيّر إذا قام من النوم؟

- ما أدري، ما قام لا الحين.

- روحي لبيتكم واقرأي قدامه القرآن واسألي الله له الهداية.

- أقرأ عليه وهو نايم؟ أرفع صوتي؟

- لا تقرين عليه، اقرأي قدّامه.

استجابت لما قاله الشيخ رغم استغرابها. ذهبت وجلست في صالة البيت تقرأ القرآن محاولةً إسماع زوجها الذي كان يشخر. استيقظ. خرج من الغرفة ورآها تقرأ القرآن. قبّل رأسَها. وذهب إلى الحمّام. قفزت فرحًا. يا لك من شيخٍ يا عيسى! عاد فرج الذي تعرفه. ورغم تعكّر مزاجه أثنى على صوتها.

لم تدم الفرحة طويلًا. يبدو أنّ السحر كان قويًّا فعاد. أسرّت لتيماء بما حصل:

- صار فرج يرجع مسحور كلّ ليلتين أو ثلاث، بأروح ثانية للشيخ عيسى.

- عيسى؟ لا تضيّعين وقتك.

- ودّي أعرف سبب كرهك للشيخ!

- زوجك علاجه بيده، ما هو بيد شيخ ولا عيسى.

- كيف؟

- فرج ما يخاف الله، يشرب الحرام.

وقعت الجملة كالصاعقة على سويّر. يا لغبائها! كيف لم ترَ ذلك! هذا هو شكل السكران.

أخذت في الحديث معه ليلتها فأنكر وصرخ وعلا صوته. خشيت أن يسمع الجيران. بدا لها تحمّل معاصي فرج أقلّ سعيرًا من نار الفضيحة في مجهرة.

كانت تسير في القرية كمذنبةٍ تخشى زوال ستر الله عنها. أصبحت ترى نظرات نساء القرية ورجالها إليها بشكلٍ مختلفٍ. هل كان الجميع على علمٍ بأمر فرج؟ لم تطق تلك النظرات. أصبحت لا تجادله ولا سيّما عندما يعود إلى المنزل فرجًا آخر غير الذي تعرفه. لا تودّ أن يسمع الجيران صراخها. بعد فترةٍ رجعت إلى المنزل، فشمّت رائحته قبل أن تبلغ الباب. تستطيع كتمَ الصوت لكن كيف ستمنع الروائح؟ أصبح منزلها يعجّ بالبخور والعطور. أحاطت نفسها بجدرانٍ من الضباب كي لا يراها الهمّ وحيدةً. وذات فجرٍ، وفرج فاقد الوعيَ وقد سرق النومَ من عينيها، أخذت تتأمّل غرفتها فاكتشفت أنّها بدأت تضيق عليها كثيرًا. كيف لم أنتبه إلى صغرها!

قرّرت ذلك المساء أنّها إن لم تستطع إيقاف معصية زوجها فأقلّ ما تستطيع فعله هو أخذ الفضيحة بعيدًا عن الأعين. قرّرت إخراجَ فرج من وسط الحارة إلى مكانٍ بعيدٍ لا يُسمع فيه غناؤه ولا صراخه، مكانٍ لا تُشمّ فيه رائحة بؤسها.

مرّت السنوات بطيئةً مثقلةً بالهموم. لم يصبّرها سوى بناء بيتها على طرف القرية. تعلّلت بأنّ أسعار الأرض رخيصةٌ، وبأنّ مجهرة ستمدّد بذلك الاتجاه وأنّ القرار أوّلًا وأخيرًا هو قرار فرج وحدَه. تحمّلت ما رأته في عيون نسوة القرية من تعليقاتٍ قاسيةٍ.

بعد دفن والدتها بعامٍ، سكنت البيت الجديد، وبعيدًا عن المنازل الأخرى. لم تعد تنزعج من حال فرج، ما دام الناس لا يقولون شيئًا فحسابه عند الله لا عندي.

كان مساؤها متذبذبًا بحسب ما يمليه مزاج فرج. أمّا يومها فصار مشغولًا بأطفالها وزياراتٍ متفرّقةٍ لصديقاتها والسوقِ التي تفرح بقدوم موعدها كلّ أسبوعٍ. ثلاثة من الباعة سبق أن حجّوا إلى مكّة. باعها أحدهم مسبحةً خشبيّةً يقول إنّها ما تزال تحتفظ برائحة الحجر الأسود منذ مرّت به.

من بين كلّ الأيّام اختار يوم زواج صديقتها ليعود مبكّرًا على غير عادته ويشغلها:

- جيبي شاي.
- ما تشوفني مشغولة؟ وراي عرس الليلة.
- لاحقين على العرس، تو الناس، سوّي شاي.
- لاحق على الشاي.

أخبرته بنبرة صوتها الرقيق أنّها لن تترك التزيّن في ليلة عرس صديقة عمرها. تجمّلت على نحوٍ لم تفعله من قبل. وعندما نزل من السطح يجرّ معه روائح سجائره، ظهرت له بفستانها الأخضر وحليّها التي غطّت نصف صدرها وفشلت العباءة في كتم لمعانها كفشل جمالها في انتزاع تعليقٍ منه. طلبت منه إيصالها إلى بيت العروس. لم يتحدّث في الدقائق التي استغرقتها السيّارة للوصول إلى الحارة. كلّ ما سمعته هو صوت المفاتيح وهي تحاول الهرب من الميداليّة الكبيرة، وصوت

أنفاسها من تحت برقعها وسعال متقطّع نسي أن يرميه مع السيجارة. توقّفا أمام البيت الذي أضاء الشارع كلّه، حتّى وجه فرج المكفهرّ أصبح واضحًا بسببه.

- متى بتخلصين؟

- ما أدري، متى ما خلصنا بأقول لك.

- لا تسهريني، وراي مشاوير بكرة، ما ودّي أطوّل بالعرس.

- حتى الرجال وسوالفهم ما صاروا يصلحون لك؟

نظر إليها بانزعاجٍ، ولم يعلّق.

- ما لها من الخويات غيري، وبأجلس معها لين يدخل المعرس وبعدها بأروح للنسوان.

وصلت إلى بيت العروس الذي أضاءت عقودٌ ممتدّةٌ من المصابيح الصفراء جدرانَه الخارجيّة. في الداخل، رأت أربعة أسلاكٍ حملت عليها ما يزيد عن ثلاثين مصباحًا طردت الليل من باحة البيت الصغير الذي امتلأ بالنساء والأطفال. لا شكّ أنّ صحن الكعبة مضيءٌ هكذا حتّى في منتصف الليل. توجّهت إلى غرفة تيماء التي لم تبدُ عليها أيُّ مشاعر ممّا يناسب ليلةً كهذه. لم تكن خائفةً أو مرتبكةً، لم تكن سعيدةً أو حتّى مهتمّةً بما يدور حولها. الشيء الوحيد الذي اختلف هو أنّ وجهها ازدان بالألوان. الخدّان بيضاوان جدًّا والشفتان حمراوان جدًّا، أمّا الكحل الذي وضعته للمرّة الأولى فقد أضاف إلى عينيها الحادّتين خطوطًا عريضةً أضفت عليهما هالةً لم تفهم سويّر هل زادتهما جمالًا أم صرامةً؟! لم تهتمّ تيماء بأسئلتها عن

العريس وأمّه، بل ظلّت تحدّثها أنّها لم تتزوّج إلّا إرضاءً لوالدها.
واصلت سويّر أسئلتها:

- ما قلتي لي، هو صحيح أنك شرطتي أنك ما تطلعين من بيتك؟
- الناس ما يخلّون أحد في حاله؟ من اللّي قال لك؟
- جاني العلم من غيرك.
- يكفي أسئلة وقول لي.. كحلتي زينة؟
- إيه، ليه؟
- ما شفتها لا الحين.
- كيف ما شفتيها؟ المراية قدامك، ايش مانعك؟
- ما شفتها. الكحل زين؟
- زين ما شاء الله، هذا وأنتِ ما شفتي وجهك.
- واضح؟ ما أزيده شوي؟
- واضح وكثير ما يحتاج. حتى يعقوب الأزرق بيشوفه من بعيد.
- يعقوب الأزرق؟ الله يرحمه، استغفري الله.

ندّت عن عيني تيباه ضحكةٌ لم تنتشر على باقي وجهها. وكانت هذه علامةً كافيةً على أنّها سعيدةٌ في ليلة زواجها. ومع اقتراب أصوات النساء نحو غرفة العروس مؤذناتٍ بقدوم العريس، علمت سويّر أنّ وقت المغادرة حان. خرجت فرأت ازدحامًا لا يليق إلّا بالحجّ، غطّت رأسها جيّدًا وهي ترى عددًا من الرجال الذين أحاطوا بالعريس المتأنّق، كان كلٌّ منهم يحاول جذبَ انتباه الفتيات والنسوة.

هل أصبح رجال القرية أكثر وسامةً مؤخّرًا؟ رأت فرج في آخر الوفد الذي أحاط بالعريس. كان يلعب بسلسلة مفاتيح في يده ويدير رأسه كبومةٍ متفحّصًا النساء اللواتي لم يتغطّين بالشكل الكافي أمام الزوّار العابرين. لِمَ لا يجد في هؤلاء الرجال رفيقًا يجعله يثبُت في قريته ويقضي أمسياته فيها؟! شعرت باتّساع المسافة بينهما.

خرج الرجال، فعادت النسوة إلى نزع ما على رؤوسهنّ، وأكملن الرقص. رأت النسوة وهنّ يغالين في دفع نقوط أزواجهنّ وآبائهنّ ويُكثرن من مدحهم. قفزت إلى منتصف (الملعب) عندما حانت الفرصة، ومدّت يدها إلى الطقاقة بورقةٍ نقديّةٍ كبيرةٍ وهي تحاول إسماع من حولها: «نقوط فرج بن سعد وأهله». «ما للقفل إلّا مفتاحه ولو هو مصدّي». رقصت طويلًا حتّى آلمها ظهرها. رأت قريباتها وصديقاتها يشاركنها الرقص. وعندما حانت اللحظة التي استعدّت لها جيّدًا، بدأت تدور بسرعةٍ عاليةٍ متيحةً لشعرها الطويل أن يغطّي كامل الساحة بعدما أفسحت لها النسوة. دارت بجنونٍ وبلا توقّفٍ وبدأت ترى في مصابيح الفرح أطيافًا. مع كلّ دورةٍ كانت ترى شيئًا مّا. رأت أمّها، رأت تيماء، رأت فرج، رأت أطفالها، رأت سيّارته. وقبل سقوطها على الأرض وانقطاع نفسها، رأت الموت.

أفاقت في منزلها صباحًا. لا تعرف ما حدث. عند الضحى، أتت أمّ غُرَيْدِل لزيارتها. أخبرتها بأنّها فقدت الوعي وسقطت أمامهنّ فجأةً مثل جثّةٍ هامدةٍ. قيل إنّها انهارت بسبب البخور الذي لم يناسبها. وقيل إنّه الحمل الذي كانت تُخفيه عن الجميع. وقيل إنّها عينٌ أصابتها

بسبب مفاتنها التي أضاف إليها الثوب الأخضر الضيّق والذهب سحرًا لا يقاوم. لم تخبرها أمّ غريدل عن قول البعض إنّها افتعلت الإغماء لإيهام الآخرين بأنّ العين التي تطاردها أينما حلّت هي سبب هروبها من الناس وسكنها بعيدًا، وأنّها تهدف بذلك إلى نفي ما تبثّه بعض جاراتها السابقات من كونها ابتعدت ببيتها بعدما ألمحوا إليها بأنّ الأصوات التي تطلقها الذئبة المخبّأة بجانب سريرها أصبحت تفزع أطفال الجيران من نومهم في ليالي مجهرة الهادئة.

ما أنبلك يا تيهاء، حتّى في أوّل أيّام زواجك تأتين للاطمئنان عليّ!

لم تقل لها تيهاء شيئًا عن العريس. وفشلت محاولات سويّر على مدى الأشهر التالية في استقصاء أيّ خبرٍ عنه. لم يبدُ على تيهاء أيُّ اهتمامٍ به. كانت تتحدّث عن والدها وأمّها أكثر.

بعد سنةٍ ونصفٍ، سمعت من فرج أنّ زوج صاحبتها شوهد وهو يصبغ باب منزلها ويزيّنه. بدأ مع ظهور نور الصباح، وقبل أن يُتمّ الباب كلّه توقّف فجأةً، تأمّل الباب ثمّ توجّه إلى منزل والده قبل أن يغادر القرية من غير سببٍ معلومٍ. لم يعد. سألت تيهاء فردّت باقتضابٍ أنّه سافر طلبًا للرزق. مرّت الأشهر، اكتشفت تيهاء حملها الأخير وهو غائبٌ. وبقدر سعادتها الجمّة بزيارات تيهاء لها في بيتها القاصي، كانت سويّر تشعر بأنّ صاحبتها تحاول مثلها الابتعاد عن القرية وعن أعين الناس وألسنتهم التي ألقت عليها مسؤوليّة غياب زوجها.

كانت تلك الزيارات متنفّسًا لسويّر من عالمها المحتقن مع فرج. كانتا تتبادلان الزيارات، ورغم إسقاط تيهاء حملَين لم يكمل أيّ منهما

شهره الرابع، رفضت تلك العنيدة نصائح سويّر بألّا ترهق نفسها في حملٍ قد يكون الأخير.

كانت تؤمن بنصائح تيماء رغم قلّتها، لذا شكت لها عندما طلّقها فرج في المرّة الأولى وأخبرتها بأنّ حبّها له يعبث بمشاعرها هبوطًا وصعودًا. شعرت بالضعف وهي تسمع تقريعًا من تيماء وحكمًا بأنّ الحبّ لا يُكتَسب، بل يأتي بروابط الدم والقرابة.

- كيف تحبّينه؟

- ما أدري، الإنسان يحب من يعاشر ويجلس معه، وهو أبو عيالي وسنين معي. أنتِ مع من تجلسين غيري؟

- مع أبوي وذكرى أمّي. أنتِ قولي لي، ليه تحبّينه؟

- كيف ليه؟ زوجي.

- زوجك اعطيه حقوقه وبس، حقوقه هي اللقمة والذرّية والعشرة الطيّبة، بس.

- ايش اللّي يفرق زوجك عن جارك أجل؟

- الشرع وجدار.

- ما ألوم زوجك يخلّيك دامك ما تحبّينه.

- وأنتي وين زوجك الذي تحبّين الحين؟ الرجال ما يهمّهم غير اللّي يهمّ البهايم.

احتدم الحوار بينهما، وانزعجت وهي تسمع تيماء تصف زوجها بالبهيمة، وبأنّه متى أحسّ بثقل وجودها عليه سيبحث عن أخرى لا

تثقل كاهله بعبءٍ آخر كعِبْء حبّها. الحبّ اسمٌ آخر للشهوة اخترعه الرجال.

- لا تبكين، ووفّري دموعك وحبّك لورعانك وأهلك. بتعدّي هذي المشكلة ويعود زوجك الخائب لك.
- أجل ليه نتزوّج؟ ليه أعيش مع واحد يتعبني ولا يحبّني ولا أحبّه!
- عشان ترضين والديك، وتجيبين ورعان وتصيرين مثل الباقيات.

سويّر لا تودّ أن تكون مثل الأخريات. كلّ صاحباتها لم يحججن ولم يرين الكعبة. ذلك المساء وقبيل نومها، كان عقلها حلبةَ معركةٍ كبيرةٍ بين فرج وتيماء. لا تعلم لمن تنتصر؟ للحبّ الناقص القبيح أو للصداقة الصادقة المؤلمة. لم تعد تضع أحمر الشفاه الذي يحبّه فرج. كانت تيماء تنفر من مبالغة الأنثى في تزيّنها للرجل. أصبحت ترى بوضوحٍ الألم الذي يسبّبه لها فرج. هل أحبّته فعلًا؟ ما التفسير لهذا الألم إذَن؟ يبدو أنّها أصبحت تحبّ فرج، لا تعلم ما إذا كان هذا الحبّ يختصّ بفرج أم إنّه سيكون متاحًا لأيّ رجلٍ يتزوّجها. تمنّت أنّها عرفت جواب السؤال الذي أرّقها: هل أحبّته لأنّه فرج أم لأنّه زوجها؟

نعم، أحببتُه! لكنّه أحبَّ سيّارته التي وضع فيها كلّ ما يهمّه من أشرطةٍ ودفاترَ وعطوراتٍ. أحبَّ الطرقات التي تجعله حرًّا هاربًا من كلّ شيءٍ، أحبّ السجائر التي تثبت أنّ صدره ما يزال حيًّا. أحبّ

المفاتيح التي يجمعها بغباءٍ ويظنّ ألّا أحد يلاحظ هوسه بها والحال أنّ الجميع يتندّرون عليه في غيابه. أحبَّ كلّ المعشوقات في الأغاني التي كان يحفظها، أحبَّ كلّ شيء في عالمه ما عداي!

أسبوعان مضيا لم تغادر فيهما البيت. زارها الشيخ عيسى وذكّرها بأنّ الطلاق هو أكره الحلال وأبغضه عند الله. وذكر لها أنّ فرج نادم ويحترمها ويقدّرها ويُكبِرها ويشتاق إليها. شعرت بأنّ الشيخ عيسى استنفد كلّ المترادفات اللغويّة لما أراد قوله، لكنّه لم يذكر الكلمة التي انتظرتها. لم تَرُدّ. جاءت كلمات صاحبتها من الخلف. وقبل أن تنزل سلّة القهوة من يدها قاطعت تيماء الشيخ:

- وهو ما عنده لسان؟ ليه ما جاء يقول لها بنفسه؟

- مرحبا يا بنت سالم، الرجل نادم وبيجي.

- أجل ليه جيت يا عيسى، خلها تنتظر لين يجي بنفسه.

- كوني محضر خير يا مَرَة.

- الخير هو أنه يجي هنا ويقول اللّي عنده بنفسه وما يرسل أحد.

غادر عيسى وهو يرفع صوته بالتسبيح.

- الخائب ما أرسله.

- ايش أدراك؟

- ما شفتي وجه عيسى؟ وجهه يكذّب لسانه.

- وليه يكذب الشيخ؟

- بعض الرجال خبل، يظنّ الكذب في الخير ما يضرّ. اسمعي،

إن كان الخايب أرسله فتراه بيجي بنفسه الليلة يسترضيك، وإن كانه ما أرسله فما راح يجيك إلّا بعد صلاة الجمعة. زوجك نادم لكنّه متردّد. وبيجيك لا تحاتين.

لم يأت أحدٌ ليلتها.

كانت تطبخ غداء الجمعة لأطفالها عندما سألت نفسها: كيف يتغدّى أهل مكّة؟ أيأكلون الأرز مثلنا؟ هل تصل روائح طبخهم إلى الحرم؟ بخّرت البيت وألبست الأطفال ملابس نظيفةً بيضاءَ ووقفوا أمامها في صفٍّ. بدوا لها كمعتمرين لبسوا للتوّ ثوب إحرامهم. تغدّى الأطفال، اتّسخت ملابس بعضهم. نام بعضهم. تأمّلت المروحة السماويّة اللون فوقها وهي تدور مُصدرةً أزيزًا رتيبًا مع كلّ دورةٍ. لا تعلم لماذا صدّقت تلك الفكرة السخيفة. لن يأتي. هل ستعرفه تيماء أكثر ممّا أعرفه أنا زوجته؟

شعرت بالتعاسة والذلّ وهي تزيل آخر ما بقي من أحمر الشفاه الذي وضعته. في تلك اللحظة خُيّل لها أنّها سمعت شيئًا وأصغت. وصلها صوتٌ لم تصدّق يومًا أنّها ستسعد بسماعه، من خلف الباب مباشرةً، سمعت صوت مفاتيح معدنيّةٍ تقترب من الباب.

* * * *

عندما طلّقها للمرّة الثانية كان الأمر مختلفًا. تحمّلت مغامراته التي تعلم أنّها حدثت رغم غياب دليلٍ قاطعٍ عليها. ابتعدت عن الجيران من أجله، فلم يقترب منها. ذلك النهار، تزيّنت له ولبست الأساور التي اشتراها لها. عندما جاء ترك سيّارته مفتوحةً. ذهبت لتُنزل ما

بها من حاجيات للبيت. وجدت في المقعد الخلفيّ شيئًا لا يفترض البتّة لرجلٍ صالحٍ أن يحصل عليه. لن تكلّف نفسها مناقشة الموضوع معه مادامت وقاحتُه وجرأته قد بلغتا مرحلةً أصبح فيها لا يهتمّ حتّى بإخفاء ملابس عاهرات الساحل. رأته قادمًا وابنتها لحمل بقيّة المتاع. وقفت أمامه، وصفعته. انتظرت أن يصفعها، لكنّه لم يفعل. نظر إليها مبهوتًا. رأت خيطًا أفقيًّا رفيعًا أحمر اللون على خدّه. غادر المنزل. عاد بعد نصف ساعةٍ. كان هادئًا. وقف بجانبها من دون أن ينظر إليها، وحرص على أن تسمع كلماته بين صراخ الأطفال من حوله.

- أنتِ عليّ مثل ظهر أمّي. تراك طالق، خلك في بيتك وبيت عيالك.

وكما دخل بهدوءٍ، خرج بهدوءٍ وهو ينادي ابنته فاطمة لتحضر له أشياء من داخل البيت.

مثواك جهنّم أيّها الخسيس. حتمًا سأمكث في بيتي الذي ساهمت في بنائه. هل تظنّ أنّك منحتني إيّاه كرمًا؟ لا حدود لوقاحتك أيّها الداعر.

لم تنم ليلتها. لقد لخّصت تلك الصفعة التي فاجأتها هي نفسها معاناتها معه، وفرّغت فيها صبر سنواتٍ عليه. عندما طلعت الشمس، رأت الصبيّة مستيقظةً. طلبت منها العودة إلى النوم، فلم تفعل. هدّدتها بصفعةٍ كتلك التي تلقّاها والدها. تركتها وذهبت إلى إحدى الغرف. أغلقت الباب. تجنّبت النظر إلى إحدى زوايا الغرفة التي ذكّرتها به. استنشقت بقايا رائحة سجائره التي أشبع الوسائد والسجّاد بها. كم

تكرهه وتكره رائحته. لم تعد تسعُل كما كانت تفعل في بدايات الزواج. لم تعد حتّى تنفر منها. أصبحت جزءًا من عالمه الذي غمرها به، عالم خدعها فيه بكلماته الجميلة وغنائه السيء.

أتت تيماء لزيارتها. حاولت إظهارَ التماسك. ما الذي أحضرك؟ هل وصلك الخبر؟ لن تريني مستاءةً ولن أعطيك فرصةً لتقولي إنّك رأيت هذا الأمر قادمًا. نعم هو من يحتاج إليّ وما بي حاجةٌ إلى مثله. اللعنة، هاتان العينان تسبران أغوار روحي وتقرآن ما بقلبي. هل ستعلمين أنّي أحبّه أكثر من قبل؟ هل ستقرئين فيهما ضعفي وغبائي وحاجتي إلى هذا الخائب كما تسمّينه. لم أعد أحتمل.

أخبرتها سوير بأنّها ليست في حاجة إليه. قاطعتهما الطفلة وهي تفتح النافذة. ستزول رائحة ذلك الوغد من الغرفة! كانت تحاول تجنّب النظر إلى عينَي تيماء، لكنّها ما إن وقعت عليهما حتّى انهارت كلّ حصونها. شعرت بأنّها مفضوحة تمامًا وأنّ تيماء تعلم حقيقة مشاعرها، فقرّرت الاستسلام. بكت أمامها فأخذت الأخرى تُواسيها، شعرت بأنّها في أضعف حالاتها، ضعيفة إلى درجةٍ جعلت تيماء تظلّ حتّى الغداء معها على الرغم من حملها.

غادرتها رفيقتها. وعند غروب الشمس، قامت لتطمئنّ على الأطفال. فرأتهم متعبين من اللعب وقد جلسوا يأكلون ما صنعته لهم فطوم من فطائر. ذهبت إلى المطبخ فوجدت ابنتها تسخّن الحليب وقد لفّت ذراعها بخرقةٍ. اقتربت منها. فتحت الخرقة، فوجدت آثار حرقٍ بسيطٍ شوّه ذراعها البيضاء الصغيرة. حاولت إخفاء دمعةٍ. قبّلت

رأس الطفلة. وقبل أن تتركها، عادت وضمّتها بحرارةٍ، وأفرغت كلّ ما تبقّى من دموعٍ.

في اليوم التالي، كانت تظنّ أنّ الأمس الذي شهد طلاقَها هو أسوأ أيّامها، لكنّها اكتشفت أنّه لم يكن أسوأ أيّام ذلك الأسبوع. ففي نهارها الأوّل بعد الطلاق علمت أنّ تيماء فقدت والدها ولم ترَه بسبب قدومها لزيارتها، وأنّها ولدت في المقبرة أمام الرجال، وأنّ النسوة استغرقن وقتًا ليَقْدِمن ويساعدنها. أكثر ما آلمها هو أنّ العدّة منعتها من زيارة تيماء. يطلّق الرجل ويخرج من ساعته إلى السوق، أمّا المرأة فتظلّ حبيسة المنزل ثلاثة أشهرٍ! أو هكذا ظنّت، لم تعلم.

بعد أسبوعٍ، أرسلت ابنتها لتسأل عيسى. قال لها إنّ الشرع لا يمنع المرأة من الخروج إذا طلّقت، فذلك أمرٌ يخصّ حداد الأرملة فقط. خرجت لزيارة تيماء. ظنّت أنّ فرج سيعود. كان يعود دومًا بعد كلّ ذنبٍ كبيرٍ. لم يعد، ولم تخبرها تيماء بشيءٍ. فقد انشغلت بطفلها الذي يبدو أنّه لم يجد في صدر أمّه ما يكفيه. فصار يتنقّل من بيتٍ إلى آخر بحثًا عن ثديٍ أو حتّى ضرعٍ يناسبه.

لمّا كان البيت يشكو غياب رجلٍ، لم يعد من المجدي بقاء سويّر وأطفالها بمنزلٍ ناءٍ. عادت إلى بيت والدها الذي سكنه أخوها وزوجته. كان ضيّقًا، تسمع فيه أصوات الجيران وجيران الجيران.

رغم اقترابها من منزل صاحبتها فإنّ لقاءاتهما قلّت. صارتا تلتقيان كلّ ثلاثاء بعد العصر. كانت تيماء تصرّ على أن تحضر سويّر ابنتَها فطّوم معها لكي تجالس ولدَها غيث. لا تعلم سبب نفور تيماء من ولدها!

تكاد تقسم أنّ المرأة لم تحبّ ولدها قطّ! تعامله كما تعامل زوجة الأب ابن ضرّتها. لم تجرؤ على مفاتحة المرأة أو حتّى التلميح لها. تيماء اليوم ليست تيماء الأمس. لقد دفنت ضحكاتها في قبر والدها يوم وضعت هذا الصبيّ المسكين فيه.

أخبرتها تيماء أنّها التقت فرج بالأمس، وبدا لها تعيسًا، وأنّه لن يجد السعادة بعيدًا عنها. وبينما كانت سويّر عائدةً من عند صاحبتها ذات يومٍ، رأته. كان يوقف سيّارته أمام منزل أبي شدوي. لم ينتبه إليها. توقّف ينتظر فتح الباب. مرّت وقلبها يكاد ينفجر من سرعة الدقّ. عندما أصبحت محاذيةً له تمنّت أنّه التفت إليها وأدار ظهره ليلمحها كما كان يلتفت إلى كلّ امرأةٍ يقع بصرُه عليها. لم يفعل. لمَ تركت فطوم في بيت تيماء؟ ليتها عادت معها. كان سينتبه إلى ابنته بالتأكيد. ليتني كنت مفتاحًا مُلقًى على الأرض.

تتصنّع عدم الانتباه وهي تسمع أخاها يخبرها عن غيابه المتكرّر عن القرية وصداقته الغريبة مع المعلّم الجديد في مدرسة الأولاد.

تثق ثقةً عمياء في قدرة تلك الساحرة على مشاهدة ما وراء تلك الأقنعة الكاذبة، رؤية الحقيقة في عيون الناس. لم يستطع أحدٌ خداع تيماء سوى «أبو غيث» وعينه اليسرى الكسولة شبه المغلقة، تلك العين التي منعت تيماء من رؤية نصف حقيقته. فتركها من دون أن تعلم لِماذا رحل وما إذا كان سيعود. وحده خدعها، أمّا ذاك المعلّم، فقد سبرت الساحرة أغوار عينيه وروحه واستطاعت رغم ابتعاده عن القرية أن تعلم أنّه فألُ سيء. يبدو أنّه مَن أفسد عقل فرج. ما الذي يفعله رجل

أعزب وحدَه في مدرسةٍ بقريةٍ كهذه؟ لا شكّ أنّه هرب من مدينته لفضيحةٍ مّا.

شعرت بأنّها مشتّتة، حتّى تيماء كانت مشتّتة! هل أصبح ولدها الصغير يشتّتها؟ لم تعد كما كانت.

هل يذكّرك بزوجك الغائب، أم بوالدك الراحل؟ لم أرَ في أيّ واحدٍ من تلك الأسئلة عذرًا كافيًا لحرمان الصبيّ غير المبرّر من الحبّ. الأهل هم الحبّ الوحيد الذي قلت لي ذات مرّة أن لا حبّ سواه.

عادت سويّر لأخذ فطّوم قبيل صلاة العشاء. في الطريق سمعت صوته قادمًا من نافذة مجلس آل شدوي المفتوحة. كان صوت فرج عاليًا يضحك ويغنّي «ألا يا ليت من خبَّر حبيبي، ترا قلبي نسيته أمس عنده». تلك الأغنية التي طالما غنّاها لها وحدها. يا لي من حمقاء! كنت أظنّها لي وحدي. لم أعلم أنّها أغنية قالها لكلّ اللواتي رآهنّ، وفي جلسات الضحك مع رجال القرية، بل وفي بيت آل شدوي الذي تميّزت بناته بأنوثتهنّ اللافتة. هل نوى الزواج بإحداهنّ؟

أسرعت الخطى. وعندما عادت ودخلت غرفتَها أدركت أنّ فرج كان سعيدًا بعيدًا عنها. لم يبدُ لها تعيسًا كما أخبرتها تيماء! لم تكوني استثناءً يا تيماء، فها قد صرت أنت أيضًا مثلهم تجانبين الحقيقة. ضمّت ميداليّة اشترتها قبل سنةٍ حوت مفتاحًا واحدًا نُقِش عليه رأسُ كلبٍ ضاحكٍ. قبضت بشدّة على المفتاح وبكت في صمتٍ وهي تلعن فرج وتيماء والجيران والجميع، فالكلّ يكذب على الكلّ في مجهرة.

(3)
بحثًا عن غيمةٍ

لا يتذكّر غيث سببًا مقنعًا لنفور أمّه منه. تتجنّب محاولاته الالتصاق بها حتّى وهي نائمةٌ. كأنّ لها عقلًا منفصلًا لا ينام ولا ينفكّ يبعدها عنه. لا تجيب على أسئلته الكثيرة. قالت له يومًا: لا تهذر. فتوقّف عن طرح الأسئلة أمامها وأمام الآخرين. أصبح يقلّب الأفكار في رأسه. ولولا خشية أن يشبه أمّه الصَّموت، لما تكلّم مع أحدٍ.

عندما استيقظ صباح ذاك الثلاثاء، بدا كلّ شيء عاديًّا، لا يشي بأنّه سيواجه الموت وجهًا لوجه في مساء ذلك اليوم. استيقظ ككلّ يومٍ بطرقتين على قدر الطبخ. لا يتذكّر أنّها أتت لتوقظه بنفسها. لا تهزّه بيدها ولا حتّى تناديه باسمه.

غسل وجهه وتمضمض بالماء فاركًا أسنانه بسبّابته. نظر إلى المرآة غير الصقيلة وغيّر ملامح وجهه ليظهر الجدّيّة، وسأل بصوتٍ حاول جعلَه مبحوحًا: من أنت؟ هاه؟.. من.. أنت؟

لبس ثوبه وأمسك بحذائه الجديد. إنّه أجمل حذاء في المدرسة. لم ينتقد الصبيةُ غيرَ لونه الأبيض الغريب عنهم وخلوّه من الخيوط، لأنّهم لا يفهمون! من الذي قال إنّ الخيوط هي ما يفرّق بين حذاء الصبيّ وحذاء الفتاة؟ تساءل وهو يضع كتبه المدرسيّة في الحقيبة

بطريقةٍ ميكانيكيّةٍ سريعةٍ ويرتّبها بادئًا بالأكبر حجمًا وصولًا إلى الأصغر. اتّجه إلى ساحة البيت واستمع لبقيّة معزوفة قدور الطبخ. شكشوكة. لا شكّ أنّ الفطور اليوم شكشوكة. فهي تنتهي دومًا بصوت حكّ المغرفة على سطح المقلاة. أربعُ مرّاتٍ وأخيرةٌ قصيرةٌ، إذن أربع بيضاتٍ. هل ستتناول فطورها معي هذه المرّة؟ نظر إليها وهي تضع الصحن أمامه وتعود إلى المطبخ. لا أعلم ما الذي تفعله عندما تتركني كلّ صباحٍ وتلوذ بالمطبخ. لا صوت ولا قرقعات تصلني. ما الذي يشغلها عنّي؟

مشى نحو المدرسة وهو ينتقي مداس خطواته بعنايةٍ. فيدوس هنا ويلتفت ليرى مشهده المفضّل كلّ صباحٍ، خطواته على الثرى. يحسّ وهو يطأ الأرض بكلّ حبّة رمل تنضغط وتلتصق بأختها لتشكّل خلال ثانيةٍ واحدةٍ لوحةً فنّيّةً جميلةً، خطوطًا سميكةً وقصيرةً، أثر حذائه الأبيض. يحبّ كثيرًا لون التراب عندما تغطّيه رطوبة الصباح الباكر. ركل حصاةً صغيرةً محاولًا جعلها تصطدم بأخرى أمامه. لا يتذكّر أنّه استطاع إصابة الهدف قطّ. لكن لا يهمّ.

لا يلتقي أيّ صبيٍّ في طريقه، وحدهم الكبار الذين يغادرون القرية لأعمالهم خارجها. قفز قليلًا رافعًا قدميه معًا في الهواء ليعلن عن الخطوة الأخيرة التي توصله إلى عتبة باب المدرسة، ألف ومائتان واثنان وخمسون، أقلّ من الأمس بأربع خطواتٍ. يفكّر عند العودة في مطابقة العددين. لم يحقّق هذا النصر سوى ستّ مرّاتٍ. اليوم سيحقّق السابعة في عودته لو ركّز. هكذا منّى نفسه.

وصل كعادته مبكّرًا. أجمل لحظات يومه هي تلك التي يصل فيها قبل الجميع. كان ثناء الأستاذ ظافر عليه ذات مرّةٍ سببًا في شعوره بأنّه أفضل الطلّاب. «كيف تصل متأخّرًا وزميلك غيث يصل قبلك رغم بعد منزله؟» هذه الجملة التي تتكرّر رغم تغيّر الموبّخين يختمها الأستاذ ظافر بنظرة تشجيعٍ إلى غيث تجعله يتناسى نظرات الغيرة والحَنَق من أولئك الذين تأخّروا.

كان اليوم عاديًّا. لم يثر اهتمامه، حتّى جاءت حصّة العلوم، الحصّة المفضّلة عند الصبيّ. على عكس بقيّة الطلّاب، كان غيث يحبّ الأستاذ ظافر. يحسّ به قبل دخول الفصل بسبب رائحة السجائر التي ينشرها حوله. دخل الأستاذ ظافر وكعادته لم يسلّم، بل فعل ما يفعله كلّ مرّةٍ مهما اختلف موضوع الدرس. رسم دائرةً شبه مثاليّةٍ يمين السبّورة، وبخطٍّ جميلٍ كتب في منتصفها عنوانًا لدرس اليوم. انطلق المعلّم في الشرح بصوته المبحوح وبلغةٍ فصحى سلسةٍ، وأنهى درسه مبكّرًا. جلس على الكرسيّ يتصفّح أحد تلك الكتب التي لا يسير من دونها. سأله طالبٌ عن نبيّ الله يونس وذكر أنّ خطيب الجمعة تحدّث عنه وقال إنّ حوتًا أكله. ضحك الأستاذ، وصحّح للطالب معلومته:

- لو أنّك قرأت قصص القرآن لما قلت إنّه أكله. قف، نعم، قف يا علي، قل لي..

توقّف الطلّاب عن الكتابة وهم يسمعون المعلّم يكمل:

- من أنت؟

فوجئ ذو الصوت المبحوح بأنّ بعض الطلّاب يشاركونه السؤال

وبالأسلوب نفسه. ابتسم، فتشجّع الطلّاب ليكملوا كلّهم بصوتٍ جماعيٍّ..

- من.. أنت؟

انفجر الفصل ضاحكًا، أشار المعلّم بالسكوت وهو يقاوم ضحكةً.

- تضحكون؟ هذا هو أهمّ سؤالٍ ستقضون أعماركم بحثًا عن إجابةٍ له. ودعوني أخبركم جميعًا، وخصوصًا أنت يا عليّ: أنت ما تقرؤه. أنت ما تتعلّمه. لذا قل لي من أنت؟

- لا أعلم، سمعت قصّة يونس عليه.. عليه.. صلى الله عليه وسلم.

- إذن أنت مجموع ما سمعت من قصصٍ ودروسٍ وخبراتٍ، ولأنّ السامع ينسى فستختفي وتزول. يجب عليك القراءة، وقراءة الكتب تحديدًا. الكتب هي الجنّة التي وضعها الله لنا في الأرض. من تشبّث بها دخل النعيم.

من قرأ منكم قصّة يونس عليه السلام؟ لا أحد! إن وعدتموني بقراءتها لاحقًا فسأختصرها لكم الآن على عَجَلٍ، شرطَ ألّا تقاطعوني بأسئلتكم فالوقت ضيّقٌ. وسأبدأ أنا بسؤالٍ: من يعرف حجم الحوت؟ جميل. ومن منكم يستطيع السباحة عميقًا؟

رفع الجميع أيديهم عدا غيث.

- ما يعرف السباحة، لا عميق ولا غيره يا أستاذ.

قالها طالبٌ بصوتٍ خفيضٍ. بدأت التعليقات ساخرةً من غيث:

- قل لأمّك تنزل معك في الري تعلّمك السباحة؟

همس مسعود بخبثٍ. نهر المعلّم الطالب وأعاد مسار الحديث إلى النبيّ يونس وكيف ابتلعه الحوت وغاص به عميقًا.

«كيف استطاع يونس التنفّس في بطن الحوت؟ أليست رائحة فم الحوت سيّئة؟ وهل كان ينام يا أستاذ؟ هل كان يصلّي؟ كيف توضّأ وهو في بطن الحوت؟» أطلق غيث سيلًا من أسئلته وهو يسرع الخطى خلف المعلّم الذي غادر الصفّ متّجهًا إلى قاعة المعلّمين.

- أكثر من ينتبه إلى الدرس ويركّز فيه هو أكثر من يتعبني بالأسئلة!

ضحك المعلّم مفتعلًا العتب.

كان الاستماع إلى قصص الأستاذ ظافر مهربًا لغيث من يومه. وكان ظافر الوحيد الذي يقبل أسئلته في مجهرة. قد يتأخّر في الإجابة على بعضها، لكنّه لم يتجاهلها مطلقًا.

أجاب المعلّم بسرعةٍ وبكلماتٍ معدودةٍ على بعض تلك الأسئلة، لكنّه توقّف عندما باغته الصبيّ:

- ما هو شكل يونس عليه السلام؟

- ماذا تقصد؟

هل له لحيةٌ وشاربٌ؟ هل هو جميلٌ؟ طويلٌ؟

- ما أدري، لا أحد يدري، القرآن ما قال لنا لأنها معلومة غير مهمّة، ليه يهمّك شكله؟

- هل تتخيّل الأنبياء بشكل ناسٍ تعرفهم يا أستاذ؟
- كيف؟ كيف تتخيّل شكل النبي يونس؟
- مثل أبوي.
- وكيف شكل أبوك؟
- ما أعرف، ما فيه صورة له، أمّي تقول إنه ما صوّر نفسه أبدا، سافر وأنا صغير وما أذكره.

رغم إجاباته السريعة وعد ظافر الصغيرَ بأن يحضر مبكّرًا صباح الغد ويجيب على كلّ أسئلته قبيل قدوم بقيّة الطلّاب والمعلّمين. وقبل أن يدخل قاعة المعلّمين، توقّف والتفت إلى الصبيّ:

- من العام الماضي وهم يسخرون منك ومن عدم معرفتك السباحة، لازم تضع حد لهذا الموضوع.
- ما أحب السباحة أصلا، وأنا..
- غيث..
- .. لو أردت.
- غيث..
- أدري.. «من.. أنت؟».

قاطعه المعلّم رافعًا سبّابةً تعلوها لطخةٌ صفراء من أثر السجائر، وقال بالفصحى:

- ما لم تواجه ما تخافه فلن تستطيع هزيمته. ما لم تنزل بنفسك إلى الماء فلن تتعلّم. قد تكون لحظات قليلةً صعبةً، لكنّها ليست

بمرارة عيشك سنوات متجنبًا النظر إليها.

- ....

- اليوم يا غيث، اليوم يجب أن تغيّر هذا. لا تجعل الأيام والأسابيع تمرّ وتعبر بجانبك وأنت خائفٌ. الخوف لا يتركك وحيدًا ما لم تنظر إليه وتدفعه بيديك إلى الخلف.

قالها وهو يغرز أصبعه في كتف الصبيّ بحدّةٍ. ارتعشت أصابعه قليلًا وهو يرفعها مشيرًا إلى الطلّاب الذين انتشروا خارج الفصل.

- اليوم!

جاء صوت المعلّم هامسًا بحزمٍ قبل أن يدخل قاعة المعلّمين.

لم يحاول غيث عند الظهر اقتفاءَ أثر خطواته الصباحيّة ومحاولة المشي عليها كما يفعل دومًا. كان يستعيد الحوار مع الأستاذ ظافر. يخاف السباحة كثيرًا، لكنّ خوفه من نظرة خذلانٍ في عينَي معلّمه، ملاذِه الأخير، كان أشدّ وقعًا. وصل عتبة باب البيت. لم يقفز. ألف وثلاثمائة وسبع وثمانون خطوةً.

* * * *

عندما صلّى العصر، انطلق إلى ساحة اللعب التي سيتحلّق حولها صبية القرية عندما تخفّ حرارة الشمس، ما بين لاعب كرة القدم وسابحٍ في مجرى الماء أو الريّ كما كانوا يسمّونه. كانت قنوات الريّ تتكوّن من جدارين خرسانيّين يرتفعان عن الأرض مترًا ونصفًا وتفصل بينهما مسافةٌ تزيد على المترين قليلًا ولا يتجاوز سُمْكُ أحدهما الشبرَ.

كانت قنوات الريّ شريانَ حياة القرية، يأتي بالماء من أقصى الأرض إلى مجهرة ويمتدّ مبتعدًا عنها إلى آخر العالم كما يظنّ غيث. بعد صلاة العصر لم يلعب الكرة. اتجه قبل غيره إلى الريّ، وجلس يتأمّل الماء. مضت ساعةٌ وهو لا يفعل شيئًا سوى النظر إلى سمكاتٍ صغيرةٍ جدًّا تمرّ بين فينةٍ وأخرى لا يتجاوز حجمها حجم سبّابته. سمع أصوات الصبية يلعبون، وسمع أحدهم يذكر اسمَه ويشير نحوه فيضحك الباقون. أنا أفضل منكم جميعًا. كانت تلك هي الفكرة التي جالت برأسه وهو يُنزل قدميه ببطءٍ ممسكًا الجدار الخرسانيّ الرفيع. أحسّ ببرودة الماء. لم يتوقّف.

ما إن أرسلت الشمس آخر خيوطها على مجهرة حتّى وقف الصبية يتصبّبون عرقًا وهم ينزعون ملابسهم ويلقون بها على الرمل بجانب الريّ. بعد أن ارتقوا درجات صنعوها ليصعدوا على جداره، شاهدوا واحدًا بعد آخر غيث يطفو في منتصف الريّ دون أن يمسك بأيّ جدارٍ من الجدارين. كان يحرّك يديه وذراعيه ببطءٍ وبلا توقّفٍ وهو في كامل تركيزه. غمر رأسه تحت الماء، وشرع يحرّك يده اليمنى فقط ليدور دورات ثلاثًا أو أربعًا قبل أن يخرج ليختطف نفسًا، ثمّ يعاود الكرّة لكن بيده اليسرى وعكس دوراته السابقة. «تعرف كيف تسبح يا كذّاب!» صاح أحدهم.

عندما ظهر وجلس فوق الجدار مع الآخرين الذين انتهوا من السباحة، لم يصدّق أحد أنّه تعلّم السباحة خلال أقلّ من ساعةٍ! انهالت تعليقات الصبية:

- ما شفناك تتدرّب من قبل!

- شكله كان يجي مع أمّه ويتدربون لحالهم في الليل عشان ما يشوفهم أحد.

- يكذب، ما عليكم منه.

- تدرب بس نص ساعة وعرف! أجل لو خليناه يتدرب ساعة ايش كان بيسوّي؟

- كان بيسبح تحت النبّاعة.

نطق مسعودٌ بالتعليق الأخير ساخرًا. فضحك الجميع.

التفت غيث إلى مسعود، ثمّ إلى النبّاعة، ثمّ إلى المدرسة حيث رأى ظلّ شخصٍ يقف هناك وخيّل له أنّه رأى شرارة حمراء اتقدت وانطفأت في منتصف رأس ذاك الظلّ.

أربعة فقط اجتازوا النبّاعة من طرفيها. بل يقولون إنّ أحد الرجال عبرها بالاتجاه المعاكس قبل أن يهاجر ويترك القرية ليصبح غوّاصًا.

كان الصبية يرون أنّ من المستحيل النزول من طرف النبّاعة والغطس ثلاثةَ أمتارٍ حتّى الوصول إلى القناة المغمورة بالماء ومن ثمّ السباحة ما يقارب التسعة أمتارٍ أفقيًا والخروج من الجهة المقابلة والصعود مرّةً أخرى إلى السطح ثلاثة أمتارٍ. شكّك الشباب في تلك القصص التي رواها القدامى عن العبور. سأل أحد معلّميهم ذات مرّةٍ وهو يصف تلك القصص بالخزعبلات: لماذا لم يعبر أحد في العشرين سنةً الماضية؟

لماذا؟ لأنّهم ليسوا الأفضل! حدّث غيث نفسه. اليوم أثبتُّ لهم ولنفسي أنّني لا أخاف السباحة، بل واكتشفت مدى سهولتها. غريدل أكبر منّي ويسبح منذ سنوات لكنّه لا يبتعد كثيرًا عن الجدار وهو نفسه كان مندهشًا ممّا فعلته اليوم وما تعلّمته خلال ساعاتٍ.

- انتظروني عند الطرف الثاني من النبّاعة.

سمعه بعض الصبية هامسًا بتلك الجملة وهو يمشي تاركًا ملابسه خلفه. وصلوا إلى الطرف الشرقيّ من فتحتي النبّاعة وكانت أشبه ما تكون بغرفتين صغيرتين. شكّلت حلقاتٌ معدنيّةٌ بأحد جدرانها سلّمًا للوصول نحو القاع، لا يكاد يظهر أعلى تلك الحلقات المغمورة تحت سطح الماء.

جدران النبّاعة والريّ تشبه جدران المدرسة. بُنيت معًا في وقتٍ واحدٍ عندما وصلت شاحنات الحكومة المحمّلة بعمّالٍ أجانب. ومع إنشاء الطريق الرئيسيّة من مجهرة وإليها، دهش سكّانها عند رؤية العمّال يتركون فراغًا في منتصف الريّ ببناء غرفتين متباعدتين لحبس الماء. لم يفهم أهالي القرية لماذا لم يكمل العمّال وصلَ قناة الماء تلك. آنذاك، وفي أحد أصباحِ المشروع، ارتبك العمّال عندما سمعوا صراخ عبد الرحمن بن جبر. لم يفهموا لغته. ولم يدركوا احتجاجه، لكنّ صيحته على عاملٍ واصل العمل كان كافيًا لترجمه ما أراد قوله. توقّف العمّال.

عند الظهيرة وصلت سيّارةٌ بيضاء تحمل أحرفًا أجنبيّةً على جنبيها. ترجّل منها رجلٌ قصيرٌ بشعرٍ مجعّدٍ. تحدّث مع العمّال ثمّ انطلق

في جنبات القرية بحثًا عن عبد الرحمن بن جبر. أخبره بأنّه المشرف على المشروع، شرح له كثيرًا أنّ الماء سيتنقل تحت الأرض. لم يفهم عبد الرحمن، لكنّ الرجل القصير أقسم له أنّ الماء سيمرّ:

- الماء ما يوقفه شيء، تظن أن اللّي تشوفه من ماء وصلك عبر قنوات أخرى؟ لا يا عم عبد الرحمن، جاء من تحت الأرض وراح يرجع تحت الأرض في نهاية اليوم.

- ولو ما مرّ؟

- اترك العمال يشتغلوا، التأخير مش في صالح المشروع ولا في صالحكم ولا صالح مزارعكم. وهاي الفتحة هي اللّي راح تمرق منها السيّارات والناس للقرية. أقسم لك بشرفي.

- احلف بالقرآن؟

- أقسم بالله وبالقرآن وبعظمة الرسول الكريم محمّد أنّي صادق.

- خير يا أخ بطرس، دامك حلفت، ما راح أعترضهم.

خلال ثلاثة أسابيع كان عبد الرحمن وأهل القرية سعداء وهم يرون الماء يغمر ذلك الممرّ الخرسانيّ الطويل. كان صافيًا آنذاك. اليوم وأمام الأطفال وغيث، يطغى اللون الأخضر على جدران الريّ وقاعه والنبّاعة بسبب الطحالب التي راكمتها عشرات السنين.

* * * *

نظر غيث إلى الجدار دون أيّ مشاعر واضحة. شبك مسعود يديه وركع بجانب الجدار وضحك مشيرًا بسخريةٍ إلى غيث كي يستخدم يديه كسلّم للصعود. فصعد.

ظنّ الصبية أنّه جُنّ وهو ينظر إلى قاع النبّاعة الأسطوانيّ الشكل. صرخ أحدهم أنّها ليست سوى مناورةٍ وسرعان ما سيتقهقر. قفز في الماء فتوقّفت أصوات مجهرة. يبدو أنّ الصبية فقدوا القدرة على التنفّس. كان غيث يسبح أعلى الفجوة السوداء. توجّه إلى القضبان المعدنيّة ووضع قدمه على العلويّ منها، نظر إلى الأسفل فرأى دائرةً تبدو شبه مثاليّةٍ، سحب نفسًا عميقًا. خُيّل لأقرب الصبية أنّه سمعه ينادي باسم أمّه تيماء أو يقول شيئًا عن الماء. رأوه ينزل وينزل، حتّى اختفى.

هناك، سمع غيث أجمل الأصوات، همهمة الماء الغريبة، لا صمت ولا صوت. لا شكّ أنّ هذا ما كانت تسمعه جدّتي شرعاء رحمها الله. خفت الضوء وتلاشت صرخات الصبية مع كلّ درجةٍ ينزلها. تردّد وهو يكتشف أن لا مزيد من الدرجات الحديديّة تحته. هذه هي اللحظة التي ستجعلني بطلًا أمام هؤلاء الحمقى والقرية، وربّما أمام أمّي أيضًا. أغمض عينيه وغاص.

كان يواصل الإمساك بالقضيب الحديديّ الأخير عندما لامست قدماه قاع النبّاعة ففتح عينيه. أحسّ بشعورٍ غريبٍ ولذيذٍ في أوّل الأمر. قوّة غامضة تسحبه نحو النفق، نحو مصيره الجديد، نحو غيث آخر، غيث يحبّه الجميع ويحترمونه. أفلت يده ورأى نفسه يسبح دون جهد في ظلمةٍ مطبقةٍ. شعر بخدرٍ جميلٍ لا يوصف، ألذّ من استماعه لقصص الأستاذ ظافر وبَرْي الأقلام الرصاص وتقشير الرمّانة الأولى في الموسم، شعور من بلغ مكانًا جديدًا ولمس شيئًا لم يلمسه الآخرون.

حذّرني الأستاذ ظافر، لكنّه لم يخبرني عن لذّة المحاولة وغياب الخوف. صحيح أنّ صدري بدأ يضيق، ربّما للشعور الآسر الذي احتلّ كلّ خليّة فيه.

التفت غيث إلى جهة النفق المظلم وأفلت يده. عديدة هي المشاعر والصور التي عبرت ذهنَه وهو يسبح نحو السواد، لم يكن الخوف أحدَها.

مع تكبيرات أذان المغرب مساء ذاك الثلاثاء، وفي قاع النبّاعة، عَبْر النفق المائيّ تحت الشارع الرئيسيّ في مجهرة، كان آخر ما رآه غيث هو وجه والده: أشيب الشعر، مبتسم، يشبه كلّ أولئك الكبار الذين سمع قصصهم وأحبّهم. عرف لحظتها كيف كان يبدو بشران الكبير، وخالد بن الوليد، ونيوتن. كلّهم يشبهون والدَه. أمّا والدُه فكان يشبه نبي الله يونس.

(4)
غريبان في مقبرة الأحلام

قد يفقد الكون معناه برهةً من الزمن. ينسى من هو وماذا اقترف. وما هي إلّا ثوانٍ من بداية إدراك جمالها حتّى تتبدّد وينتبه: اللعنة، أنا ظافر، أنا الشقيّ. يتذكّر بسرعةٍ فيغمض عينيه محاولًا العودة إلى النوم. أحسّ بصداعٍ. يبدو أنّ نوع السجائر الجديدة التي أحضرها فرج لا يناسبه. التفت جهة منفضة السجائر، ووضعها على رفّ كتب الشعر. حمل المخدّة والغطاء. التقط ساعة يده من الأرض. تناول ثوبه المعلّق على رفّ كتب التفاسير. رفع غترته عن مجلّدات الخرائط. وانطلق مغادرًا المكتبة. قطع المسافة بينها وبين غرفة معيشته بالقرب من بئر ماءٍ مسوَّرةٍ لا يبدو من الصدإ الذي يعلو محرّكها أنّه يعمل.

دخل الغرفة الواسعة. وضع أشياءه على طاولة لعبة التنس وتحوّل إلى الجهة المقابلة كي يتجاوز السرير ويلتقط منشفةً وشامبو من خزانة الملابس التي ما إن أغلق بابها حتّى عادت خزانةَ مختبَرٍ رماديّةٍ. عاد من الحمّام. لبس. أمسك سيجارته الأولى واتّجه نحو البئر. وطئ الرمل المشبَع بزيوتٍ قديمةٍ. جلس على حافّة البئر وغمس نفسه في عالم تلك السيجارة.

نفض رمادها في البئر ولم يعد يزعجه أنّ جدرانها تسحبها

كالمغناطيس وتمنعها من بلوغ القاع، كما كان يشعر في السابق. يا للرماد التَّعِسِ. إذا لم يكن لك وزنٌ وثقلٌ تجاذبتك الجدران وانتهى بك الأمر معلّقًا بلا نهايةٍ، بلا قرارٍ. رمى عقب السيجارة، رآه يتّجه رأسًا إلى قاع البئر التي لم يعد فيها من الماء سوى مرآةٍ صغيرةٍ تعكس السماء وتحتضن عددًا من كرات القدم وحذاءً وعصيًّا تباينت ألوانُها. في طرف البئر، عند جانب الجدار، بدت رغوةٌ رماديّةٌ من مِزَق أوراقٍ وسجائر.

صباح آخر، يوم آخر، شقاء آخر.. اللعنة.

نهض ونفض الغبار عن ملابسه، انتبه إلى ظلّه، كان الظلّ نحيلًا وطويلًا.

أنا ظافر، أنا من هرب من العالم ولاذَ بمجهرة.

نظر إلى المدرسة وهو يمشي عائدًا إلى المكتبة. بدت هادئةً، تستقبل ثلاثاءها بلا قلقٍ. هذا السلام الوديع هو ما جعله يمكث هنا بعيدًا عن أهله. لمجهرة قدرةٌ عجيبةٌ على الظهور كمكانٍ عاديٍّ متى أرادت! أربع سنوات قضاها في القرية كانت فيها مكتبة المدرسة مهربَه الوحيد. لن يبرحها حتّى تشفيه.

* * * *

في منزل والده بالمدينة، سقطت القصّة من يده عندما صرخ والده ليترك «الخرابيط» التي معه وينضمّ إلى مجلس الرجال كي يصبّ القهوة للضيوف. دسّ الصبيّ ظافر كتاب القصص تحت السجّادة وهرع إلى المطبخ ليحمل دلّة القهوة. ضيوف والده لا يقرؤون، لم يأتِ أحدهم

مرّةً بكتابٍ في يده. لم يسمعهم يتحدّثون سوى عن المال والتجارة والأراضي والنساء. كان يدرك أنّه سيكبر يومًا مّا وينضج ويفكّر مثلهم كما يقول والده. ليلتها سمع بمجهرة للمرّة الأولى. تحدّث ذلك الشيخ المهيب وهو يرتشف القهوة عن قريتهم وعن آخر الأخبار فيها. سرد ما يشبه الأساطير. لم يضحك أو يوضّح أنّه كان يمزح. بدت القرية وقصصها مكانًا سحريًّا في عينَي الصبيّ ظافر فقط. حتّى والده لم يظهر اهتمامًا بتلك القصص. لماذا سأل الرجالُ عن نوع السيّارة ولونها وعمّا إذا كانت ما تزال للبيع، ولم يثر اهتمامَهم أنّ تيسًا قفز بداخلها وتسبّب في انزلاقها نحو الشارع واصطدامها بجدار صاحبه فتسبّب في سقوط جزءٍ بسيطٍ منه كان كافيًا لتهرب الأغنام كلّها وتلتحق بالتّيس؟!

سمع بافتتانٍ ما حكاه الشيخ عن الأختين وزوجيهما التوأم. حملتا سويًّا. وعندما دبّ الخلاف بين الأخوين تقاتلا وتفرّقا. في يومٍ واحدٍ، وضعت الأختان طفلين. جاء أحدهما ميّتًا. لم تخبرا قطّ ابن من كان الطفل الناجي. تناوبتا على تربيته وإرضاعه سنواتٍ. كبر الصبيّ ربيب رجلين يكره كلّ منهما الآخر. أصبح أخًا لكلّ بناتهما سواء بقرابة الدم أو بالرضاعة. عندما مات أحد الرجلين، لم يرِثْه أحدٌ بعدَ فتوى الشيخ: ما لم تُقسِم الأختان وتعترفا بوالده الحقيقيّ فلن يتحقّق توزيع التركة.

– مجهرة ديرة.

قالها الشيخ وهو يهزّ فنجانه باتّجاه ظافر الذي سرح ولم تُعده إلّا هزّةٌ من يد والده طالت ركبته.

ما هذه المجهرة! قصص كهذه أخبرت ظافر بأنّ الأساطير لا تسكن بطون الكتب وحدها.

* * * *

- اختر أي مدرسة وبنخلّيك فيها.

- ما فيه قائمة جاهزة بتوزيع المعلمين على المناطق؟

- فيه، لكن أنت ولد رجل عزيز علينا ونبغى نخدمك.

- أي مدرسة، ما يهم.

- تبغى مدرسة قريبة من منزل الوالد؟

- لا والله، ودّي أجرّب أبعد مدرسة، إذا ممكن.

- ايش؟ تبغى مدرسة بعيدة بأطراف المدينة؟

- أبعد شيء عندك.

- قصدك بالقرى والهجر اللّي برا؟

كان ذلك هو السؤال الذي جعل ظافر يدرك للمرّة الأولى أن لا بقاء له في مدينة والده. وعندما أعطاه الموظّف المندهش قائمةَ بالمدارس النائية، قرأ اسم مجهرة. قفز إلى ذلك اليوم الذي سمع فيه عنها. أدرك أنّ القدر يخبّئها له. سينسى فيها ظافر نفسَه وما فعل، وينسى والدَه والجيران. وستكون هذه القرية الغريبة المكانَ الأنسب لبدايةٍ جديدةٍ.

ركب مع سائق سيّارة أجرةٍ، رجل قال إنّه من قرية مجهرة! ما هذه الصدفة! دار بينهما حوارٌ طويلٌ حول القرية وقصصها. كان

السائق يدخّن بشراهةٍ. أضافت إليه أصوات المفاتيح المتراصّة في الميداليّة بجانب المقود إحساسًا غريبًا. أحبّ ظافر ما سمع. وأحبّ هذا الشخص اللطيف الذي سيصبح لاحقًا صديقَه الوحيد هناك.

- من أوّل من سكن مجهرة؟

- هذي قصّة قديمة وكل رجل ومَرَة في مجهرة عنده روايته من الحكاية اللّي يقولونها وتختلف عن البقيّة.

- اللّي يهمّني هي رواية فرج؟

التفت السائق ونظر بابتسامة شكٍّ نحو الراكب بجانبه. واصل الراكب حديثه:

- الطريق طويل، ودّي أسمعها إذا ما عندك مانع.

نزع فرج غترته وعقاله، وهو يطفئ الراديو. ورماهما في المقعد الخلفيّ كاشفًا عن صلعة لامعةٍ، وخفّض من سرعة السيّارة. قال لظافر وهو يقاوم ضحكته:

- رواية فرج هي الرواية الصحيحة لأني سمعتها من لسان خالتي عن أبوها، حفيد من أسس القرية. أنت محظوظ، بتسمع القصة الحقيقيّة لمجهرة.

* * * *

انطلق فرج في سرد حكايته. روى أنّ بثران الكبير قال بعض كلماتٍ غاضبةٍ أساءت إلى أحد العبيد المتمرّدين. فعل ذلك أمام عددٍ من أبنائه في منتصف الطريق، خلال رحلتهم المعتادة للتجارة. فغافله العبد وطعنه بخنجرٍ كان قد خبّأه تحت ثيابه. لم يكمل الشيخ طريق

العودة. فتوقّفت القافلة في واحةٍ صغيرةٍ تُسمّى مجهرة بها بئر لا يعرف أحدٌ من بناها قبل ملايين السنين. توقّفوا هناك ودفنوا بثران. قيل إنّ جبر هو من اقترح أن يظلّوا أيّامًا بجانب قبر والدهم، لم يوافق من إخوته سوى صميح. قيل إنّهم قرّروا الاستقرارَ كي لا يضيع القبر. وقيل إنّ الأخوين، وخلال الأيّام التي سبقت موت والدهم، أحسّا للمرّة الأولى بالتقارب الشديد من بعد نُفورٍ. أمّا فرج فيظنّ أنّ التاجر بداخل جبر أخبره أنّ هذا المكان سيكون ذا شأنٍ ولا سيّما أنّ قوافل كثيرةً تمرّ به.

أحضرا زوجاتهم وأطفالهم واستقرّوا بالمكان. سكن صميح على بعد مائة متر من قبر والده. وانتقل جبر إلى الجهة المقابلة. وبينما كان الأوّل منشغلًا بتوفير كلّ ما تحتاج إليه القوافل من بضائع وبناءِ بيوتٍ طينيّةٍ جديدةٍ بدلًا من الخيام، كان الثاني يتنقّل بين زوجاته الثلاث مضيفًا طفلًا أو طفلةً كلّ أربعة أشهرٍ.

بدأت تتشكّل نواةٌ، ولاحقًا ملامح قريةٍ صغيرةٍ من شقّين تفصل بينهما نخلةٌ وقبرٌ. مع كثرة المواليد والحياة وازدهار التجارة وقدوم المزيد من السكان، أدركت مجهرة الحاجةَ إلى بناء مسجدٍ بدلًا من الصلاة في العراء، والحاجة إلى مكانٍ يستقبل موتاها الذين بدؤوا يحتلّون المكان المجاور لقبر بثران. نشب خلافٌ بين جبر وصميح بعدما أصبحا شيخين، وامتدّ الخلاف إلى أبنائهم وأحفادهم. قيل إنّ سبب الخلاف هو الطمع والأموال التي استخدمها آل صميح في استصلاح مزيدٍ من الأراضي في مجهرة وشراء المزيد منها. فانتهى بهم الأمر إلى امتلاك أكثر ممّا يحتاجون إليه. فسيطروا على ثلثي القرية

رغم أنّهم لا يشكّلون ربع سكانها. وقيل إنّ السبب تحديدًا هو محاولة صميح الاستيلاء على الأرض التي في منتصف القرية. ذات مساءٍ قام بعدما انتهى من صلاة العشاء ووجّه كلامه إلى جبر وأبنائه يخبرهم بأنّه يريد شراء الأرض منه بأيّ ثمنٍ رغم أنّها ليست على ملك أحدٍ، وذلك بهدف جعلها مقبرةً. وافق جبر وباعه الأرض. وحدَها المقبرة ستجعل مجهرة قرية.

خمسون عامًا مرّت، رحل خلالها صميح وجبر ومعظم أبنائهما. كان فيها الخلاف بين فرعَي الأسرة كالمدّ والجزر، يعظم ويصغر باختلاف من يقود الفريقين ويسعر النار. لكنّ شخصًا، بل شيطانًا، يُدعى مُصَبِّح، قاد آل صميح بخبثٍ وذكاءٍ إلى السيطرة على القرية. لم يكن له من اسمه شيءٌ. كان مظلم القلب، كريه المنظر، أسنانه سوداء أو ضاربة إلى السواد لمرضٍ ابتلاه الله به جزاء ظلمه للعباد. جعله آل صميح قائدًا لهم إذ استبشروا به تاجرًا ينافس آل جبر، لكنّ الله بعث رجلًا يواجه هذا الوحش، ذيب بن معدّي بن بشران بن جبر.

عندما قال مصبح إنّ القرية ستشهد مشروعًا جديدًا يربطها بطريق معبّدة، استبشر الناس الذين قدموا لصلاة العشاء في المسجد. لكنّهم صُعقوا عندما سمعوه يقول إنّ الطريق الوحيدة لا بدّ أن تمرّ من المقبرة، وسيبنى جداران موازيان للطريق يفصلانه عن شقَّي المقبرة. لا أعلم هل هو الخوف أم إنّ ذلك الشيطان أقنعهم بالفعل. لم يعترض أحدٌ، حتّى وصل الخبر إلى ذيب الذي لم يكن معهم بالمسجد آنذاك. وقف بعد صلاة الفجر وقال مخاطبًا مصبّح: هل ستدع السيّارات تسير فوق قبر جدّك؟ أيّ احترامٍ يكون لموتانا لو أصبحت قبورهم

محطّةً في طريق الناس؟ ألم تتبرّعوا بالأرض لبناء المقبرة؟ إذن هي لم تعد أرضكم بل أرضنا جميعًا. ونحن لا نقبل بهذا.

تمتم مصبّح بكلماتٍ مرتبكةٍ وغير مقنعة.

- تصور يا أستاذ، غدر مصبّح، ما احترم اتفاق الأحياء ولا عهود الأموات! استعان بفلوسه وبشركة كفّارٍ وفتح فتحتين متقابلتين في المقبرة. صارت السيّارات تمرّ بين القبور. صحيح أنّه ما دُفن أحدٌ في درب السيّارات لكنّ لأمواتنا حرمتهم.

واصل فرج:

في يوم أسود كأسنان مصبّح وقلبه، كان لذيب أخٌ مجنونٌ لا يعقل ما يفعل، نسي الناس اسمَه وما عادوا يسمّونه سوى حبيب الله. كان المجنون يسير فدخل المقبرة المظلمة عبر الفتحة التي بالجدار. عثروا على جثّته صباح اليوم التالي وآثار عجلات سيّارةٍ ليست ببعيدةٍ عنها. أخبر دمه الذي امتدّ خلفه أنّه زحف مسافة قبل أن يستسلم. جُنّ جنون آل جبر وهم يحملون ابنهم جثّةً هامدةً من وسط المقبرة.

مات مدهوسًا في المقبرة؟ تحدُث فقط في مجهرة! تعجّب الأستاذ وعاد إلى حكاية فرج.

وصل مصبّح إلى المقبرة. كانت الجثّة قد أُخذت إلى مكانٍ آخر، آثارها والدماء لا تزال موجودةً. نظر ذيب إلى مصبّح وهو يدوس بقعة دمٍ تحته، فدفعه وأقسم بالله ألّا يُدفَن أخوه إلّا في المكان الذي مات فيه، في منتصف الطريق الجديدة. عارضه مصبّح وحاول ثنيه بالقول إنّ

القبور كانت تقام دومًا ولعشرات السنين على طرفي المقبرة بعيدًا عن المنتصف. صرخ ذيب وأيّده مَن حوله. هزّ مصبّح رأسه موافقًا على مضضٍ.

بدّد أذان الظهر الاحتقانَ وتفرّق الرجال. في المسجد، التفت مصبّح إلى أحد أفراد آل جبر وطلب منه تهدئة ذيب، وأخبره أنّه وافق على طلبهم ليحصل ابنهم المسكين على قبرٍ لم يحصل عليه أحدٌ من قبل، قبرٍ على شارعٍ، قالها وهو يبتسم. تصوّر يا أستاذ!

عندما نُقل إليه كلام مصبّح، أقسم ذيب بالله أمام الحضور على أن يدفع «آكل الفحم» ثمنَ ما قال. وطلب عدم دفن أخيه في النهار. تمّ دفن الفتى المجنون مساءً. لم يحضر دفنه سوى عشرة رجالٍ من آل جبر. يقولون إنّ ذلك راجعٌ إلى أنّ الأرض كانت صلبة فاستغرق حفرها ساعاتٍ. لكن لو سألتني يا أستاذ فسأقول إنّ السبب هو أنّ ذيب لم يرد رؤية المكان الذي فاضت فيه روح أخيه، ولم يرد أن يشاركه آل صميح الدفن.

سمع البعض مصبّح في المسجد بعدها وهو يعلن أنّه لن يبقى في القرية. شاهده البعض لدى أم المطاليب ذاك المساء وحيدًا. خرج ولم يعد. تخيّل! لم يعد لزيارة أبنائه ولا أقاربه. ما نفع الأموال التي جناها؟ قيل إنّه بنى مسجدًا في آخر حياته محاولًا التكفير عمّا فعل. لا أظنّ بناء كعبةٍ يحجّ إليها الناس سيجعل ذلك المجرم يتطهّر. يقولون إنّه مرض مرضًا خبيثًا طرد الناس وحتّى الأمراض الخفيفة عنه. لم يوافق على علاجه سوى طبيبٍ كافرٍ، فتح جوفه بمنشارٍ ليعالجه. يقولون إنّه لم

يجد قلبًا بصدره والعياذ بالله! مات وحيدًا معدمًا، ولم يدركه أحدٌ، ولم يحرص أيّ واحدٍ من أهله على معرفة مكان قبره.

* * * *

على امتداد عشرات القرى وطوال ساعات الطريق، لم يفتح ظافر فمه إلّا ليسأل سؤالًا يدفعهما إلى مزيد من الحكايا. استمع بكلّ ما يملك من تركيزٍ لقصص مجهرة واحدةً تلو أخرى. وعندما أنهى فرج حديثه عن مكانٍ يقصده الناس للعلاج بمساعدة الجنّ، خفّض من سرعة السيّارة، والتفت إلى جهة اليسار في صمتٍ. لا توجد لوحاتٌ إرشاديّةٌ بأسماء القرى. فتح فرج النافذة، أشار بيده إلى ظافر ليفعل مثله.

أحسّ ظافر، وهو يسمع صوت المفاتيح، برائحة تجتاح كلّ ذرّات جسمه. تسرّبت إلى صدره. أحسّ بها على جلده. رآها. همّ بسؤال صاحبه: هل هذه مجهرة؟ لكنّه لم يفعل. كان طعم الهواء على لسانه كافيًا لمعرفة الإجابة.

بات ذلك المساء في مجلس الرجال ببيت فرج. في الصباح التقى مدير المدرسة، فأخذه في جولة سريعةٍ بالمكان. كان فناء المدرسة واسعًا تحدّه من الجهات الأربع ستّة فصول متراصّة شمالًا، وأربعة مكاتب شرقًا، ومن الغرب جدارٌ متهالكٌ وكوخٌ خشبيٌّ يحمل شعار إحدى شركات الكولا. يقع باب المخزن جنوبًا. إلى جانبه مجموعة براميل شُدّت في صفٍّ بحبلٍ متّسخٍ لمنع وصول الطلّاب إلى ما خلفها. قال المدير أشياء لفت منها انتباهَ ظافر جزءٌ يتعلّق بالمخزن، إذ أنّهم جهّزوه ليكون مقرّ إقامةٍ له ولمعلّم العلوم الذي سيصل خلال أسبوعٍ.

اتّجه إلى المخزن يجرّ حقيبةً سوداء جلبها معه. وكان يمسك بكيسٍ بلاستيكيٍّ كبيرٍ ضمَّ ما لم تتّسع له الحقيبة من ملابس. وجد المكان واسعًا. امتلأ نصفه بصناديق كتبٍ مدرسيّةٍ وسِلالٍ بها عددٌ من كرات ألعابٍ رياضيّة مختلفةٍ مُلئ بعضها بالهواء. في النصف الآخر من المخزن مساحةٌ فارغةٌ وضعت فيها سجّادةٌ نظيفةٌ ووسائد للجلوس وفراشان مطويّان وصندوقٌ خشبيٌّ. نظر إلى داخل الصندوق. وجد تمرًا ودلة قهوة وإبريقًا للشاي وكيسًا كبيرًا من السكّر. أنزل الحقيبة والملابس عند جانب الجدار. تأمّل وجهَ عالمه الجديد. تنفّس الصعداء وهو يعود إلى مكتب المدير الذي بادره:

- يؤسفني أن معلّم العلوم تأخّر. كان المفروض يجي قبلك لكن ما جاء. الله يعينك بتسكن لحالك في المدرسة لين يجي.

- خير.

- لا تشيل هم، بأتصل بإدارة التعليم كل يوم عشان ما تمر الأيام والطلاب ما عندهم مدرس. قالوا لي بيرسلون واحد محله.

- ما عندي مانع أغطي محله لو تحب.

- تدرس العلوم؟ بيّض الله وجهك. الثانين ينحاشون بسرعة ويطلبون النقل. يدوّرون عن واسطات ترجعهم لأهاليهم. وإن شاء الله بتلقى أنت الواسطة اللّي تنقلك لمكان قريب من أهلك.

- الخيرة فيما اختاره الله.

بدت الحياة تبتسم لظافر، فها قد خلا له المخزن ليكون وحيدًا.

آخر ما كان يبحث عنه هنا هو غريب مثله يلهيه عن مجهرة بأحاديث عن أماكن وعوالم خارجها.

عندما غادر الجميع وتأكّد من إغلاق باب المدرسة، نزع ثوبه وغترته، وخرج إلى الساحة بملابسه الداخليّة. أعدّ لنفسه شايًا في قاعة المعلّمين. أحسّ بألفة المكان رغم وحشة المدرسة ليلًا. دخل المخزن فغابت الأصوات الخافتة البعيدة التي كانت تصل مسمعه من القرية. أطفأ النور وأغمض عينيه. فتحهما صباحًا. لم يتحرّك. نظر بحيرةٍ جهةَ الباب ورأى النور يدخل من تحته. نهض ليتأكّد أنّ النهار قد ظهر فعلًا.

ماذا فعلت يا مجهرة؟ أترحّبين بضيوفك كلّهم عبر علامات كهذه؟

فكّر وهو يمشي إلى الساحة الخارجيّة ويملأ رئتيه وروحه وعقله بهواء هذه الجنّة ورائحتها، المكان الذي جعله يستيقظ حرًّا. البارحة، ولأوّل مرّة في حياته لم يحلم بشيءٍ! اكتشف أنّ مجهرة تستطيع تحرير ساكنيها من سجن مخاوفهم. وهنا في مجهرة، مقبرة الأحلام، تذكّر ظافر أن يبتسم كما كان يفعل في صباه.

* * * *

منحته الأسابيع الأولى ما يكفي من وقتٍ ليتجوّل في جنبات المكان ويستكشفه بعد خروج الطلّاب والمعلمين. هنا لا أقفال، لا أسرار. اكتشف أنّ حجم المخزن أكبر من حجم مكتب المدير، وأنّ أحد الفصول كان مطبخًا في السابق! ولم يجتهد من حوّله إلى فصلٍ دراسيٍّ في إزالة حوض الغسيل من طرفه. في زاوية المكتبة عثر على

قشورٍ تدلّ على أنّ الطلاء الأبيض الذي غطّى كلّ جنبات المدرسة لم يكن اللون الأصليّ، إذ اختبأ تحته لونٌ سماويٌّ هادئٌ، سماويٌّ مريح للأعصاب. هكذا كان يصف هذه الدرجة من اللون الأزرق.

أمّا أكثر الاكتشافات أهمّيّةً فاثنان: الأوّل أنّه عندما قرّر فتح كلّ الأبواب التي لم يدلف إليها، عثر على بابٍ صغيرٍ بين المختَبر وحمّام المعلّمين. فتحه بصعوبةٍ وفاجأه درجٌ فصعد. أعجبه الفراغ التامّ في سطح المدرسة ذات الدور الواحد، ساحة واسعة امتدّت فوق غرف المعلّمين لتلتفّ وتنطلق فوق الفصول الستّة. بدا السطح كمضمار سباقٍ نظيفٍ. أعجبه منظر الحصى الصغيرة التي افترشت أرضه. لم يكن دقيقًا كالرمل ولا كبيرًا كالحجر. لم يطل المكوث. خشي رغم بعد المسافة عن القرية أن يراه أحد المارّة.

أمّا الاكتشاف الثاني فإنّه قبل التوجّه إلى الجامع الوحيد لصلاة الجمعة، وبينما هو يغادر المخزن، التفت يمينًا فدعاه شيءٌ مّا إلى معرفة الأمر الذي حاول الحبل الهزيل والبراميل منعَ العالم من مشاهدته. رفع ثوبه وإحدى قدميه ثمّ الأخرى، رآه: بئر ماء مهجورة.

رحّب المكان بظافر وأضاء لياليه بشعلتين. تبدأ مساءه سيجارةٌ فوق السطح، وتختمه أخرى فجرًا عند البئر.

* * * *

اللعنة!

تسمّر ظافر في مكانه أمام رفّ علب الفاصوليا وهو يسمع بائع البقالة يخبر أحد الزبائن عن الصبيّ الذي غرق اليوم! انقبض صدره

عندما ذُكر اسم الصبيّ! هل تسبّبت في موت أحدٍ اليوم؟ لم يسأل البائع. ترك ما بيده وغادر.

ذهب رأسًا إلى السطح وجلس كي لا يراه أحدٌ من المارّة، أخذ يدخّن. أين أنت يا فرج؟ لماذا تأخّرت؟

حاصرته الوساوس فهرب إلى الحصن الأخير، المكتبة. وأمام رفّ التاريخ، انهمك يقرأ واقفًا. ظلّ على حاله حتّى سمع خطواتٍ تنسحب بكسلٍ على الممرّ. لم ينتبه وهو يعيد الكتاب إلى أنّه لم يجتز صفحةً واحدةً.

تبع فرج إلى السطح. مع حلول الظلام وجده ينزل ما بيده من أكياس. استمع إليه يتحدّث عن كلّ شيء، عن مشاويره الصباحيّة، وبشهوانيّته الفجّة تحدّث عن نساء رآهنّ في سوق المدينة ذاك الصباح، وذكر شيئًا عن مسافر غاب طويلًا عن القرية. ورجع فرج للمرّة الألف يتحدّث عن زواجه القادم وكيف إنّه تعب من دون زوجةٍ. تحدّث ساعاتٍ ولم يجد ظافر في حديثه ما يشفي غليله. فانتهز لحظة صمتٍ وسأله:

- سمعت من صاحب البقالة أن فيه ولد غرق اليوم.
- نعم، غيث، تعرفه. يدرس هنا. بغى يموت الخبل! نزل للنبّاعة يبغى يمر من تحت الشارع ما درى إنهم قبل عشرين سنة حطوا شبَك يحجز الـ...
- وكيف حاله الحين؟
- ما أدري، خذوه لأمه.

انزعج ظافر من إعادة الموضوع إلى قصّة المسافر وغيبته. سرح بقلقٍ. أراد أن ينهي الجلسة ليختلي بمخاوفه. نهض مؤكّدًا أنّه لا غرابة من عودة الغائب، فلكلّ شخصٍ مكانٌ واحدٌ يحتضنه، والمحظوظ من يكتشف مكانه رغم ابتعاده سنواتٍ.

نزل الدرج. أغلق على نفسه باب المخزن وغاب في ظلمةٍ أشدّ. لا يعلم متى استسلم للنوم، لكنّه يعلم تمامًا ذلك الشعور الذي استيقظ به، شعور من فقد إيمانه. فتح عينيه وبدأت دقّات قلبه تتسارع. ها قد عاودته الأحلام! وهنا في مجهرة! كيف سمحت مجهرة بذلك؟ هل غلبها ذلك الحلم أم أرادت أن تلقّنني درسًا؟ كيف لمن منحتُه ضيافتي أن يؤذي أحد أطفالي! سمع العبارة بصوتٍ أنثويٍّ قويٍّ.

بين حصص صباح الأربعاء، مرّ على صفّ غيث عشرات المرّات مسترقًا النظر إلى كرسيّه الفارغ. لعلّه تأخّر فقط وسيأتي! عندما دخل الفصل، تذكّر بعد دقيقةٍ أن يتنفّس وهو أمام الطلّاب متجنّبًا النظر إلى الكرسيّ الفارغ. أطال في الشرح كي لا يلتفت ويرى الفراغ المرعب. دقّ الجرس منهيًا الحصّة وهو لا يزال يكتب على السبّورة. هرب بسرعةٍ إلى الخارج. أحضر له أحد طلّابه الكتاب الذي نسيه وراءه. لم يُجب على سؤالٍ طرحه الطالب بابتسامةٍ: لماذا لم ترسم الدائرة اليوم يا أستاذ؟

* * * *

لم يأتِ الصبيّ إلى المدرسة يوم الخميس. أربع سنوات مرّت منذ قدم إلى مجهرة. لعلّها تفعل المستحيل وتعيده رجلًا آخر. أحبّ الناس وأحبّ المدرسة بسببها. أربع سنوات سعيدة، لماذا الآن؟

شاهد فرج يدخل المدرسة، ويقترب منه ليخبره بأنّ الصبيّ لم يمت. لم يكبح تلك الرغبة التي اجتاحته فأقبل على فرج وضمّه بحرارةٍ. ما أجملك يا صديقي. لم يتحدّث فرج كثيرًا ذاك المساء على غير عادته. ولم ينزعج ظافر من ذلك.

حكى حلمه الأخير، نصحه فرج بأن يقصّه على الشيخ عيسى الذي ورث تفسير الرؤى عن والده وعمّه. ذكر له عددًا من القصص التي تثبت براعة الشيخ في تفسير الأحلام.

هل اختارت مجهرة أن تحدّثه عبر الرؤى؟

استجدى ظافر مرافقة فرج له لصلاة الجمعة. فهو لا يعرف الشيخ كثيرًا ويحتاج إلى مَن يسهّل عليهما الأخذ في الحديث.

أتى فرج بسيّارته متأخّرًا. دخلا سويًّا إلى الجامع الوحيد أثناء خطبة الشيخ عيسى عن التوبة والعودة إلى الحقّ. كلّ مَن في الجامع متشابهون، وكأن ليس فيهم مَن تختلف حكايته. هذه مجهرة، تجيد الظهور كقريةٍ عاديّةٍ حين تريد.

للمرّة الأولى يرى الشيخ عيسى عن قربٍ. رغم دمامته، كان مهيبًا وقورًا. وقبل أن يقصص رؤياه طلب الشيخ بأدبٍ من فرج أن يتركهما وحدهما. فالكثير من الرؤى ما هي إلّا أسرارٌ دفينةٌ لا ترغب في الخروج، ولا يعلم صاحبها عنها شيئًا بعدُ. قصّ ظافر رؤياه، صمت الشيخ، ذكر الله وصلّى على محمّدٍ مرّاتٍ عديدةً وهو يسمع أنّ ظافر كان يطير في منامه نحو الشمس وارتفع حتّى شفى نورُها كلَّ ما به من أمراضٍ وأحزانٍ. ثمّ امتدّت من الأرض شجرةٌ طالته

بأغصانها والتفّت على كامل جسده باستثناء يده اليمنى وهي تحاول الوصول إلى الشمس. لم يستطع التحليق بسبب الشجرة التي كبّلته وضمّته بأغصانها ضمًّا شديدًا.

خير.. خير إن شاء الله، قالها عيسى ثمّ ذكر له تفسيرًا لم يشفِ غليله. كيف أعود إلى أهلي! نام ذلك المساء منزعجًا. حتّى شيخ مجهرة لا يفهم رسائلها.

* * * *

ديرتك تناديك! تردّد صدى صوت الشيخ عيسى ليوقظه أبكر ممّا يفعل عادةً. نهض واتّجه إلى البئر. كيف أغادر وأعود إلى ديرتي؟ مجهرة هي ديرتي. إذن هي من يناديني. غمرت السعادة عالمه لوصوله إلى هذا التفسير. مجهرة تناديني، كيف أصل إليها؟ نظر إلى الرمل الرماديّ تحته. بدا له جميلًا ومختلفًا عن رمال كلّ الطرق التي مرّ بها. نزل وجلس على الرمل. حاول دفن يده فيه فلم يُتح له تماسك الأرض ذلك. رفع رأسه. نهض متّجهًا نحو البئر. اتّكأ بيده على حافّتها. كان انعكاس السماء على الماء جميلًا هذه المرّة. عنّت له فكرة النزول، لكنّ الخوف اعتراه. فأشاح بوجهه ملتفتًا نحو صوت حركةٍ خلفه. ذهب إلى المخزن وارتدى ثوبًا نظيفًا، واتّجه إلى قاعة المعلمين.

- أستاذ!

تجمّد الدم في عروقه بجانب أحد الفصول وهو يسمع الصوت. التفت نحوه. دخل وجلس على الطاولة متصنّعًا الهدوء وهو يسمع الصوت مرّةً أخرى.

- قلت لي أجي مبكر يا أستاذ عشان أسأل كل اللّي عندي.

- صحيح. لكن بأبدأ أنا بسؤال. ليه غبت الربوع والخميس عن المدرسة؟

- كنت مريض. صرت أعرف أسبح. ما قالوا لك؟

- سمعت. مبروك.

- الفضل لك يا أستاذ، أنت من شجعني.

- ....

- عندي كثير أسئلة.

- كثير من الأسئلة، أو أسئلة كثير، قصدك، تكلّم بالفصحى يالله.

- لماذا تقرأ كثيرًا يا أستاذ؟ أنت معلّم ولم تعد طالبًا.

بماذا أجيبه؟ لكي أسكت الصراخ في الكون؟ لكي تتوقّف المعارك؟ لكي يتركني الشيطان؟

- أقرأ لأنّي أحبّ الحياة. أودّ أن أعرف المزيد وأعيش المزيد. السؤال التالي؟ أو لتقل لي كلّ أسئلتك وسأختار منها.

أين يذهب الدخان؟ هل للشيطان وجهٌ مثلنا؟ ما لون الماء؟ كم عدد النجوم؟

لا يعلم ظافر ما الذي جعله فجأةً يحبّ ذلك الفتى أكثر ممّا سبق! أهي أسئلته؟ أم لأنّه لم يمت قبل أيامٍ؟ أو لعلّها ابتسامته التي لم تحمّل معلّمه مسؤوليّة الغرق.

عندما سمع من معلّم التربية البدنيّة أنّ غيث أصيب بوعكة

خلال لعبه كرة القدم، اتّجه إلى الصبيّ. وجده محمرًّا. طلب من المدير السماح له بأن يوصله إلى البيت، فأذن لهما.

مشيا معًا، من دون كلامٍ. كان المعلّم يتأمّل تفاصيل مجهرة: الأزقّة، الأبواب، الأصوات والروائح. لكلّ بيتٍ حكاية تفضحها رائحته. تلك المرأة المرهقة ورائحة القهوة التي تلفّ الشارع تخبره بأنّها أمام يومٍ طويلٍ ووليمةٍ كبيرةٍ. رائحة العشب أمام عتبة ذاك المنزل المغلق قالت كلّ شيءٍ عن هجرة أصحابه. وصلا إلى الباب. طرقاه. خرجت أمّ غيث. يا لتلك العينين الناريّتين! نظرت إلى ابنها وأدخلته. التفتت إلى ظافر:

- إيش فيه؟

- تعب صدره، وحمَّر جسمه.

لم تكلّف نفسها عناء الاستفسار! أغلقت الباب من دون كلمةٍ. (ايش فيه؟).. فقط!

سأل فرج عنها فأخبره بأنّه لا يرتاح لتلك المرأة. قصدها قبل سنوات لتهدّئ زوجته لأنّها صاحبتها المقرّبة، لكنّها لم تفعل شيئًا لإنقاذ زواج صديقتها!

أضيفت إلى طقسه الصباحيّ جلسات الأسئلة مع غيث. أحسّ أنّ الصبيّ متعطّشٌ إلى المعارف. أصبح يخبره بكلّ ما قرأ. حدّثه عن التاريخ والدين واللغة العربيّة والعلوم. أوصى الصبيّ بزيارة المكتبة. وبعد أسابيع أصبحت الحدود واضحةً: كلّ شيء مسموح به إلّا المسائل العائليّة التي تخصّ كلًّا منهما.

- من بنى الأهرامات؟

- سأخبرك لاحقًا، قل لي، ما الذي جعلك تتوقّف عن اللعب مع أصحابك؟

- لعب الكرة يتعبني كثيرًا، والشيخ عيسى يقول ارتاح.

- يجب أن تذهب إلى المستشفى الكبير.

- قلت لأمّي وسنذهب لاحقًا بحسب قولها، هل تعرف حمود أو طافي؟

- لا، من يكونا؟

- طافي وحمود رجلٌ واحدٌ، عاد إلى القرية بعدما تركها صغيرًا.

- لا أعرفه.

أصبحت لعبة الأسئلة وتبادل الأدوار فيها جزءًا محبّبًا في يوم ظافر، فنقلها إلى جلساته المسائيّة مع فرج. كان فرج يشفي الغليل. لا يوجد سؤالٌ عن مجهرة لا يعرفه. جاء فرج ذاك المساء بصحن عشاء كبيرٍ، يتجاوز حاجتهما من الطعام. وعلى ضوء القمر، سأله عن حمود، وعن أم المطاليب، وعن المرأة التي توقّف المطر بعد موتها عامين عن مجهرة. كانت أسئلته تقرّبه كثيرًا من مجهرة. شعر بأنّه لم يكد يتعرّف إليها. لقد أوقعته السنوات والقراءة ومحاولة اكتشاف نفسه في فخّ التمهّل في اكتشاف أسرار مجهرة. أدرك أنّه لم ير منها إلّا بمقدار كوّةٍ صغيرةٍ.

كاد فرج يغصّ بلقمته. أوقف سيل الأسئلة بإشارةٍ من يده. ضحك، وقال له، سأخبرك بكلّ ما تريد معرفته.

أخبره عن حمود، ذلك الرجل الذي هجر والديه وأخاه وغاب عن القرية خمسين عامًا، ثمّ عاد البارحة. لم يره بعد، لكنّ الرجال يقولون إنّه هو من غاص أسفل النبّاعة ليسحب الفتى غيث. يقولون إنّه كان يرتعد من التعب. يبدو أنّ السنوات قد انتصرت على ذلك الجبّار. خمسون عامًا لا يعلم أحدٌ أين قضاها. قيل إنّه التحق بالجيش وقضّى حياته على الحدود. وقيل إنّه التقى فتاةً في الهند سحرته فأبقته كالعبد المسخّر لها ولم يتحرّر من سحرها إلّا عندما ماتت. لكنّ الحقيقة أنّه التحق بمركبٍ وأصبح غوّاصًا ثمّ «نوخذة» وظلّ يجوب العالم. لا أعلم ما الذي حدث له لكنّي أعرف أنّ خمسين عامًا لا تكفي أهل مجهرة لينسَوا رداءة عقوقه وقلّةَ مروءته عندما ترك والده المريض وأخاه وعمَّه وغادر من دون خبرٍ.

- تدري يا ظافر أن أمي كانت تخوّفني به وأنا صغير؟ «إن ما طعت أمك بيخطفك اللّي خطف طافي، إن رحت لحالك لأم المطاليب بيصيبك ما صاب طافي». نعم، حمود هو طافي، ما قلت لك هذا من قبل؟ سمّوه طافي في غيابه. طافي النار وطافي الذكر وطافي المروءة.

- قلت لي مرّة أن للشيخ عيسى أخو اسمه طافي.

- إيه، ركّز معي، علّمتك في أول القصة أن طافي هو أخو الشيخ عيسى، لكن سبحان الله، خلق وفرق. ليه وقفت عن الأكل؟ ما جبت هالصحن إلا لك، تستاهل.

- ومن هي أم المطاليب؟

- ما هي حرمة، هي أرض بأخبرك عنها وحنا نشرب الشاي. تعشّى الحين ويصير خير.

على ضوء القمر، كان فرج يمسك السيجارة وكوب القهوة معًا بأصابع يمناه. وأخذ يتحدّث عن رغبته في العودة إلى زوجته الأولى، أمّ أطفاله. ثمّ انطلق يتحدّث عن أرضٍ صغيرةٍ، يحبّها البعض ويخافها الجميع، أرض لا تتجاوز ما يتّخذه صبية الحارة من مساحة لملعب كرة القدم، لكنّ ماءها الوافر جعلها مكانًا يقتتل عليه إخوة من آل جبر. قيل إنّها سمّيت «أم المطاليب» لأنّ أحد ملوك الجنّ وثمانية عشر جنّيًا من عشيرته يسكنونها، تسمع أصواتهم وأطفالهم مساءً، لا يأتيهم شخص ويُظهر الرجاء إلّا حقّقوا له مطلبه. وقيل سمّيت أم المطاليب لأنّها كانت أوّل قضيّة من مجهرة تصل إلى محكمة المدينة. كانت مطالبات الطرفين بها لا تتوقّف. لم تنفع الأعراف ولا الشرع في إنهاء الخلاف. بئس القوم الذين جعلوا الدنيا سكّينًا تقطع أرحامهم. أطفأ فرج سيجارته باشمئزاز.

حكى ما حدث فيها قبل عشرين عامًا أو يزيد. هطل المطر وغرقت الدنيا. وجدوا في بئرها حذاءً كان قد سقط في بئر المدرسة. نعم، أكمل فرج، عثروا عليه في بئر أم المطاليب. لا شكّ أنّ الجن أخرجوه من هنا إلى هناك لسببٍ لا يعلمه إلا الله وهُم. لا أحد يعلم السبب لكنّ بئر المدرسة تبلع ما يصلها وترسله إلى قلب مجهرة وهي تقرّر هل تخفيه بجوفها أم ترسله إلى أمّ المطاليب. لذا خاف الأهالي أن يسقط أحد الصبية في بئر المدرسة فلا يصلوا له.

ختم فرج أمسيته بسؤال لظافر.

- هل رحت لمكة؟

- لا.

- ولا أنا، ودّي أروح وأوقف قدّام الكعبة.

- صرت شيخ؟

- أحوج الناس لمكّة ما هم الشيوخ! بأروح لمكّة وبأوقف قدّام الكعبة وبأقول يا رب جيتك بنفسي قبل تجيني، وابيك تغفر لي، وبيغفر الله لي.

* * * *

لا، ليس كأيّ ثلاثاء. هكذا أحسّ ظافر وهو يفتح عينيه. أتاه حلم لكنّه لم ينزعج هذه المرّة. رأى امرأةً جميلةً بعينين ناريّتين تميل عليه وتقبّل رأسه. عرف أنّها مجهرة، تلك الجميلة القاسية.

نهض من فراشه، وأمام البئر، ربط ظافر الخيوط. وأصبح جاهزًا لاستقبال الإشارة. أحسّ بصوتٍ. لعلّه غيث. رمى سيجارته في البئر. توقّف. خُيّل له أنّ الصوت عاد مرّةً أخرى لكنّه كان قادمًا من قاع البئر.

لم يفهم ما دهاه وهو يحرّر الحبل من البراميل التي قيّدته. ربطه في المحرّك الصدئ بطرف البئر، ونزل. عندما انتصف به النزول، استخدم قدميه ليبتعد عن الجدار وأدار جسمه ليواجه القاع. استطاع أن يرى انعكاسه للمرّة الأولى في قاع البئر. بدا متموّجًا تائهًا كفريسةٍ مقيّدةٍ تحاول الفكاك من دون جدوى.

ما الذي أفعله؟ كيف وصل بي الحال إلى تصديق خرافاتٍ كهذه؟

هل اقتربت منك يا مجهرة؟ لم أعد على سطحك، أتودّين منّي إطلاق الحبل؟ هل ستحتضنينني أم ستقذفين بي إلى أم المطاليب؟

آلمته يداه. شاهد بقايا سجائر، كرات، بلاستيك! اللعنة. ما الذي صنعته؟

انتبه إلى جمال الزرقة التي تركتها السماء على سطح البئر، زرقة سماويّة مريحة للأعصاب. بدأت ارتدادات انعكاسه تتناغم. لم يعد يرى انعكاس الحبل! لا شي سوى انعكاسٍ لشخصٍ يتمايل ويتلوّى كدرويش منتشٍ نسي ما حوله في الحضرة.

نظر إلى وجهه على الماء، فرآه بلا ملامح.

إشارة، أريد إشارة واحدةً فقط، وأقسم أن أظلّ مخلصًا لك حتّى لو غادرتك. سأحدّث العالم عنك.

خيّل له أنّ الانعكاس يشير إليه برأسه رافضًا. اللعنة! نظر إلى الأسفل مرّة أخيرةً نحو انعكاس صورته المهتزّة. همس بصوتٍ متوجّعٍ سمعته البئر فردّدت صداه:

من.. أنت؟

* * * *

هل ماء زمزم يشفي كلّ الأمراض؟ ماذا عن العين والحسد والسحر؟

لم يستطع غيث ولا أسئلته الاستحواذَ على كامل انتباهه. كان

مرهقًا. يداه محمرّتان. طلب منه الصبيّ، وعلى غير العادة، أن يذهبا سويًّا إلى المكتبة. ففعلا. أسئلة الصبيّ كثيرةٌ هذا الصباح.

- لماذا لا توجد نوافذ؟

- لا أعلم، لكن ربّما كي لا يدخل الغبار والحشرات. هيّا، ابحث عن الكتب المختبئة عن الأعين.

- الجوّ مكتومٌ هنا.

- كلّ الأماكن مكتومةٌ، عدا المكتبة. وكلّ ما نحتاج إليه موجودٌ فيها.

- ألا تملّ من طول الجلوس هنا؟

- لا يملّ أهل الجنّة من نعيمهم.

- يقول طاقي إنّ المكتبة كانت تزدحم بالطلّاب في وقته، لكنّهم أعادوا بناءها وترتيبها. خاف المدير من عبث الطلّاب بها فأغلقت.

هناك، في تلك اللحظة، سمع ظافر -بوضوحٍ أكثر- نداء مجهرة.

طلب من غيث التوجّه إلى الفصل وانتظار وصول بقيّة الطلّاب.

جثم أمام البقعة السماويّة اللون، لون المكتبة الأصليّ، انهمرت الأفكار عليه دفعةً واحدةً. أدرك سبب قدومه إلى مجهرة، بل أدرك سبب وجوده كلّه وسببَ اختلافه مع والده واختياره أن يكون معلّمًا وهَجْر مدينته سنواتٍ ليأتي إلى هنا.

كلّ خيارات حياته كانت تقوده إلى مجهرة التي همست له طوال

الوقت وانشغل عنها بصراخه الداخليّ. ها قد استجابت الآن، مدّت حبلها لتحرّره وأوصلته إلى أعماقه لأوّل مرّةٍ. وكما تربط بئرها بأم المطاليب، سيربط ظافر عبر المكتبة مجهرة بأبنائها.

لم يقتنع المدير بالفكرة الغريبة. لماذا نعيد صبغ المكتبة؟ وبدهان أزرق سيجعل لون المكتبة مختلفًا عن بقيّة المدرسة البيضاء؟ رفض الفكرة معلّلًا بأنّ الميزانية لا تسمح. بل طلب بحزمٍ ألّا يشوّه ظافر الجدارَ مهما تكن الطريقة.

قسمًا بمن خلق مجهرة أن أدهن ذلك الجدار.

أمسى يذهب إلى المكتبة نهايةَ كلّ يومٍ ليبدأ في تقشير اللون الأبيض بأظافره. مرّت الأيّام وتلك الكوّة تكبر. لكنّ أظافره كانت تنتزع الأبيض وأحيانًا اللونين معًا وتفشل حينًا آخر في خدش البياض. أصبحت الكوّة مبقّعةً، خليطًا من الأبيض والأزرق والرماديّ.

ولئن لم يعد يركّز في ما يقوله فرج فإنّ حديثه عن أمّ غيث أثاره. بدأت تلك المرأة تفتعل المشاكل حتّى تمنع سويّر من العودة إلى زوجها. بل وصل الجهل بها إلى منع ولدها أحيانًا من الحضور إلى المدرسة!

صباحًا، جلس مع الصبيّ، وراعته آثار الحروق في قفاه.

– من فعل هذا بك؟

– أخذتني أمّي إلى الشيخ عيسى ليعالجني.

– يعالجك أم يعذّبك؟

– آلمني الكيّ، لكنّه قال إنّ تعبي سيزول.

– قال (إنّ) تعبك سيزول. أيّ تعب؟

- لا أعلم ما الذي يحدث لي يا أستاذ. أصبحت أتعب بسرعةٍ إذا لعبت كرة القدم. يحمرّ جسمي وأتنفّس بصعوبةٍ. وأجد ملابسي كأنّها جَمْرٌ.

- لا تلعب الكرة إذن حتّى تعرف حقيقة الأمر.

- ليس لعب الكرة فقط، بل حتّى المشي الطويل وخصوصًا في النهار، والعمل في النخيل أيضًا يتعبني جدًّا ولا أحبّه.

- لا تعمل.

- لا أستطيع، فالنخيل أهمّ من كلّ شيءٍ كما تقول أمّي. وهذا ما جعلني أتغيّب بالأمس.

- ومن قال إنّ النخيل أهمّ من المدرسة؟

- أمّي.

- ما تزرعه من النخيل يغذّيك اليوم، لكنّ ما تبذره المدرسة في عقلك اليوم ستجني ثماره أنت وأمّك بقيّة عمريكما. أعلم أنّ أمّك تحترم المدرسة، لكنّها تحتاج إليك في الحقل لذا لو..

- «المدرسة مضيعة وقت»، هذا ما قالت لي.

كظم ظافر غيظه وأنهى حواره بأن لا وجود لأمٍّ تحبّ لولدها الخير وتمنعه من المدرسة في آنٍ.

* * * *

عندما دخلت تيماء كان يمسك كتابًا في يده متجنّبًا تضييع وقته في حوارات بقيّة المعلّمين المعتادة. توقّفت عند الباب ونظرت إليه بعينيها

الناريّتين. خفتت همهمات المعلّمين مفسحةً المجال لصوتها الهادئ الحازم. طلبت منه عدم التدخّل في تربية الصبيّ. تجاهلت إجابات ظافر التي شدّدت على أهمّيّة دور المعلّم. وعندما لامها على ما أصاب جسد غيث من آثار حروقٍ انفجرت في وجهه ورفعت صوتها تهدّده وهي تصرخ: «استح يا غريب».

وصل المدير فزِعًا. سمعه ظافر يعتذر لها وهو يرافقها مبتعدَين عنه. بعد دقائق، رأى غيث يخرج متّجهًا إلى أمّه. تجرّع ظافر مرارة الخسارة وعلم أنّ مهمّته ليست سهلةً. استح يا غريب!

ألهذا اختارتني بجهرة؟ كلّ مَن فيها إمّا جاهلٌ كهذه المرأة أو ضعيفٌ كالمدير أو عاجزٌ مثل غيث. لم تثنه هذه الهزيمة، بل زادت يقينه أنّ وقت مهمّته قد حان.

في آخر يومٍ دراسيٍّ من ذلك الأسبوع، ومع خروج المعلّمين، انطلق ظافر بحماسٍ ليغلق باب المدرسة. نقل الكتب الملاصقة للجدران ووضعها على الأرض خارج المكتبة. ابتهجت أساريرُه وهو يفتح الباب ويرى فرج ومعه الفرشاة والدهان المطلوب. تمتم فرج بشيءٍ وهو يغادر المدرسة. أوقفه ظافر. ضمّه بقوّةٍ وهو يقول: ابتهج يا صديقي. اليوم سيتغيّر كلّ شيء.

وهناك، رغم ضيق المكان وسوء تهوئته، وقف ظافر ينظر إلى الجدار الأوّل الذي اتّشح بلونٍ سماويٍّ يريح الأعصاب. عاد إلى الخلف منتشيًا. لم يشعر بالمصباح المعلّق وهو يصطدم برأسه من الخلف ويهتزّ مصدرًا أزيزًا خفيفًا.

سأعيد أبناءك إلى جنّة المكتبة ونعيم القراءة. سيكون لهم مستقبلٌ يليق بك. ويكونون الجيلَ الأفضل الذي مرّ بمجهرة. سيصبح طلّاب ظافر هم خيرة ما أنجبت. أبناؤك هم أبنائي أيتها الحبيبة.

نظر إلى الجدار وعلم أنّ مهمّته بدأت. غدًا جدار آخر. وغدًا مجهرة جديدة. شعر بالسعادة والرضى. ابتسم وهو يرى ظلّه يتمايل أمامه على الجدار الأزرق بسبب تأرجح المصباح المعلّق. أشعل سيجارةَ منتصرٍ تحرّر من هموم العالم. ضحك بصوتٍ عالٍ وهو يرى بوضوحٍ ملامح ظلّه تبتسم. أنزل فرشاة الدهان. رمى السيجارة، ورمى معها كلّ أحزانه وهمومه. أغمض عينيه بنشوةٍ.

لقد دخلت جنّتك يا مجهرة!

(5)
بعث

اليوم اتسع الكون وتضاءلت حتّى لم تعد ترى نفسها. اليوم فقط أدركت أنّها بلا هدفٍ.

ما الذي تفعلينه يا تيماء؟ الموت يحصد ما تركه والدك. الماشية تموت واحدةً تلو أخرى. لمن ستوكلين أمرها؟ رعاة لا يؤدّون ما عليهم في أمرها، أم قسوة مواسم متقلّبة بين سقر وزمهرير؟

الأيّام تمضي برتابةٍ تشجّع أيّ حدثٍ -مهما يكن صغيرًا- على أن يصبح فارقًا. لكن لا شيء. كم أتمنّى أن أغمض عينيّ ولا أفتحهما حتّى نهاية عمري، كيلا أرى البيت ولا فراش أبي ولا مطبخ أمّي. وجود أشيائهم أقسى من غيابهم. أدرك الآن لماذا كان يعقوب الأزرق يحمد الله كثيرًا على نعمة العمى! لأنّه لم يرَ ما يجعله حبيسَ ذكرى وأسيرَ لوعةٍ.

خواطرها تعزلها عن صباحِ الصبيّ، كأنّها تتعمّد ذلك. آه يا لهذا الصبيّ، قاسية ملامحه كجدران قبر والدها. تحرص على إيقاظه باكرًا. تتجنّبه حتّى يغادر البيت وتنفرد بأوجاعها.

في باحة المنزل، أمام الراديو، جلست تخيط ثيابًا لا علم لأصحابها بها. لن يأتوا لاستلامها إمّا لقلّة ذات اليد أو لأنّها لم تستأذنهم في

صنعها ولم تخبرهم بها. الثوب الجيّد يختار صاحبه، لا العكس. خاطت لكلّ نساء القرية وبناتها عدا أمّ غريدل التي ترفض أن يخيط لبناتها غيرها. خاطت تيهاء لكلّ بيتٍ ولم تخط لنفسها ثوبًا قطُّ! لم تجرؤ على الحلول محلّ أمّها. ستظلّ تبتاع من السوق ثيابًا خاطتها أمّهاتٌ لا تعرفهنّ ولا يعرفن أين انتهى المطاف بما خطن.

تركت ما بيدها، وانطلقت إلى الباب الذي طرق بعنفٍ. كان الصبيّ فاقدًا الوعي. أخبروها أنّه غرق وهو يتعلّم السباحة! حملته ووضعته على فراشه. بدا لها ثقيلًا. هل كبر فجأة؟ أهو الماء أم الزمن؟ لا تتذكّر آخر مرّة حملته فيها. بدا جلده مشدودًا كجلد والده. أذناه مختلفتان. أهِي شامةٌ؟ لم تكن متأكّدةً. عيناه كعين والده السليمة. كانت في ما مضى تتجنّب النظر إليهما كما تتجنّب أسئلة الطفل عن أبيه والمكان الذي ذهب إليه. هذا الصبيّ لا ينسى والده الذي لم يره ولم يسمع قصصًا عنه! هل سينساني يا ترى؟ تمتم الصبيّ بكلماتٍ وغرق في النوم.

في ذلك المساء غفت على بكاءٍ صامتٍ، لا يشبه بكاء الليالي الأخرى. ذكّرها الغرق بوالدتها. وحدَه الغرق يجعلك ترحل وحيدًا مهما يكُن عدد الغارقين معك. هل غاص جسدها إلى القاع؟ هل نهشته...؟ لم تكمل الفكرة. كفى الغرقَ سوءًا أنّه يقطع الخيط الأخير بين جسدك ومَن تحبّ. لا زيارات، لا ذكرى. يبتلع الماء الناس كما يبتلعهم النسيان. همست لنفسها وهي تغوص في النوم: لن أنساها.

* * * *

منعه ضعفه عن المدرسة. تركته نائمًا حتّى الضحى دون فطورٍ.

دخلت سويّر وألقت نظرةً على الصبيّ. جلستا وبينهما دلّة القهوة. أبدت سويّر أسفها:

- ما يستاهل! الحمد لله على كل حال.

- ....

- هو طايح ولّا دفّه أحد العيال في الري؟

- لا.

- الحمد لله أن..

- لم تدعها تيماء تكمل. قاطعتها على غير العادة:

- جاني حلم البارحة.

- خير إن شاء الله.

- حلمت بأمّي.

قالتها وعيناها مسمّرتان على فنجان القهوة بيدها. طال الصمت. همّت سويّر بإعطائها الفنجان، لكنّها تراجعت مفسحة لها المجال حتّى تكمل سرد حلمها:

- كانت في مكان مليان وسائد لونها أخضر، دخلت ورحت أركض أسلّم عليها، وقفت لي وابتسمت، ظنّيتها ما عرفتني! كنت أنا بعمري اليوم وهي بعمرها يوم توفّت، اقتربت منها ووقفت قدّامها، كانت أقصر منّي، بغيت أخبّرها إني بنتها، ما قدرت من البكاء، تقدّمت هي خطوة وحضنتني وحطّت راسي على كتفها...

مسحت تيماء دمعةً أفلتت بهدوءٍ. واصلت قصّ رؤياها:

- شيلة شعرها تعج بريحة المشموم. قلت لها أني بنتها، رفعت رأسي بيدها وحبّتني على خدّي وعيونها تقول (أدري يا تويم، أدري)، ضمّتني.. حسّيت بالأمان في حضنها، سمعت تمتمتها، تعجّبت.. ارتبكت، كيف تتكلّم؟ صرت أبكي من الفرح، حسّت بي، ضمّتني أكثر، ثم.. ثم بدأت تغنّي.

شهقت تيماء بصوتٍ عالٍ مجروحٍ كاد يوقظ النائم. انهارت باكيةً. اندلقت القهوة من فنجانها. مالت سويّر إليها محاولةً تهدئتها بعدما سمعت نشيجَها لأوّل مرّةٍ. تحرّكت لتجلس بجانبها وتضمّها. مرّ وقتٌ قبل أن تستعيد تيماء تماسكها وتكمل:

- كان أجمل صوت سمعته في حياتي، ما رفعت رأسي عن كتفها، راح وقتنا وأنا أسمع غناءها.

- خير إن شاء الله، بأسأل الشيخ عن تفسير حلمك.

- لا.

- ما راح تروحين أنتِ، أنا بأروح له وبأقول هذا حلم لي أنا. ما راح أجيب ذكرك لا من قريب ولا بعيد.

- لا.

- ايش مشكلتك مع الشيخ؟ طيّب وما شفنا منه إلّا كل خير.

تعرف أنّه رجلٌ صالحٌ وأنّ القرية تحترمه. وتعرف أنّ والدها كان يحبّه وأنّ عيسى من جهته قال في أحد المجالس إنّ سالم الجبر

هو أطيب رجال مجهرة. لكنّها لا تعرف بما تُجيب على استنكار سويّر الدائم. نظراته أحيانًا غير مريحة، لا تناسب مَن هو في سنّه وصلاحه. ورغم انزعاجها من اختلاسه النظرَ إلى جسدها فهي لن تنسى جميله مدى الحياة. هو وحده من تقدّم عندما ارتبك الجميع يوم المقبرة.

* * * *

انشغلت تيهاء بالمريض، يصحو يومًا ويتعب يومًا!

لماذا لا تمرض مثلها نمرض؟ لماذا تأتيك الحمّى نهارًا لا ليلًا؟

لم تكن تعرف ما يجعل جسده مريضًا، لكنّها تعلم يقينًا سبب فساد عقله. إنّها أفكار المعلّم الغريب. يحشو رأسه الصغير بأخبار أماكن بعيدةٍ لا يهتمّ بها سوى الهاربين من أهاليهم.

نهرت الصبيّ ذات يومٍ بعد تساؤله عمّا يوجد خلف البحر. قالت إنّه لا يليق بالرجل الابتعاد عن أهله وقريته بحثًا عن جوابٍ لسؤالٍ لا فائدة منه.

رضخت لكلام النساء ولمعاناة الصبيّ وحسمت أمرها. أوصت إحداهنّ بأن تخبر عيسى بقدومها. وعندما صلّت العشاء، سحبت الصبيّ من يده وانطلقت. لم تتكلّم في الطريق. كانت تسمع أنفاسه وهي تفكّر في ما ستقوله أمام عيسى وأخيه.

كان الباب مفتوحًا مرحّبًا بالقادمين. وجدت أمامها رجلًا من خارج القرية وأمّه العجوز حين أقبل عيسى في ثوبٍ أصفر واسعٍ كثيابه الأخرى. لا يليق بالرجل إلّا الثوب الواسع. قاومت استدعاء ذلك اليوم المشؤوم. رحّب عيسى بالجميع ودخل أمامهم. كان لحفيف

ثوبه وهو يمشي أثرُ سحق عظامها. لا تريد أن تتذكّر. تشاغلت بالنظر إلى خطوات العجوز وهي تتهادى.

كان بيت عيسى كأيّ بيتٍ بناه إمام مسجدٍ، واسعًا وقليل الغرف، وفي طرفه البعيد انطوت الحمّامات. في منتصف الفناء، رأت نارًا تشتعل. جلست على بساطٍ مفروشٍ حاول عيسى إبعاده عن حرارة النار في ليلة صيفٍ كهذه. شاهدت عيسى يتفحّص عيني المرأة المسنّة. أخذ رأسها بين يديه وبدأ يقرأ المعوّذتين وآية الكرسيّ نافثًا تارةً ومواصلًا القراءة تارةً أخرى. شكراه وهما يغادران وعرضا عليه ورقةً نقديّةً رفضها بأدبٍ. علا صوت الرجل محاولًا إقناعه بقبول المال وبأنّه يمنحه عن طيب نفسٍ. وكمن لا يسمع، اكتفى عيسى بإعادة يد الرجل إلى جيبه ومشى معهما مودّعًا. سمعت تيماء سعالًا مكتومًا آتيًا من داخل إحدى الغرف. حدّقت في شبح شخصٍ يلفّه الظلام. أحسّت بنظراته عميقةً قبل أن تهزّه نوبة سعالٍ أخرى.

فاجأها سؤال عيسى الواقف بطوله أمامها. كان قريبًا جدًّا. رفعت رأسها فرأته وضوء النار ينعكس على جانب وجهه. هنا، لم تستطع المقاومة. انهارت. جرفتها ذكرى المقبرة. غبارٌ يلفّ الكون، ألمٌ مريعٌ يشقّ جسدها إلى نصفين، تنظر إلى أعلى وهي ملقاة على ظهرها أسفل القبر. حاولت ستر فخذَيها عن أعين الرجال. لم تستطع الحركة ولا رفع رأسها. كانت أحشاؤها تتقطّع. صرخت بألمٍ ممزوجٍ بالخجل وخشية الفضيحة. سحبت قماشًا أبيض كانت تمسك به قبيل وقوعها ولم تُفلته. جرّته لستر نفسها. فهبّ الرجال صارخين وأدركوا جثّة والدها قبل أن تتعرّى. حارت. أتستر نفسها أم تستر والدها؟!

ضيّق الألمُ القبر عليها. صرخت. لا تتذكّر شيئًا بعد ذلك سوى عينَي عيسى.

أخبرتها سويّر بما روته لها النسوة لاحقًا. وقف عيسى وهو يصرخ في الرجال ويفرّقهم. نزع ثوبه. وفي لمح البصر فتقه من منتصفه وأمسك بطرفه راميًا إلى أبي مبارك طرفَه الآخر ليحجبا القبر. اقتحمت النسوة المقبرة. ودفعن الرجال بعيدًا. تقاسمن الأدوار: النزول إلى القبر، حمل المولود المتعجّل، نفض التراب عنه، رفعه لتتلقّفه الأيادي، انتهاءً بمساعدة الوالدة في النهوض وإخراجها من القبر.

لا تتذكّر تيهاء كلّ التفاصيل ما عدا عيسى وهو واقفٌ عاري الصدر آمرًا وناهيًا من حوله. ولن تنسى طوال عمرها أنّ عيونهما التقت. تمنّت لو أنّ الأرض التي انشقّت من تحتها ابتلعتها.

أنقذها عيسى من وحشة الذاكرة بسؤاله وهو يتفرّس في وجه الغلام:

- خير إن شاء الله يا بنت سالم، ايش فيه؟
- الولد به شيء ما أعلمه! جسمه يعرّق ثم يحمرّ كأنه جمرة، ويصيح من الوجع.
- من متى؟
- كانت متفرقة وتالي زادت. الله أعلم إنها ما جاته إلا بعدما طاح في النبّاعة.
- هو اللّي غرق في النبّاعة؟
- ايه، الله ستر.

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، أخاف يكون من الروعة ولا مسّه جنّ.

جذب الصبيّ إليه. أمسك به. تفحّص عينيه. مسح على ظهره. مرّر يده على حلقه ولوزتيه. قرأ مفاتيح سورة المُلك وقصار السور. ظلّ يقرأ حتّى انطفأت النار. تأمّلته تيماء وهو ينحني على الصبيّ ويلاطفه ويدعو له بالشفاء. من قريبٍ، بدا عيسى أكبر سنًّا.

تعالى سعال الرجل المختبئ في الظلام. تجرّأت تيماء:

- أخوك مريض؟

- إن كان الكبر والشيب مرض فنَعَم. قلبه اللّي كبر بس، ما عداه، فالمرض هو اللّي تعب من مطاردة حُمُود في أسفاره الطويلة. ملّ المرض وتركه.

- هو صحيح إنه اللّي سبح وطلّع الصبي؟

- نعم هو، بغى يموت مع الصبي، يظن أنه توه ابن خمسين. الله سلم وستر.

لماذا؟ لماذا يا عيسى؟ كنت تؤدّي عملك على أكمل وجه. لماذا هذه النظرة؟ أتظنّني لم أنتبه إلى نظراتك تنهشني؟ نظرات لا تليق بمثلك. لماذا لا تظلّ ذلك الشهم؟ حدّثت تيماء نفسها وهي تلغي فكرة إخباره بحلمها. طلب عيسى من غيث أن يمشي أمامه ففعل. وطلب منه أن يرجع ثانيةً إذا عاودته الحمّى. ودّعها عيسى واتّجه إلى أخيه الذي شقّ سعالُه الظلام.

* * * *

تلوّن لسان الصبيّ. أصبح يحدّث نفسه. رأته ذات مرّةٍ يخاطب المرآة! لم يقلقها ذلك. يبدو أنّها العادة الوحيدة التي ورثها عنها. ما كان يثير حَنَقَها هو أنّه يتحدّث إلى المرآة بعربيّةٍ لا تسمعها إلّا من عيسى خلال خطبة صلاة العيد ومن المعلّم الغريب. ستضع حدًّا لهذا الظافر الذي اختار غيث من بين صبية المدرسة ليفسد عقله ويغرس فكرة الرحيل فيه. يحاول دومًا الظهور كمن يعرف كلّ شيءٍ، لكنّ وجهه يقول بوضوحٍ إنّه لا يعرف شيئًا، عيناه فريستان لأسئلة الدنيا كلّها، فكّرت وهي تمشي إلى المدرسة لإحضار الصبيّ حين بلغها تعبه.

لم يمض زمنٌ طويلٌ منذ قرأ عيسى القرآن على الصبيّ. وها هم يرجعون إلى منزله ثانيةً. رأت حلقةً كبيرةً من الرجال التفّت حول عيسى، وقد اكتسب وجهُه من النار التي جعلها خلفه ظلمةً زادت من هيبته وغموضه. اتّجه غيث نحو الرجال. وانطلقت هي نحو طرف البيت حيث اجتمعت النسوة. من مكانها، شاهدت عيسى يقرأ على هذا وينفث على ذاك. وحين جاء دور غيث، التفت نحو النار وحرّك قطعة معدنيّة تتوهّج. ناداه باسمه. سأل الصبيّ عددًا من الأسئلة وأخرج من جيبه حلوى وضعها في حجره. وسأله أن يختار منها واحدةً. لم يدر المسكين ما أصابه. لم يكد ينحني ليختار حتّى بادره الشيخ بالمسمار المحمرّ ليلسع قفاه. حاول الصبيّ الحركة لا شعوريًا لكنّ يد عيسى المدرّبة ثبّتته بينما تُحدث يدُه الأخرى كيًّا آخر بجانب الأوّل. لم يُصدر الصبيّ أيّ صوتٍ. اعتدل ووضع الحلوى داخل جيبه وغادر.

في طريق العودة إلى البيت، سألها وهو يحاول تحسّس أثر الكيّ بأنامله عن الرجل الذي انتشله من النبّاعة.

- حمود؟ ترك ابوه وأخوه وهجر القرية وهو ولد، تنكّر لهم وما همّه اللّي حصل بعده، واليوم بعدما شاخ وتعب رجع لأخوه يشاركه مرضه وتعبه. ما فيه خير اللّي يتسبّب لأقاربه بالوجع والهم.

رأت في عيني غيث المتعبتين نظرةَ دهشةٍ، ربّما كانت نتيجة الكيّ المفاجئ. لم ينطق أيٌّ منهما بعد ذلك بكلمةٍ حتّى وصلا. قبل أن تغمض عينيها نظرت إلى الصبيّ في فراشه وتساءلت: لماذا لم تصدر صوتًا عندما لمست النار رأسَك مرّتين؟ هل تتألّم مثلنا؟

لم يتغيّر شيءٌ، بل ازداد الأمر سوءًا. ركبته حمّى أشدّ. لا تعلم ما تفعل. انتظرت حتّى فرغ المسجد من الرجال. خرج عيسى فألقت السلام عليه. أخبرته بالأمر. اقترح عليها أن ترسل الصبيّ إلى منزله بعد صلاة العشاء وأن تدعه يمكث بمنزله ليلتين أو ثلاثًا ليكون تحت ملاحظته. وافقت دون تردّدٍ. طلبت من الصبيّ الاستحمام ومسحت على رقبته ووجنتيه من قارورة مسك وساقته إلى منزل عيسى.

في الطريق، تعب الصبيّ. وصل إلى المنزل منقطع الأنفاس. تلقّفه عيسى. تفحّصه. أشار إليه بالذهاب إلى الحجرة الداخليّة بجوار عمّه حمود.

التفت إلى تيباء:

- لا تشيلين همّ يا بنت سالم، بأقرأ عليه الليلة وكل ليلة. كلام الله بيطهّر جسمه من كل مرض وخبث.

- بارك الله فيك. ما أظنّه يحتاج المدرسة هاليومين فلا يروح لها.

- إلا بيروح إن شاء الله ويبتعافى، والمدرسة أقرب له من هنا.

قالها وهو يشير إلى مبنى المدرسة الذي لا يبعد كثيرًا. صمتت تيماء متردّدةً.

- بغيتي شيء؟ ترا ما قدّامك إلا أخوك.

تجرّأت وأخبرته بأمر الحلم.

- اللهم خير، اللهم خير. وساير خضراء؟ كم عددها.

- كثير، ما أعرف.

- كانت أمك واقفة أو قاعدة حول الوساير؟

- واقفة، ثم ضمّيتها وأنا واقفة مثلها.

- خير، خير، اللهم خير. كانت لابسة شيء على شعرها؟

- لا، لا شيلة ولا برقع، شعرها ظاهر ويفوح ريحة مشموم.

صمت قليلًا. شتّتت انتباهه ضحكةُ حمود المجلجلة قادمةً من الغرفة. يبدو أنّه والصبيّ قد انسجما.

- اللهم صلّ على محمّد وآل محمّد، ما شفتي إلا الخير. أمّك من أهل الخير، وأشوف جنّة بالدنيا وبالآخرة.

- جنّة بالدنيا؟

- نعم، نخلة لك، بتملكينها وبتتصدقين ببعض تمرها وتهدين أجرها لأمّك.

- نخلة لي أنا؟ ما عندي. ايش عرّفني بالزراعة!

- نخلة بتعيش طويل، وتبقى بعد ما نموت كلنا والله أعلم. ويأكل منها الفقير والطير إلى ما شاء الله.

- والغناء؟ كيف تغنّي وهي بكماء؟

- الجنّة ما فيها بكم ولا عمى ولا مرض.

- أمّي في الجنة؟

كانت تعلم أنّ أمّها ملاك وأنّ مثلها سيكون في الجنّة، لكنّ سماعها ذلك من شيخٍ جعلها متيقّنةً. عادت سعيدةً إلى منزلها. وجدت نفسها وحيدةً وقد صار الصبيّ مسؤوليّةَ شخصٍ آخر. أمضت ليلها تفكّر في تلك النخلة، كيف؟ لا بدّ أن تختار لأمّها أفضل النخلات.

في الصباح، انطلقت تجوب مزارع مجهرة واحدةً تلو أخرى تفتّش عن النخلة المثلى. لم تجد نخلةً تشبه أمّها. عثرت على نخلاتٍ طيّبةٍ في مزرعة مفلح. ذهبت إليه بعد صلاة العصر، وجدته أمام منزله جالسًا على بساط يضمّ عددًا من الكهول. عندما أخبرته بأنّها تريد شراء نخلة ضحك هو ومن معه.

- تشترين نخلة واحدة؟ ايش بتزرعين حولها؟

- مشموم.

- مشموم؟ هذا اللّي كان ابوك يزرعه في نخله اللّي مات؟

اهتزّت القرية من ضحكات الرجال.

- بتسقينها أنت أو أسقيها لك أنا؟ ايش جاب النسوان للزراعة! عوّدي لبيتك وتمّي طبخ عشاك واتركي شغل الرجال للرجال.

كانوا يرسلون سهام سخريّتهم لتستقرّ في أذنها وهي تسير مبتعدةً عنهم. فلتضحكوا ما شاء لكم الضحك أيّها الحمقى المتعجرفون. والله لأزرعنّها ولأجعلنّها أجمل النخلات في مجهرة. كانت تدفع باب منزلها الذي يحوي رسومًا لم تكتمل، عندما حسمت أمرها وقرّرت إكمال ما بدأه والدها.

* * * *

ضحكت سويّر.

- بتزرعين نخل ابوك؟

- نعم

- ومن وين بتدفعين للرجال..

- ما راح يزرعها أحد غيري.

- تزرعينها أنت بنفسك؟ بيديك؟

- ليه لا؟

- هذا شغل الرجال ولا يقوم به إلّا الرجال؟

- من قال؟ ما كانت جداتنا يزرعون بأنفسهم؟

- ذاك أمس، أمس غير.

- نشوف.

بقي الصبيّ في منزل عيسى. أتاح لها ذلك العودة إلى نخل والدها. تنطلق فجرَ كلّ يومٍ وتعود ظهرًا، وتعاود الذهاب ثانيةً بعد صلاة العصر حتّى الغروب. وعلى مدى أسابيع، كانت تتعلّم بنفسها

طُرق تنظيف النخل وتجهيزه. لم يتقدّم أحدٌ من الرجال لمساعدتها. ولم تطلب منهم العون. كانت تختلس النظر إلى جيرانها لتتعلّم منهم الحرفة، وعندما جاء وقت اختيار الفسيل المناسب للغرس، لم يوافق أحدٌ من رجال القرية الذين يملكون نخلًا على بيعها أيًّا من فسائلهم. كأنّهم اتّفقوا على عقابها جزاءَ خوضها مجالًا محرّمًا على النساء.

- ايش تسوّين بعمرك؟

سألتها سويّر وهي تمسك يدها الخشنة التي حلت جروحًا بسبب الزراعة ومَسْك المعول.

- أعطي أمّي طلبها.
- ليه ما تجيبين أحد يساعدك؟
- الحلم ما كان فيه إلا أنا وهي.
- سألت فرج وخبّرني أن (مُوارِيَة) فيها أطيب النخل وأنه يقدر يدوّر لك عن بيّاعين الفِسِّيل الطيب في ذيك الديرة.
- فرج قال؟ وين شافك؟
- قابلته صدفة اليوم عند البياعين. ما قلتي لي، كيف حال الصبي؟
- ما أدري، يصحى أيام ويمرض أيام بلا سبب. حاول معه عيسى بالقرآن ما نفع، كواه وما طاب، منعه من اللحم وما تغيّر شيء. قبل أمس، طحنت له حبّة سوداء مع كمّون وزنجبيل وزدتها عسل من عند أم مبارك عشان يأكله على الريق وبأرسلها له عند عيسى، وبأنتظر وأشوف.

- لا تشيلين هم، علاجه عندي.

- عندك؟

- أقصد عند الله لكني أعرفه، طلبت من فرج يجيب لي ماء زمزم اللّي يباع في الساحل من محطّة الباصات اللّي جاية من مكّة. وما به مرض يستعصي على زمزم.

عندما صلّت العشاء، سمعت طرقاتٍ فخرجت. كان فرج ينزل قنّينةً كبيرةً سمعت خضخضة الماء فيها. وضعها أمام الباب وهو يلقي السلام.

- شوفي الدرب، بأدخّلها للمطبخ.

- ما تقصر يابو سرور، ردّها للموتر. الله لا يهينك، ودّي تنزّلها عند بيت عيسى. لكن انتظر بأعطيك غرض.

حلف فرج ألّا يأخذ مقابل الماء. شكرته وأوضحت أنّها ستحضر شيئًا آخر من الداخل. جمعت كلّ ما لديها من ذهبٍ، بقايا مهر زواجها، وسلّمته إيّاه.

- اشتر كل اللّي تقدر تشتريه من فِسّيل، وأبغى رجالين يجوني يغرسون الفسّيل كله ويعمرونه أربعين يوم، لا ترد لي شيء من الفلوس.

لم يمض أسبوعٌ حتّى دهش مفلح والرجال من حوله وهم يرون شاحنةً ملأى بالفسائل والنخل. قاموا يتفحّصونها بعد أن أوقف أحدهم الشاحنة. توزّع الرجال حولها يلمسون جذور الفسائل الخضراء وسعفها بأيديهم بينها ذهب مفلح ليسأل السائق عن وجهته.

صُعقوا عندما سمعوا الإجابة وتسمّرت أعينهم غير مصدّقةٍ وهم يرون الشاحنة تتهادى في طريقها إلى النخل الميّت، نخل تيماء.

في الصباح، ذهبت إلى المدرسة وأخبرت المدير برغبتها في أن يتغيّب الصبيّ أيامًا كي يُعينها على النخل. فشلت محاولات المدير في إقناعها بأنّ التعليم مهمٌّ. ما هذا الهراء! أيّ تعليمٍ؟ لا خير في تعليمٍ يعتمد على الهذر والكلام الكثير، التعليم الذي منعها عن مرافقة والدها فترةً من طفولتها. أرض أمّه ونخلها أهمّ من كلّ الحماقات التي يقدّمها له ظافر وبقيّة الفارغين هنا. العمل والحركة وهواء المزرعة أفضل لصحّته.

تبعها الصبيّ. بلغا المنزل. كان واضحًا لها من نظراته أنّ ظافر قال له شيئًا سيئًا عنها أو أنّه نفّره من مساعدتها.

- فيك شي؟
- أبغى أرجع للمدرسة.
- مساعدتي أخير لك منها.
- ولا واحد من العيال طلّعته أمه من الفصل عشان النخل. التعليم والقراءة يقول الأستاذ ظا..
- صه. ايش عرّفه؟
- هو يعرف في العلوم وفي..
- ويعرف في التربية أكثر منّي؟ هو يعرف أصلا معنى أم وعائلة وأقارب؟ ليه ما يروح يزورهم أو يخلّيهم يزورونه؟
- عنده عايلة بس..

- قلعته، لا بارك الله فيه. ولا عاد تجيب طاريه عندي. غيّر ثوبك ويالله بنروح النخل.

بعد عودتهم من النخل، أوصلت الصبيّ إلى بيت عيسى. طرقت الباب ودخلت. لم يكن الشيخ بالمنزل. وجدت حمود. كان وجهه أكثر سُمرةً من وجه أخيه، مليئًا بالتجاعيد البشعة. أشارت إلى ماء زمزم الذي لم يبدُ عليه أنّه تحرّك منذ تركه فرج.

- ما خذا عيسى الماء؟

- هو ماء؟ ما عرفنا ايش سالفته! نزله الرجال وقال إنه منك وراح، ما عرف عيسى ايش فيه فخلّاه لين تجين.

- ماء زمزم، يمكن علاج الصبي يكون فيه.

- تشمّين ريحة دخان؟

- لا. خبّر أخوك يستخدم زمزم كله على الصبي.

- أحلف بالله إني أشم شيء محترق. فيني بلاء! قبل ساعة تهيأ لي أني سمعت صياح بعيد، والحين أشم دخان! شكل حليب الغنم ما يصلح لي ولعب في راسي.

لم تعلّق على هذيانه. ورغم امتنانها له لأنّه أنقذ الصبيّ متناسيًا ضخامة كرشه وكبر سنّه فإنّها كانت تمقته. كيف يترك رجلٌ بيته باختياره؟! وحدهم الرجال يفعلون ذلك، والحمقى منهم يهاجرون بعيدًا.

لم يحضر الصبيّ إلى المزرعة في الصباح كما أوصته. ذهبت غاضبةً إلى المدرسة. وجدتها فارغةً من الطلّاب. تبعت همهماتٍ ولغطًا جهةَ

مكتب المدير. رأت هالاتٍ من السواد وبقايا دخانٍ يغطّي بابًا غير بعيدٍ. سألت معلّمًا يسترق السمع إلى الحوار الذي يجريه المدير مع الرجال، فردّ بسؤال:

- ايش بغيتي يا أم غيث؟

- ايش صاير؟ ما لقيت غيث ولا العيال في الفصل.

- رجّعنا كلّ الطلاب لبيوتهم لين يخلص موضوع الحريق.

تابعت أصبعه بنظرها وهو يشير نحو الباب الذي تركت ألسنة النار ظلالَها السوداء عليه. انشغل الرجل بالتركيز في ما كان يقال داخل المكتب.

ظنّت أن عيسى سيكون كعادته خارج القرية في هذا الوقت، لكنّها سمعت ترحيبه بها عندما دخلت منزله. لاحظت أنّ قربة ماء زمزم لم تعد بجانب الباب. سألته عن الولد. أشار إلى غرفةٍ صغيرةٍ وخاطبها وهو يمدّ القهوة لأخيه:

- سبحان الله، ماء زمزم بركة، لكن صار شي ما عملت حسابه.

انتظر وبه أملٌ في أن تسأله تيماء عمّا حدث. لم تفعل. اكتفت بالصمت والنظر نحو الغرفة فأكمل:

- قرأت المعوّذتين وتبارك وأوّل ياسين وآية الكرسي، ثم نفثت في زمزم. وشرّبت الولد منه، مسحت على كل جسمه بيدي، ما خلّيت شي، آباطه وداخل أذنيه وسرّه، وحتى محاشمه خلّيته هو يمسح عليها بالماء. ما طوّل، قام يصايح كأني حطّيت نار ما حطّيت ماء! احمرّ جسمه وقام ينتفض من الحمّى ويتقلّب

من الوجع ويشاهق. سمّيت عليه وتعوّذت من الشيطان، وجلست أذكر الله وبعد فترة طويلة حسّيت انه ارتاح مع الصلاة على النبي، قمت أكثر من الصلاة والسلام على رسول الله اللهم صلّ وسلّم عليه وكأنه صار أحسن.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، والحين وشلونه.

- طيّب.

- ودّي آخذه معي المزرعة.

- مزرعة؟ الولد تعبان ما يقدر يمشي.

- تقول طيّب!

- هو أحسن وطيّب من بعد ما جاءه البارحة، لكنه ما يقدر يشتغل ولا يتحرّك، خلّيه يرتاح، الولد شاف الموت.

صمتت ولم تردّ. خاطبها عيسى بجدّية وهو يبطئ في كلامه.

- علاج الولد ما هو هنا يا بنت سالم، ودّيه الساحل لطبيب الحكومة.

- ما لك لوا.

- بأودّيه بنفسي وبيفحصونه يمكن معه مرض ما نعرفه.

- لا.

- تبّينه يموت عندي هنا؟ اذكري الله.

نهضت واستوت واقفةً. ردّت بحزمٍ وهي تنظر مباشرةً في عيني حمود.

- البحر عليّ وعليه حرام.

- بآخذه أنا بنفسي، لا تروحين. أنت ما تسمعين؟

سأل عيسى سؤاله الأخير بعدما رآها تغادر. جاءه ردّها واضحًا وحازمًا دون أن تلتفت:

- أنت اللّي ما يسمع.

أيّام الغرس مرّت. لم تلتقِ فيها سوى الرجلين الذين أحضرهما فرج. وكان منامهما وعملهما في المزرعة. أكسبها تقديمها الفطور والغداء ودّهما وسهّل عليها الحصول على إجاباتٍ لأسئلتها غير المنتهية عن الحرث والزراعة وأفضل أوقات الريّ. تجاهلت ابتساماتهما وهما يسمعانها تسأل عن الصّرام. نعم سأصرم النخل وأجني رطبه وتمره بنفسي أيّها الحمقى. لم تكن أسئلتها قد انتهت عندما أخبراها بأنّ عملهما أنجز وأنّهما سيغادران. خاطبت أكبرهما سنًّا راجيةً أن يقضيا ليلتهما الأخيرة في مجهرة. ضحك الآخر معلّقًا: لا شيء يحدث في مجهرة. وأخبراها بأنّهما في شوقٍ إلى أجمل ديار الأرض: موارية!

- ايش فيها موارية؟ ارتاحوا وروّحوا لها بكرة.

- ايش فيها موارية! ايش اللّي ما فيها؟ موارية ديرة. إلا مجهرة هي اللّي ايش فيها؟

لم تزر موارية مطلقًا. سمعت الكثير عنها، قصصًا لا يصدّقها عقل. سمعت عن الجنّ والسحر والعين والنساء الجميلات والرجال الأقوياء، كما سمعت عن الساحل والمدن الكبيرة العجيبة خلف البحر، المدن التي ترتفع فيها المباني شاهقةً لتطال السحاب. لكنّها لم تصدّق

تلك الأساطير التي ينشرها الرجال عن كلّ الأماكن لتبرير رحيلهم عن قراهم وأهاليهم، ولن تصدّقها. حين يكون الرجال كالتمر الذي ينتقل من بيتٍ إلى بيتٍ ومن قرية إلى أخرى، ستكون هي النخلة التي ترسل جذورَها عميقًا في أرض أمّها متمسّكة بها مهما ارتفعت قامتها في السماء.

* * * *

- خافي الله في نفسك، ما يصير!

قالتها سويّر وهي تمسك بكفّ تيماء. كانت جافّةً، قاسيةً، يكاد جلدها ينسلخ.

نظرت تيماء إلى كفّها، بدت عاديّةً، وما إن رأت كفّ سويّر حتّى أدركت القصد. كانت كفّها ممتلئةً رطبةً لامعةً، أضافت إليها نقشة الحنّاء وغوايش الذهب الكثير من الرونق. ضحكت، وهي تسحب يدها.

أحضرت فطوم القهوة. مدّت يدها الصغيرة بفنجان إلى الضيفة.

- ما شاء الله، فطوم صارت مَرَة.

علت حمرة الخجل وجه الصبيّة وهي تسمع أمّها تجيب.

- ايه، وأبشّرك، علّمتها اليوم كيف تنقش الحناء لأخواتها.

- الله يصلحها ويبارك فيها.

- كيف الولد؟

- بغى يموت بعدما شرب وغسّل بماء زمزم. يقول عيسى إن الصبي كل ما توضأ للصلاة تعب.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!، لا، لا، الولد فيه بلاء كايد. صدقيني راكبه جنّي كافر مثل اللّي ركب مطلق يوم سبح في أم المطاليب وما خلاه إلا يوم كبر.

- ايش جاب أم المطاليب!

- الجنّي ركبه في النبّاعة، ذا النبّاعة ما دخل فيها أحد من سنين والجنّ سكنوها، جنّ كفّار جاؤوا مع العمّال الكمار اللّي صلحوا النبّاعة والري.

- اذكري الله وخلك من هالسوالف.

- كلن يدري إن النبّاعة وأم المطاليب والمغارة اللي بالجبل ومزرعة مسفر والمسجد القديم كلها فيها جنّ. بعضهم مسلم صالح وبعضهم مسلم أقشر وبعضهم كافر.

- منتي صاحية.

- ايش تفسيرك أجل لولد بغى يموت من ماء زمزم؟ ماء زمزم يشفي كل الأمراض ويجيب الله فيه كل الدعاوي، ووالله ما ينفر من ماء الكعبة هذا إلا الشياطين. يا إن اللّي في الولد شيطان أو إن الولد نفسه هو..

توقّفت تيهاء عن شرب القهوة وهي تبعد الفنجان عن فمها وتحدجها بنظرةٍ حادّةٍ. ارتبكت سويّر وتمتمت:

- ..فيه بلاء، أو إن فيه بلاء ما نعرفه.

كسرت فاطمة التوتّر بتعليقها عمّا سمعت من زميلاتها في المدرسة من أنّ الجنّ هم الذين أحرقوا مدرسة الأولاد وتسبّبوا في موت المعلّم.

لم تكن تيماء قد سمعت بموت معلّمٍ، فوجّهت سؤالها إلى سويّر:

- أحد مات في الحريق؟

- ما سمعتي؟ لقوا المدرس الغريب محترق في وحدة من الغرف، يقولون إنه كان يصبغ جدار وشب فيه الصبغ. ويقولون إن الفرشة احترقت فأحرقت الكتب وما عرف يطلع. ويقولون إنهم شاكين إن أحد دف المسكين داخل الغرفة بالقوّة وقفل الباب عليه بعدما شب النار. يعني واحد ذبحه. والله أعلم إنه مات بفعل فاعل، رجّال عزابي ومزيون جالس هالسنين لحاله، أكيد إنه مسوّي شيء، وهالشيء تسبّب بقتله، ولا ايش اللّي يخلّي مدرّس غريب يصبغ الجدران!

- ظافر؟

- ما عرف جثته إلا المدير. يقولون إنهم أرسلوا مدرّس يخبّر أهله عشان يجون ويدفنون ولدهم هنا ولّا يأخذونه لديرته، قالوا لي اسم ديرته لكني سجّيت منه، يا ايش كان اسمها!

- لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يرحمه.

- جزاك الله خير اللّي تترحمين عليه!

- وليه ما أترحّم على مسلم مات؟

- هماك كنتي تدعين عليه بالموت!

ظافر احترق! رغم كراهتها له، أحسّت بالشفقة عليه. وقبل أن تجيب، لمحت تيماء نظرة استنكارٍ في عيني فاطمة بعد عبارة أمّها الأخيرة.

- الله يرحمه ويرحم كل المسلمين، الترحّم واجب لكل الموتى، حتّى اللّي ما يستحقّون الرحمة، وأنا ما دعيت على أحد بالموت.

رفعت الفنجان الفارغ وهزّته نحو فاطمة إشارةً إليها كي تغادر.

* * * *

لم يكن العريش الذي بنته تيماء بيديها قد اكتمل بعدُ. لم يكن سقفه يحجب الشمس تمامًا. موقعه المرتفع يمكّنها من رؤية المزرعة كلّها، والأهمّ رؤية الطريق المؤدّية إليها. رأت سيّارةً جديدةً تقترب. ترجّل منها شخصان. عرفت مشية عيسى رغم تباطئه على غير العادة. لم تعرف الآخر المستدير الذي وجد مشقّةً في النزول من السيّارة. لم يقصداها رأسًا. أخذه عيسى ليتجوّل بين النخيل. لم ترتح تيماء لوجود غريبٍ في مزرعتها. بعدما مرّا على عشرات النخلات، يمّما وجهيهما شطر العريش. رحّبت بهما، واعتذرت لعدم وجود ما تضيّفهما به. بادرها عيسى بالحديث:

- ما شاء الله، قام نخلك يا بنت سالم. المبروكة مبروكة.

- الله يتمّم على خير.

- الرجال الطيب ذا يمدح نخلك.

- ما يمدح الطيب إلا الطيبين.

- عرفتيه؟

- ما عرفته.

- هذا سلطان بن هديان.

- ....

- ولد حمد بن هديبان.

- حيّاه الله.

- شكلك ما تعرفين شيوخ التمر. هو وأبوه أكبر تجار التمر في مواريه والسنوم والديار اللّي حولهم. وجاي اليوم يشوف تمر مبروكة.

- ايش يشوف؟ تو التمر، ما صرمنا.

تنحنح ابن هديبان وتحدّث بصوتٍ رفيعٍ حادٍّ لا يناسب ضخامة جسمه. وأخذ يتحدّث طويلًا أو هكذا أحسّت. تحدّث عن والده وعن دوره هو في تجارة التمر، وعن حبّه للمغامرة والتجريب. أصابها الملل. ما أقبح الرجل المهذار! طول الحديث صفةُ النساء بامتيازٍ كما تعتقد. منحه الله للنساء ليشكين حالهنّ من جور الرجال. ما بال هذا البرميل لا يسكت! أنقذها عيسى بمقاطعة الرجل: ايش بغيت من بنت سالم يا ابن هديبان؟

استغربت العرض: أن يشتري تمرها قبل صَرَامِه! وكلّ التمر! شريطة أن يحضر رجاله ليقوموا بذلك. لم تَردّ على ابن هديبان رغم إلحاحه. فهم عيسى. وقام داعيًا صاحبه إلى ترك المرأة لتفكّر وتستخير. كانت تسمعهما وهي تتأمّل الشبح الذي اقترب من باب المزرعة، امرأة تحمل صرّةً. رأت الرجلين يغادران. وقبيل ركوبهما السيّارةَ رأت عيسى يقف ويتحدّث مع المرأة ذات الصرّة. لا شكّ أنّها سويّر. لكنّ سويّر لم تزرها قطّ في المزرعة.

- حيا الله أم سرور.

- جعله مبارك، ما دريت إن النخل كثير، جعلها على اسمها، مبروكة.

بعدما تأمّلت العريش، جلست وبدأت تنظّف ما حولها. لا تنشاغل سويّر بما حولها إلّا إذا كانت تودّ قول شيء. سألتها تيماء:

- شلون الورعان؟

- طيبين، أشوف عندك عمّال. وشفت الشيخ ومعه رجّال طالعين، عسى خير.

- خير.

- متى بنيتي هالعريش؟ يا زينه، و..

- أم سرور، ايش العلم؟

صمتت سويّر قليلًا، ولم تصمت عيناها. كانتا فرحتين، خائفتين، لم تكن متأكّدةً.

- فرج، مرّني اليوم، وطلب رجعتي.

- ...

- يقول إنه غلطان ونادم. وإن له شهرين ما يفوّت ركعة في المسجد، حتّى وجهه ما شاء الله متعافي ومنوّر، ربّي هداه. تقهوى وسلّم على ورعانه، وقال اطلبي اللّي تبغين. وأنا ما أدري وأنا أختك، متردّدة.

عن أيّ تردّد تتحدّثين يا صديقتي؟ ليس في كلامك وعينيك أيّ

تردّدٍ اليوم، بل إنّك لَعلَى درجةٍ من التأكّد قلّما تصلين إليها في حياتك. لا تعلم لماذا أحسّت حينها أنّ سويّر لا يصلح لها إلّا فرج، وأنّ فرج لا يصلح إلّا لسويّر. تعرّفت على فرج وخصاله بشكل أفضل خلال الأشهر الماضية. بدا لها مختلفًا. لا شكّ أنّ عقوبة الله وحرق صاحبه قد أيقظا قلبه وجعلاه يتوب. كان يستجيب لكلّ ما تطلبه تيهاء منه. في البداية كانت تخشى أنّه يفعل ذلك ليكسبها عساها أن تقرّبه إلى سويّر زلفى. لكنّه لم يطلب شيئًا، بل لم يذكر سويّر مطلقًا. كان يمرّ بمنزلها أو مزرعتها ليسألها عمّا إذا كانت لها بالساحل أو القرى التي في طريقه حاجةٌ. وعندما تأخّر عليها يومًا ووبّخته لم يردّ. علمت أنّ شهامة آل جبر تسري في دمه.

- ما قلتي، ايش رأيك؟

- أبو عيالك ويبغى يراضيك ويعوّد لعياله. الراي لك لحالك.

هذا كلّ ما كانت سويّر تتمنّاه. وحتّى إن لم تكن واضحة، فمباركة تيهاء لعودة فرج كافيةٌ، بل ومجزيةٌ. نهضت، فجارّتها تيهاء وسارت بجانبها. وقبل وصولهما باب المزرعة، أوقفتها تيهاء وأشارت إلى نخلةٍ متوسّطة الطول. وسألت:

- تعرفين نخلة من هذي؟

- ايش دراني! ليه؟ ما هي كلها نخلاتك؟

- لا، ذيك اللّي على اليمين، الكبيرة، نخلتي.

- زين وذي اللّي سألتيني عنها؟

- نخلة فطوم.

علت ضحكة سويّر.

- حتّى فطيمان لها نخلة!

- وليه ما يكون لها نخلة! ما تقصّر، تجي وتساعد خالتها وتجلس معها. غرسناها من زمان وكان ودّي تشوفينها في جيتك الأولى.

- وأنا ما لي نخلة؟

- النخلة تبّي وحدة تخدمها وتشتغل عليها، تعالي ساعديني وأبشري.

ضحكتا وهما تصلان إلى الباب. وبعد أن تجاوزت سويّر الباب تاركةً تيماء عنده، التفتت ورفعت صوتها ليبلغ تيماء:

- إذا لك نخلة وحدة بس، ما علمتيني لمن النخل الباقي؟

- وأنتِ ما علمتيني ايش الرضاوة اللي بتطلبينها؟

لم تجب أيّ منهما على سؤال الأخرى. أومأت تيماء بيدها وعادت إلى الداخل. تخيّلت وجه أمّها، وهي تنظر إلى النخل حولها. وهمست: النخل كلّه نخلها.

* * * *

بدأت الحياة تبتسم لها. وجدت في المزرعة جنّتها. كانت تعود إلى منزلها مرهقةً، تعدّ عشاءها وتنام مبكّرًا وكلّها شوقٌ إلى الانطلاق مرّةً أخرى نحو مبروكة. أحيانًا يقطع عليها غيث روتينها بزيارةٍ من وقتٍ إلى آخر. مرّت الأيام جميلةً غير أنّ الرجال أبَوا إلّا أن يعكّروا ما هي فيه. لاحظت أنّ الماء الذي يأتي إلى المزرعة من الريّ لم يعد يصل في وقته.

ذهبت إلى مجرى الريّ. وجدت مجرى مبروكة مسدودًا وقد وُجّه الماء صوب مزرعة جارها شري. كانت قافلةً أثناء توافد الرجال إلى صلاة المغرب. لا تعلم من بدأ الصراخ، مفلح أو شري. توقّفت وسمعت منهما. لم يمهلاها الردّ. كان أحدهما يقرعها بالكلام وما إن يصمت حتّى ينطلق الآخر: «لا تحبسين الماء، لا تحبسين الماء وإلّا حبسناه عنك». هذه هي العبارة التي استقرّت في مسمعها وهي منزعجة من صراخهما العالي. رأت الرجال من حولها قد التفّوا. البعض يحاول التهدئة، والآخر يدخل المسجد متجاهلًا ما يحدث. رفعت يدها وأشارت بأصابعها كلّها إلى مفلح وشري. لا تتذكّر ما قالت، لكنّها رأتهما يدخلان المسجد غاضبين. لم يقف معها أحدٌ. خبتم، وتسمّون أنفسكم رجالًا!

زارتها سويّر مساء الإثنين. سألتها عن الذي سمعته من تلاسنٍ عند المسجد. لم تخبرها بتفاصيل، بل جرفت الحديث وغيّرت دفّته.

- مرني اليوم الصبي، وضعه ما يعجبني، الولد عنيد وما يسمع الكلام.
- يقول فرج إن ماء زمزم اللّي بالساحل بعضه مغشوش، بأجيب لك ماء زمزم من البير نفسها.
- ايش يدريك إنها من البير.
- بآخذها بنفسي.
- من وين؟
- من زمزم.
- بتروحين مكّة؟

- إيه، بنمشي الفجر، ما كنت مصدقته يوم قال إنه بيودّيني، ظنّيته مثل وعوده الثانية، لكن على قولتك، الرجّال تغيّر. بأدعي لك عند الحجر الأسود.

- ادعي لمبروكة بالماء.

- بأدعي لها ولك ووالله لآخذ بنفسي ماء من زمزم وآخذه لشيخ الحرم يقرأ عليه، ويحول الله اللّي في غيث بيتركه ويروح، لكن ودّي أخلّي فطيمان عندك، السيّارة ما تشيل كل الورعان، والشناط كثير.

- أبرك الساعات، بنتي وبأخليها تساعدني في المزرعة، لا تشيلين همها.

- جعلني ما أذوق حزنك.

رأت تيماء نظرات الفرح في وجه سويّر من قبل، لكنّ ما تراه الآن مختلفٌ. لم ترها سعيدةً هكذا مطلقًا. سمعتها تتحدّث عمّا جمعته من ملابس لأطفالها. أنساها فرح سويّر انزعاجَها من مفلح وشري وبقيّة الرجال. نامت بسلامٍ. وعندما استيقظت وصلّت الفجر كان ذهنها صافيًا، فدلّها على ما كان يجب أن تفعله منذ سنواتٍ. انطلقت إلى مزرعتها. اتجهت إلى مجرى مبروكة وقد عزمت على خوض حربٍ حاولت تفاديها مرارًا. «هين يا مطلق» همست بها وهي تغرس المِحَشّ الذي حملته في كومة الرمل بجانب مجرى الماء. غرسته حتّى غاب نصله في الثرى، تركته علامة تهديد للحمقى الذين يتجرّؤون على المساس بمبروكة وشرعاء.

(6)
رصاصة لا تلامس الأرض

لا شيء أجمل من الانطلاق حرًّا في طريقٍ صحراويٍّ، بقيادة سيّارةٍ مُلئت الساعةَ بالوقود، أمّا إذا حالفك الحظّ بزخّات مطرٍ فذاك من الجنّة.

هل أخبرتكم عن قصّة الشيخ عيد؟

كان الرجال يتندّرون بأنّ للقرية ثلاثةَ أعيادٍ، عيد الفطر ويأتي مرّةً في العام بعد شهر رمضان، وعيد (إضحِيَّة) وهو أيضًا يأتي مرّةً واحدةً في العاشر من ذي الحجّة، أمّا العيد الثالث فيصل مجهرة كلّ أربعاء عند تمام الحادية عشرة ظهرًا.

يترك عيد قريتَه كلّ أسبوعٍ متّجهًا إلى المدينة طلبًا للرزق. وكبقيّة العسكر، ينطلق فجر كلّ سبتٍ من قريته متنقّلًا من سيّارةٍ إلى أخرى وصولًا إلى المدينة التي تبعد مائتي كيلو مترٍ. وثّق السمنُ الذي يجلبه كلّ شهرٍ عُرى صداقته مع قائد الكتيبة، فسمح له بالانصراف إلى أهله مبكّرًا قبل زملائه صباح كلّ أربعاء. مع مرور الوقت تعلّم أنجع الطرق في اختيار السائقين على الطريق وتوقيت كلٍّ منهم. ينتظر حتّى التاسعة وخمسٍ وأربعين دقيقةً وقت وصول سيّارة البريد التي توصله في طريقها إلى سوق الغنم، يترجّل ويمشي دقائقَ ويجلس في انتظار

مطلق المتعافي الذي يستأنس بصحبة الشيخ عيد وحديثه. ما يعجب الشيخَ في مطلق هو أنّه لا يسرع ولا يتأخّر عن موعده البتّة.

عند تقاطع مجهرة وقُبيل انحرافه جهة الطريق المؤدّية إلى قريته، يتوقّف مطلق لينزل الشيخ عيد قبيل الحادية عشرة ظهرًا. ولأنّ ابن رويشد لا يصل لاصطحابه إلى قريتهما إلّا في الثانية عشرة فإنّ عيد لا يجد مناصًا من المشي إلى مجهرة والانتظار هناك.

تجنّبًا للحرج، وقيل لأنّ الدود في بطنه قد أرهقه، لم يكن الشيخ عيد يستجيب لأيّ دعوةٍ من دعوات الغداء التي أغرقه بها آل صميح وآل جبر. تنافس فرعا القرية في استضافته. استطاع الشيخ عيد أن يرضي آل صميح وآل جبر عبر خطّةٍ بسيطةٍ وفعّالةٍ: يصل الساعة الحادية عشرة ظهرًا إلى بيت كبير آل صميح، يحتسي القهوة وينتظر صلاة الظهر، وبعد السلام على مَن في المسجد يتّجه إلى مجلس آل جبر قبل أن يخرج لملاقاة ابن رويشد عند تقاطع القرية في تمام الثانية عشرة. وفي زيارته التالية يبدأ بآل جبر وبعد الصلاة يمرّ بآل صميح. أحبّت القرية الشيخ عيد. وجد الرجال فيه مصدرًا موثوقًا وطازجًا لأخبار المدينة والحكومة. كان يخبرهم بكلّ ما حصل منذ زيارته السابقة. ثمّ إنّهم أحبّوا فيه ملامح الطيبة والصلاح والاستقامة كاستقامة شعرات لحيته الطويلة الناعمة التي ميّزتها من بقيّة لحى الرجال المجعّدة.

كان الشيخ عيد يكرّر النظر إلى ساعة يده، فيبطئ في مشيه أو يسرع من التقاطع إلى القرية حسب موعد وصوله ليتأكّد من بلوغ بيت مضيّفه في الوقت، لا دقيقة قبل، ولا دقيقة بعد. وفي الحادية

عشرة تمامًا يدخل بقدمه اليمنى البابَ المفتوح لمجلس المضيف رافعًا صوته بالسلام. لم يُخلف الموعد مطلقًا.

وصل ذلك اليوم ودفع الباب. لم يتحرّك، حاول دفعه مرّةً أخرى. لم يطاوعه الباب المغلق! طرقه. لم يخرج له رجلٌ كالعادة، بل فتحت الباب امرأةٌ مرحّبةً به وراجيةً منه الانتظار في مجلس الرجال إلى حين إحضار القهوة. ثلاث سنواتٍ لم يتأخّر الرجال فيها عن استقباله. مرّت الدقائق طويلةً. وصل الرجل المحرَج مرحّبًا بضيفه حاملًا القهوة بيدين مبتلّتين بالماء. نهض الضيف. تصافحا، وتبادلا قبلتين في الهواء بينما كان أنفاهما يتلامسان ثلاثًا. مدّ الرجل فنجان القهوة.

- أرحب أرحب يا شيخ عيد.

- أبقاك الله.

- المعذرة كنت في المزرعة، هذي والله الساعة المباركة اللّي تسيّر علينا فيها، زين اللّي طلّعوك لأهلك أبكر هالأسبوع.

نظر الشيخ عيد إلى ساعة يده. لم يبكّر عن موعده، لكن يبدو أنّ مضيّفه نسي قدومه فبحث عن عذرٍ. نظر مرّةً أخرى إلى ساعته وأجاب:

- يمكن بكّرت شوي.

- زين إنهم أظهروك لأهلك اليوم.

- أظهروني؟ ليه! كنت تظن إنهم بيحبسوني؟

ضحك عيد وهو يفرغ بقيّة القهوة في جوفه ويمدّ الفنجان الفارغ. لم يبتسم المضيّف، بل علّق موضّحًا:

- قصدي زين إنك طلعت اليوم وما خلّوك تداوم بكرة.

- ايش تقول؟

- اليوم الثلوث، وخلّوك تطلع لأهلك.

- اليوم الربوع.

حاول الرجل إفهام الضيف أنّ اليوم هو الثلاثاء، فواجهه عيد بابتسامةٍ عريضةٍ وبجزمٍ تامٍّ أنّ اليوم هو الأربعاء وهو الموعد الذي يصل فيه إلى القرية كلّ أسبوع. قطع نقاشهما أذان الظهر. قرّر عيد أنّ من المروءة ألّا يخبر فرع القرية الآخر بما ارتكبه مضيّفه من خطإٍ مضحكٍ جعله يغلق باب منزله أمامه. انتهى من الصلاة خلف الإمام وسبّح، هلّل ثلاثًا وثلاثين، وأدّى ركعتي السنة، ونهض كما جرت العادة للسلام على رجال المسجد. حين رأى نظرات الدهشة وسمع التعليقات حول قدومه يوم الثلاثاء لا الأربعاء، حاول إخبارهم بأنّهم مخطئون وأنّ اليوم هو الأربعاء.

- يا شيخ، بنخطيء كلنا؟

- يا جماعة، أنا جايكم من العسكر والحكومة، عندنا مواعيد وتحضير ودفاتر، كلهم يخطئون؟ أنا أعرفكم بالتواريخ، أحسب الأيام لحين روحتي لأهلي. والله العظيم إن اليوم هو الربوع.

وبعد دقائق من اللغط انقسم المصلّون إلى فريقين. فريق اقتنع بكلامه حين أقسم، وفريق آثر الصمت مجاملةً للشيخ بعد أن رأوا انفعاله. وحده شدوي رفض السكوت، ألمح إليه البعض بضرورة مجاملة الضيف. فرفع صوته:

- يا جماعة، البارحة الإثنين صلّينا العشاء، والحين نصلّي الظهر الأربعاء؟ أنتم صاحين؟ وين راح الثلوث؟

ردّ أحدهم:

- اذكر الله، يمكن لخبطنا بالحساب، الرجّال ثقة وما شفنا منه إلا الخير والعلوم الأكيدة، وهو قدّامكم يحلف ويعرف أسبوع الحكومة.

- وحنا نعرف وعندنا عقول، واللّي يقول غير هالكلام فهو جاهل أو كاذب.

انقسمت القرية، وهي أوّل مرّة لا يكون فيها الانقسام بين آل جبر وآل صميح، بل بين فريقين ضمّ كلّ منهما جزءًا من العائلتين، فريق صدّق الشيخ وفريق رفض ما جاء به. تفرّقوا بعدما غادر الشيخ عيد مسرعًا محاولًا اللحاق بابن رويشد.

هل تظنّ أنّ المشكلة انتهت؟ لقد بدأت للتوّ. عندما صلّوا الفجر بعد يومين، ظهر الخلاف مرّةً أخرى. فنصف القرية يقول إنّ اليوم هو الجمعة والنصف الآخر يصرّ على أنه الخميس. ذلك اليوم والذي يليه، ولأوّل مرّةٍ في تاريخ مجهرة، صلّت القرية صلاتي جمعة على مدى يومين متتاليين. لم يأتِ عيد في الأسبوع التالي. قال فريقٌ منهم إنّه عرف خطأه ومجانبته العقل والصواب فشعر بالخجل وآثر ألّا يُري وجهه للقرية التي أكرمته فلقيها بموقفٍ كهذا. أمّا الفريق الآخر فعلّل غيابه بأنّ الرجل إنّما شعر بالإهانة بعدما اتّهمته القرية بالكذب رغم أنّه حلف بالله وهو الذي ما عهدوا منه إلّا الصدق والصلاح.

ظلّت مجهرة تصلّي جمعتين على امتداد أربعة أسابيع حتّى أحضر أحدهم الراديو الأوّل للقرية وسمع الجميع بدهشةٍ أصوات رجالٍ ونساء تخرج من هذا الصندوق السحريّ. لا يهمّ أيّ الفريقين كان على صوابٍ. ما يهمّني هو أنّني وُلدت في تلك الفترة.

أنا فرج، ولدت يوم الجمعة، «يوم المسلمين الفضيل»، كما تقول أمّي. أو يوم السبت، «يوم اليهود»، كما يقول أبي.

* * * *

كان فرج يستخدم قصّة يوم مولده تلك معيارًا لقبول الشخص أو رفضه. إن واصل المستمع الإصغاء إليها والتفاعل معها أحبّه، وإن انصرف عنها أو أبدى مللًا منها تجاوزه. قالت له أمّه إنّه حلو اللسان منذ صغره، يأسر الحضور بحديثه. أمّا والده الذي لا يتذكّر من أيّامه إلّا القليل فكان يُسكته معاتبًا إيّاه على ثرثرةٍ لا تليق برجلٍ من آل جبر.

بعد سفر والده بحثًا عن الثراء، حرصت أمّه على حبسه في المنزل معظم الوقت. قضى سنينه الأولى داخله. حفظ كلّ جنبات البيت وتفاصيله. وعند بلوغه السابعة، أخذته أمّه في ليلة صيفٍ إلى سطح المنزل. أذهلته رؤية النجوم. حاول عدّها فنهرته. تعدّ النجوم أيّها الأخرق؟ أتودّ أن يمتلئ جسدك بالثآليل! أخبرته أمّه. أمّا السماء ونجومها فأخبرته بمدى صغر منزلهم.

بدأ يقضي معظم وقته على السطح. كان في وسعه أن يرى البيوت المجاورة والمسجد ومدخل القرية. وصارت روحه توّاقةً إلى الفضاءات الرحبة.

لا يعلم لماذا كانت النجوم جهة بيت خالته أكثر. قالت له أمّه إنّ جدّته كانت تسكن في منزل خالته قبل موتها وإنّ روحها هي ما يجذب تلك النجوم. عندما اعتدل الطقس وقرّرت الأمّ أنّ موعد النوم داخل البيت قد حان توسّل إليها بأن تدعه يواصل النوم في السطح. وافقت على طلب طفلها الوحيد. سمع أصوات القرية ومازها من بين الأصوات التي خلّفتها السيّارات وهي تعبر مجهرة.

ذات يومٍ، ساعده طوله على القفز إلى سطح خالته الملاصق لبيتهم. حَبَا متخفّيًا واقترب من جدارٍ قصيرٍ يطلّ على ساحة البيت. لم يغامر. سمع صوت نساء. قاوم الرغبة في النظر. كانت خالته تحدّث زائراتها. قصصها الجميلة لا تنتهي. ظلّ ساعةً من نهارٍ. أحبّ ما سمعه. أصبح كلّما رأى من السطح نساء يزُرن خالته يتّجه إلى بقعته تلك ويسترق السمع. أخذته تلك الحكايا إلى كلّ جنبات مجهرة وقرًى يجهلها. تجرّأ مرّةً ونزل إلى باحة منزلها عندما خرج الجميع. كان بيت خالته كبيرًا مقارنة ببيتهم. أحبّ إحساس المغامرة. أصبح يتحيّن الفرص للنزول واكتشاف المكان، يومًا في المطبخ يحاول اللعب وتقليد أمّه وهي تعدّ الطعام، ويومًا في المجلس الذي يبدو أنّه أقلّ غرف البيت متعة، مكان فارغ لا يبدو أنّ أحدًا يزوره أو يجلس على وسائده التي صفّت بمحاذاة الجدار. كانت غرفة الصغار هي المكان الأكثر إثارة، مليئة بالملابس والألعاب والأقلام والأحذية. وحدها غرفة خالته لم يجرؤ على الاقتراب منها. كان يشعر بروح جدّته فيها.

سبق أن زار المنزل مع أمّه، لكنّ زياراته السرّيّة تلك جعلته يشعر بأنّ المكان مكانه. ذات يوم أراد اللعب بقلمٍ كان قد رآه في غرفة

الصغار في آخر زياراته. نزل وخفق قلبه خوفًا عندما رآها أمامه. كانت خالته تحمل دلال القهوة وتهمّ بالخروج. نظرت إليه وهو متجمّدٌ في منتصف الدرج. لم تقل شيئًا، بل أكملت طريقها. كان هذا كافيًا ليعلم أنّ البيت يرحّب به. أصبح منزل خالته قصرًا براحًا وعالمًا جديدًا له. تجرّأ وصار ينزل ويطيل الجلوس مع خالته التي تروي له قصصًا عن القرية وماضيها. نظر من السطح إلى أحد الشيوخ عائدًا من المسجد وهو لا يصدّق أنّ هذا الذي يمشي مثقلًا كان فارسًا مغوارًا في شبابه كما قالت خالته. أخبرته أنّ والده لم يهاجر طلبًا للرزق، بل طلّق أمّه وتزوّج أرملةً في مدينةٍ بعيدةٍ. لم يهتمّ. ما دام الأب لن يعود، فلا جدوى من معرفة السبب.

دخل المدرسة في العاشرة من عمره متأخّرًا عن أقرانه. لم يحبّ الدراسة. نفر من الكتب. كره رائحة الورق. في المقابل، عشق حصّة الرياضة البدنيّة. كان أسرع الطلّاب في المدرسة. ورغم طوله الذي جاوز ما كان عليه أقرانه، لم يُسمح له بالمشاركة في مسابقة الجري السنويّة. كان يقف محاذيًا المشاركين ومتجاهلًا توبيخ المعلّمين وأوامرهم بعدم المشاركة. ينطلق معهم ليبلغ خطّ الوصول قبلهم. لم يؤثّر عليه تجاهل الجميع لانتصاراته. عندما وصل الصفّ الرابع وأصبح بإمكانه دخول المسابقة، وصل الأوّل وبلا منازعٍ وظلّ الأسرع حتّى إنهائه الصفّ السادس. شبّهه أحد الآباء الذين حضروا بصبيٍّ أسود كان أسرع ما رأته القرية من خلق الله قبل عشرات السنين.

أحبّ حفيف الهواء وهو يلامس أذنيه الصغيرتين منطلقًا في الفضاء الواسع وفي خطٍّ مستقيمٍ تاركًا العالم خلفه.

لم يعد يقف متفرّجًا على المارّة والجيران من سطحهم. اشتكت نسوة الجيران إلى أمّه نظرات الصبيّ المراهق إلى حرمات بيوتهن. عوّض السطحَ بالمشي إلى أطراف القرية. يمشي وحيدًا ليصل إلى الجبل ويمرّ بجانب المغارة منحرفًا بشكلٍ دائريٍّ. ثمّ يعود محاذيًا الطريق الإسفلتيّ قافلًا إلى القرية. يتأمّل السيّارات الداخلة إلى القرية والخارجة منها متسائلًا: من أين تأتي؟ وأين تختفي؟

رفضت أمّه طلبه تعلّم السياقة. أخبرته أنّها لن تسمح له بالمخاطرة بنفسه. بكى وحيدًا على السطح. في الصباح أتت أمّه وأخبرته أنّها ستوافق بسبب توسّط خالته التي أقنعتها بالسماح له.

- تبكي فوق السطح مثل البنات؟ فشّلتنا. رح وهات المصحف.

أحضره، ونظر إليها وهي متردّدة في ما ستسمح له به.

- احلف على القرآن أنك ما تسرع، وإن ترجع لي كل يوم، وما تتركني لحالي.

كانت أسهل أيمانٍ أقسمها في حياته. وقبل أن ينطلق مع أمّه إلى فوزان ليعلّمه السياقة، مرّا بمحاذاة منزل خالته وأقسم بداخله أنّه لن ينسى جميلها مادام حيًّا.

* * * *

في الثامنة عشرة من عمره، ولأنّه أظهر براعةً في تعلّم السياقة، كان أصغر فتيان القرية الذين امتلكوا سيّارةً. قيل إنّ ما ساعده في تحقيق مبتغاه هو أنّه وحيد أمّه المدلّل. وقيل إنّ السيّارة لم تكن في الحقيقة له، بل لوالده الذي صار غنيًّا فأرسلها إليه. وقيل إنّ فوزان أراد التقرّب

من أمّ فرج فدفع جزءًا من سعر السيّارة. أمسك بمفتاح السيّارة متأمّلًا لمعته البديعة. جذبته رموزه الأجنبيّة. مرّر سبّابته ببطءٍ على أسنان المفتاح وكأنّه يحاول حفظ تفاصيل كلّ نُتوءٍ. كيف لهذه القطعة المعدنيّة الصغيرة والجميلة أن تحرّك آلةً ضخمةً؟ سؤال شغله كثيرًا.

أصبح يوصل أمّه وخالتَه إلى المَزارع وبيوت القرية البعيدة. يتذكّر أنّه أوصل ستّ نساء وأطفالهنّ الأربعة دفعةً واحدةً خلال عزاء سالم الجبر في وفاة زوجته. كان فخورًا بالمركبة الجديدة ولم ينزعج من طلبات أمّه المتكرّرة إيصالَ نسوة القرية معها. «ما فيها شيء، هذولا خالاتك وبناتهم خواتك»، هكذا كانت تبرّر له. لم تكن تعلم أنّه يبحث عن أيّ سببٍ يجعله يمسك بدفّة القيادة.

كانت السياقة أجملَ فعل يزاوله. لا شيء يضاهي شعور الانطلاق بلا قيودٍ. أنشأ مع طريق الساحل علاقةً خاصّةً، طريقٍ طويلٍ بلا تعرّجٍ تقلّ فيه محطّات التوقّف. أصبح من مرتاديه. ووجد أنّ إيصال عمّال الشركة الكبيرة بين الساحل ومواربة مصدرُ متعته ورزقه. أصبح يعرف الساحل ومواربة جيّدًا، لكنّه يعرف الطريق بينهما أكثر. وما كان للملل أن يعرف طريقه حتّى وهو وحيد. فراديو السيّارة ونوافذها المفتوحة والهواء الذي يلفح أذنيه كافيةٌ لإسعاده. عندما مرضت سويّر ابنة خالته قبيل دخولها المدرسة انطلق بسيّارته وحيدًا نحو مواربة بعد غياب الشمس دون إخبار أمّه.

عاتبته أمّه وهو يسلّمها علاج سويّر، «مُرَّة وحِلْتِيت»، على حنثه بقسمه:

- لا عاد تعاودها وتسري بهالليل.

- الحافظ الله.

- ما ودّك تفلح وتعرس؟ تراك صرت رجّال.

- ما هنا عجلة، لاحقين.

- شف، والله لو ما تأخذ وحدة من الجماعة ترا لا أنت ولدي ولا أعرفك.

- هو به غير بنات الجماعة؟

- ما أدري عنك! نسوان الساحل ما هم من ثوبنا ولا أخلاقهم أخلاقنا.

لم يفكّر جدّيًا في فتيات الساحل قبل تحذير أمّه منهنّ. في اليوم التالي انتبه إليهنّ وإلى ملابسهنّ الضيّقة والكحل الذي يضعنه. أوقف سيّارته وأخذ يمشي في السوق. كان الزحام لذيذًا. الرجال يتحدّثون. النساء يتضاحكن. وعندما همّ بالمغادرة طلب منه رجل وزوجته إيصالهم إلى موارية. ضحكت المرأة من لهجته كما تقول. لم يفهم قصدها. أصابته ضحكتها العالية في مقتلٍ. غافل الرجل الذي جلس في المقعد الأماميّ بجانبه ليسترق النظر إليها في المقعد الخلفيّ. لم تكن كأمّه وخالته ونساء القرية. كانت متوسّطة الجمال، لكنّ جرأة عينيها سدّت النقص. أمّا التفاتاتها والنافذة المفتوحة التي تلاعبت ببرقعها كاشفةً عن نحرها تارةً وعن صدغيها تارةً أخرى فقد أرسلت إليه شعورًا غريبًا، خليطًا من اللذّة والحاجة والخوف. أدرك الآن ما يقصده الرجال بأشعارهم وغزلهم. عندما عاد إلى مجهرة، لم تعد

نسوتها خالاته ولا بناتهنّ أخواته، بدأ ينظر إليهنّ نظرته إلى مخلوقاتٍ مختلفةٍ وجميلةٍ.

قضى عشر سنوات بين القرية والساحل. زاد فيها وزنُه. لم يهتمّ بتعليقات الرجال على بروز كرشه قدر انزعاجه من تساقط شعر رأسه. قيل إنّه هواء الساحل الذي جعل كلّ البحّارة بلا شعرٍ. وقيل إنّها السجائر التي أصبحت لا تفارقه. أمّا خالته فكانت تمازحه بأنّها العنوسة وأنّه متى تزوّج وارتاح بالُه سينبت شعره من جديد. كان يردّ عليهم بأنّ الأمر غير ذي وزنٍ، لكنّه يُدير المرآة الأماميّة في كلّ صباحٍ وهو يغادر القرية ليتأكّد أنّ طاقيّته وغترته تستران ذاك التصحّر الذي يوقن أنّه كلّ ما ورثه عن أبيه.

* * * *

سمحت تلك السنوات لسائقي الساحل وباعة السوق بأن يقبلوا ذلك القرويّ. أصبح محبوبًا لدى غالبيّتهم. يضحكهم بتعليقاته. ويأسرهم بأسلوبه في سرد حكاياته. لا يتحرّج مطلقًا من المبالغة في بعض القصص بهدف إدخال السرور إلى قلوب مستمعيه. فالثور الذي هرب من صاحبه أمام فرج أصبح أكثر عدائيّةً مع كلّ مرّةٍ يروي فيها القصّة حتّى جعله ينطح الرجل انتقامًا لذبحه بقرةً كان يحبّها. وجد فيه الرجال ظُرفًا. وتندّرت النسوة باخضرار قلبه، كما يقلن، كنايةً عن حبّه للنساء والجمال. باءت كلّ محاولات تقرّبه منهنّ بالفشل. لا شكّ أنّها الصلعة اللعينة التي تأبى الاختباء تحت الطاقيّة والغترة. سمع عن زيت يُدهن به الرأسُ ويَسقي الشعرَ كما

يسقي الماء الزرع. اشتراه بثمنٍ غالٍ. خرج من محلّ العطّار متّجهًا إلى سيّارته.

لم يرَ وجهها. كانت تسير أمامه وبينهما مسافةٌ، لكنّ عطرها بلغ قلبه. حثّ السير لعلّه يقترب منها. كانت خطواتها الرشيقة وتمايلها كعود خيزرانٍ يسحبانه خلفَها بلا مقاومةٍ. شاهد الرجال الذين قدموا من الجهة المعاكسة وهم يقطعون حديثهم لتأمّلها، رجل تعثّر وسقط أرضًا وهو يلتفت نحوها بعدما تجاوزته. حتّى النسوة لم يستطعن مقاومة ما رأين. شاهد فرج أعينهنّ تنظر بدهشةٍ وإعجابٍ إلى تلك المرأة أمامه، إحداهنّ تمشي خلف زوجها كادت تأكل المرأة بعينيها الشبقتين! تبعها حتّى صارت لا تبعد عنه سوى أمتارٍ قليلةٍ. توقّفت فجأةً أمام محلٍّ. مرّ فرج بمحاذاتها. لم يتجرّأ. واصل مشيه متجاوزًا إيّاها دون النظر إليها. ليس الآن. لم يكن يودّ أن تراه حاملًا علاج الصلع معه. ما هكذا يتقرّب الرجل إلى امرأةٍ بمثل هذا الجمال. ركب فرج سيّارته وقد وقع في غرامها. لم يرَ إلّا قفاها لكنّه يعلم يقينًا أن جميلة السوق تلك هي أجمل امرأة في الدنيا.

حاول الالتزام بكلّ ما طلبه العطّار: لا أكل بعدَ وضع الزيت، ولا سهر إلى وقتٍ متأخرٍ. لم يكن العرق الشديد الذي أصابه ولا احمرار عينيه هو ما أزعجه، بل رائحة الزيت التي جعلت إحدى النساء تطلب إنزالها من السيّارة قبل وصولها إلى غايتها. صبر شهرًا كاملًا على أمل أن يجدي هذا الزيت نفعًا، لكن لا شيء نبت. ضحك درويش وهو يمدّ له الشاي في جلستهما المعتادة أمام سوق الخضار:

- الأرض بايرة، والله ما ينبتها ولا ماء موارية، راسك هو المشكلة، يبغاله مخ.

ردّ آخر:

- موارية تغيّرت ومايها قل. لكن يا فرج، ليه ما تجرّب تحكّ راسك بواحد من المفاتيح اللّي معك يمكن يظهر الشعر.

قالها الرجل وهو يشير إلى المفاتيح التي أمسكتها ميداليّةٌ صغيرةٌ بيد فرج. قهقه الرجال حتّى شَرَق أحدهم. قام فرج من مكانه مغادرًا. فحاول الرجل الاعتذار:

- لا تزعل يا رجّال، نمزح، بعدين ايش تبّي بكل هالمفاتيح؟

- هذا مفتاح موتري، وهذا مفتاح موتر عمّي، وهذا لموتر ولد عمّي، وهذي كلها الباقية للبيت.

لا يعلم لما كذب عليهم. ما الذي سيفهم هؤلاء الحمقى عن المتعة التي يجدها في تأمّل تلك المفاتيح! باستثناء مفتاح سيّارته وباب بيته، كان الباقي غنائم وجدها ملقاةً على الطريق. كيف يترك شخصٌ هذه الأشياء الصغيرة الجميلة التي تحرّك العالم وتفتح أقفالًا وتوصل الناس إلى ما أحبّوا من أماكن أو نفائس. انطلق بسيّارته مستمعًا لأجمل الأصوات: أغاني الراديو يشقّها رنين المفاتيح. كان سماعهما يعني الانطلاق والحرّيّة والفضاء. قرب مبنى الأمارة، وجد راكبًا يقصد قريته. ورأى الموديل الجديد لسيّارته.

لو استطعت الحصول على سيّارةٍ جديدةٍ كهذه فلن يصعب عليّ اجتذاب (راعية السوق) الجميلة.

طلب منه الرجل فتح النوافذ لتخرج الرائحة الكريهة. استجاب، وهو يضغط على دوّاسة الوقود ويلقي ما تبقّى من علبة زيت الرأس من النافذة. التفت إلى الرجل المتأفّف وقال: هل أخبرتك عن الثور؟

* * * *

دعا عيسى ضيوفه للقيام إلى العشاء. نهض كبار السنّ باتّجاه صحن وُضع فوقه خروفٌ كاملٌ أحاطه فلفلٌ وطماطم وليمون، ومن تحته أرز أصفر تصاعد بخارُه. لم ينهض فرج معهم. واصل الجلوس مع الفتية والصغار وبعض أقرانه. آلمه أن يرى فلاح، وهو لا يكبره بأكثر من عامٍ، ينضمّ إلى الكبار. يعلم أنّ صحنًا واحدًا لا يحتمل أكثر من خمسة عشر رجلًا. لكن لا أحد دعاه للقيام إلى الطعام. قارب الثلاثين وما يزال الرجال يرونه ذاك الصبيّ اليتيم أو كما لمز أحدهم: تربية حريم.

«وين فرج؟» قطع صوت عيسى تفكيره. طلب منه عيسى النهوض لينضمّ إلى الصفّ الأوّل في العشاء. اعتذر بارتباكٍ. لم يعذره عيسى. وعندما لم يقم، انحنى عليه وسحبه قابضًا عليه بيدٍ حديديّةٍ كادت تكسر معصمه. عندما وصل، كان الرجال يتحلّقون حول الصحن. لم يجد مكانًا. حشر نفسه بين فلاح والعجوز علي البلسي. قبل أن يستقرّ في مكانه، ارتبك وهو يسمع الشيخ يئنّ بجانبه عندما انغرس أحد المفاتيح في جنبه خلال التحامهما. نقل المفاتيح إلى الجيب الآخر وسمع عيسى يرحّب بالجميع ويطلب منهم أن يسمّوا الله ويبدؤوا عشاءهم.

لم يعتد على البدء بالأكل وهو يرى المفطح والخروف كاملًا. لم يأكل كثيرًا. اكتفى بالتأمّل. نظر إلى كبار السنّ وكلٍّ منهم مشغولٌ

بقطع اللحم وتوزيعه على من حوله. رأى عيسى واقفًا بعيني صقرٍ يدور بين حينٍ وآخر مادًّا طاسَ الماء لأحدهم دون أن يطلب منه، وطاسَ اللبن لكبار السنّ. كيف استطاع عيسى وهو الذي لا يكبره إلّا بخمس سنوات أن يحوز تقدير كلّ كبار القرية؟ هل قلّة كلامه وحدّة ملامحه وعدم تبسّمه هي السبب؟ شعر بقليلٍ من الغيرة المشوبة بإعجابٍ. انتظر حتّى كفّ غالب الرجال أيديهم علامةً على انتهائهم من الطعام. وبينما كان معهم ينتظر نهوض أكبر الحضور سنًّا لينهضوا بعده، شعر بأنّ عليه تركَ انطباعٍ جيّدٍ في تجربته الأولى مع الكبار. احتار. أيسأل أحدهم سؤالًا عن حاله؟ أيخبرهم ببعض ما شاهد في المدينة ممّا لا شكّ أنّهم سيجدونه مثيرًا للاهتمام؟ فلا أحد يخرج من القرية كلّ يومٍ للساحل مثله. بدا له الأمر مخاطرةً، لذا آثر القيام بخطوةٍ محسوبةٍ. التفت إلى علي البلسي بجانبه وسأله: شلون النخل يا بو متركْ؟ لم يردّ عليه البلسي بل واصل شرب اللبن. تنحنح محرَجًا وأعاد السؤال بصوتٍ أعلى لفت انتباه الجميع إلّا البلسي. ضحك بعض الرجال. وردّ آخر موجّهًا كلامه إلى البلسي بصوتٍ جهوريٍّ:

- علي، الصبي يسلّم عليك.
- من؟ الله يسلّمه.

أحسّ بحرارةٍ تعلو رقبته وتبلغ عينيه. ما هذا الحرج الذي أوقعت نفسك فيه أيّها الأحمق!

قام الكبير، فقام الجميع بعده. رأى فلاح وعيناه تدمعان من الضحك وهو يغادر مخبرًا الآخرين.

هذا الوعد فلاح لن يتجاوز حقيقة أنّ سويّر اختارتني دونه!

لم ينتظر فرج دوره أمام مغسلة اليدين، بل انطلق خارجًا إلى بيته. وعندما سألته أمّه عن العشاء، أخبرها بكلّ ما حصل. ردّت عليه بأنّ الصفّ الأوّل حكرٌ على الرجال. والرجل لا يصبح رجلًا إلّا إذا تزوّج.

كان يتلذّذ بسماع ما أشاعته أمّه في القرية دون قصدٍ عن مغامراته النسائيّة في الساحل. كانت تلك السمعة عزاءه الوحيد أمام فشله الذريع في اصطياد أيّ فريسةٍ. أحبّ الدور وبدأ يُذكي نار الإشاعة بتلميحاتٍ عن مدى حبّه للنساء. كان يعوّض سخريّة أهل الساحل ونسائهنّ منه باختلاق القصص لأهل القرية عن نجاحاته وعن الرحلات العجيبة التي خاضها بين القرى والمدن والنساء.

* * * *

علم فرج أنّ أمرًا جللًا وقع عندما دخلت عليه أمّه وخالته سويًّا وأغلقتا الباب وراءهما. لا شكّ أنّهما سمعتا بعض القصص التي حدّث بها بعض الفتية. كان يعلم أنّ القرية لا تكتم سرًّا. تنفّس الصعداء حين علم أنّهما أتيتا لتقنعاه بالزواج من ابنة خالته. حديث آخر عن العرس. هذا كلّ ما أرادتا؟

- اسمع وأنا خالتك، خطّاب سويّر كثروا.

- سويّر ما غيرها!

- ايه سويّر، صارت مَرَة. وتراني ما أقدر أمنع الخطّاب أكثر من كذا.

بدأت أمّه خطبةً طويلةً في محاسن الفتاة وميزة أن تكون خالته الغالية هي حماته، وما في تلاصق البيتين من فضلٍ أقلّه راحة البال خصوصًا عندما يؤخّره مشوار الساحل كما يحصل أحيانًا.

- ما عندي فلوس يمّه.
- وين راحت الفلوس اللّي تجمعها هالسنين؟
- بأشتري بها سيّارة جديدة.
- لاحقين على السيّارات، موترك زين وما فيه عازة، أعرس وتوفق وبيعينك الله على السيّارة.
- دفعت عربونها قبل أسبوع وبأستلمها بعد يومين.

نجحت خطّته. قرّر فجأةً أن يستغلّ الموقف ويشتري سيّارةً جديدةً لكي يُبعد عنه شبح الزواج قليلًا. اتّجه في يومه التالي إلى معرض السيّارات الجديدة. راعه السعر. همّ بالمغادرة، لكنّ الرجل مدّ يده بمفتاحٍ ليجرّب ركوب السيّارة بنفسه قبل المغادرة. ناداه المفتاح، فأجاب. كان المفتاح مختلفًا عن كلّ المفاتيح التي رآها، أكبر قليلًا، أسنانه أقلّ لكنّها أكثر عمقًا. وقبل أن يفتح باب السيّارة، نظر مرّةً أخرى إلى المفتاح وأسنانه. مرّر سبّابته عليها ببطءٍ. غرسها في أصبعه. أحسّ بألمٍ ولذّةٍ. لم يفتح الباب بل عاد إلى الرجل ودفع العربون.

انتشى وهو يرى درويش وبقيّة المجموعة يكادون يأكلون السيّارة الجديدة بأعينهم. كان لونها الأحمر لافتًا للنظر. ثمّ إنّ سقفها الأبيض منحَها تميّزًا لم يرَوا مثله إلّا لدى أحد المهمّين في الأمارة. عاد إلى القرية أبكر ممّا اعتاد. فليس من العدل أن يغمر الظلام أوّل

وصولٍ لهذا المخلوق الجميل إلى القرية. أكثر من إطلاق صوت المنبّه ليسمعه الصبية الذين كانوا يلعبون على جانب الطريق. مرّ إلى البيت، وأوقفها. نادى أمّه وخالته لترياها وتعلما أنّ ماله صُرف فيها. فتحت خالته الباب. وقفت. لم تغادره. أطلقت تبريكاتها. ثمّ سمعها تخاطب أحدًا خلف الباب. فجأةً أطلّت امرأةٌ لترى ما يحدث، ولم تكن ترتدي أيّ غطاءٍ. نظرت إلى السيّارة. وعندما انتبهت إلى وجود رجلٍ بجانبها فرّت إلى الداخل مغطّيةً وجهها وشعرها. «ما يقدر يشوفك»، واسْتَها خالته. كم كنت مخطئةً يا خالة! رأيتها جيّدًا. هل هذه سويّر؟ قالوا إنّها كبرت لكن لم يقولوا إنّها أصبحت امرأةً مكتملة الأنوثة. ملامح الصبيّة الصغيرة التي كان يسترق النظر إليها من فوق السطح أصبحت ملامح امرأةٍ جذّابةٍ. حدّث أمّه عنها فأكّدت له أنّ الفتاة جميلة جدًّا. وإن لم تبلغ -كما خاطب نفسه- حُسْنَ راعية السوق.

قبل أن تختفي وراء الباب، رأى الشعر الطويل جدًّا، وأحسّ بالوقت الذي استغرقه جسدها كاملًا ليختفي بعد مغادرة رأسها.

- كيف ما شفتها من قبل وهي ساكنة جنبنا؟

- ما تطلع من البيت، وإن طلعت فلبيت سالم الجبر عشان بنته رفيقتها.

لم يزر بيت سالم الجبر منذ كان يوصل المعزّيات مع أمّه. توقّف بسيّارته الكبيرة أمام البيت وانتظر لعلّ سويّر تمرّ. فلم تفعل، بل خرجت تيماء ابنة سالم. كم يخاف تلك الفتاة! فعائلتها غريبة. أمّها بكماء وخالها الأبكم دائم الصراخ عليه لسببٍ أو آخر.

نظرت إليه. لم يقل شيئًا. فغادرت. يبدو أنّها هي أيضًا سمعت عن مغامراته! يا لسذاجتكنّ أيّتها الفتيات. تتذمّرن من الرجال الفاسدين لكنّكنّ تضمرن إعجابًا خفيًّا بهم. تبعها بسيّارته، وتوقّف ليسألها عن والدها. نظر إلى عينيها. لم تكن جميلةً، بل مختلفة. نظرت إليه، وردّت باقتضابٍ أنّ أباها على ما يرام وهي تعاود السير. فشل في محاولات كسب ودّها خلال الأيّام التالية. كان يشعر بأنّها مفتاح الوصول إلى سويّر، المرأة التي ستكون طريقه إلى مكانه الدائم بين كبار القرية.

لم يبدُ على سويّر أنّها انبهرت بالسيّارة الجديدة ولا بشاربيه اللذين شذّب طرفيهما مؤخّرًا بشكلٍ يروق لفتيات الساحل، بل إنّها لم تهتمّ بالأغاني من الراديو ولا منه هو وهو يترنّم بها!

* * * *

ذات صباحٍ، وهو يسمع في سيّارته الجديدة حفيفَ هواءٍ مختلفٍ عمّا عهِده، رأى رجالًا يركّبون أعمدةً على جنبات الطريق. توقّف وسألهم. كان يشعر أنّه أصبح من مالكي الطريق التي سلكها وعرف كلّ ثناياها وحفرها ومنحنياتها. أخبروه أنّها لوحاتٌ إرشاديّةٌ. لم يفهم قصدهم. في الأيّام التالية رآها، لوحات خضراء تخبر عن المسافة المتبقّية إلى موارية والساحل!

وهل يوجد من يجهل تلك المسافة؟ مشى ووجد لوحةً أخرى عليها أسماء أربع مدنٍ والمسافات إليها. كره تلك اللوحات وأحبّها في آنٍ. فالتجديد جميل، لكنّها أشعرته بأنّ من وضعها ينتقص من معرفته بالمدن. وحدها لوحة زرقاء عليها كتابةٌ صغيرةٌ لم يستطع قراءتها

بسبب سرعة سيره وموضعها عند منخَفضٍ يستحيل على سائقٍ ماهرٍ مثله أن يبطئ من سرعته فيه. حاول أن يقرأها كلّما مرّ بها. لم يستطع. صارت هذه اللوحة الزرقاء تحدّيًا يوميًا. سيقرؤها، وإن صغرت حروفها. وسيفكّ شيفرتها كما سيفكّ شيفرة سويّر ويتزوّجها ويصبح عضوًا دائمًا في الصفّ الأوّل لولائم القرية.

«البنت تبّي تحج». لا يعلم لما قفزت جملة والدته تلك أمامه. هذا ما علق بذهنه من كلام أمّه الطويل عن أفضل السبل إلى كسب سويّر. تذكّرها وهو يقترب من اللوحة الزرقاء اللعينة. سيقرؤها هذه المرّة. ولن يخفّض سرعته التي أخافت الراكبين معه، بل سيقترب من اللوحة لتتّضح حروفُها. اصطدم بسيّارة لم يرها كانت متوقّفةً قبيل اللوحة. كاد الزجاج الأماميّ يفتح جبهتَه. نزل من السيّارة. رأى أحد الراكبين ممسكًا ذراعه ونظر إلى الآخر فإذا هو لم يُصَب بشيءٍ. تضرّر النور الأماميّ وطلاء الجانب والمرآة الجانبيّة الصغيرة. لا بأس. ما تزال السيّارة تعمل. حاول تهدئة السائق الآخر الذي أخذ يسبّ ويلعن. هدأ الآخر وهو يرى سيّارته لم تتضرّر كثيرًا. وقف مطلقًا لعناته على هذا الغشيم الذي لا يعرف القيادة. غشيم! كيف يجرؤ على وصفي بذلك وأنا خير من قاد على طريق الساحل؟ كلّ الرجال تسبّبوا في حوادث سيرٍ، بل والكثير منها، أنا الوحيد الماهر الذي لم يصطدم بأحدٍ قطُّ، غير هذه المرّة طبعًا.

رفض الراكبان العودة إلى الركوب معه. وانضمّا إلى السائق الآخر في ذمّ طريقة قيادته وسرعته الجنونيّة. وبينما هو يتأمّل الدخان الذي

تركته سيّارة خصمه وهي تغادر حاملةً معها الراكبين ونصيبَه من الكرامة ذلك اليوم، عاد إلى سيّارته وأدار المرآة الأماميّة ليتفحّص الجرح الذي أصاب جبهته. انتبه إلى اللوحة الزرقاء وقربه الشديد منها. كانت أحرفها واضحةً هذه المرّة. قرأ أحرفها الصغيرة بوضوحٍ وغادر. أوقف السيّارة بعيدًا عن مكانها المعتاد تجنّبًا لتشفّي دريويش ورفاقه، لكن لا شيء يخفى في الساحل. لقد عرف الرجال الخبر قبل وصوله هو.

- كيف ما ندري! المواتر الحمراء التي يسوقها غشيان قليلة.

قالها دريويش مجيبًا على سؤاله حين علم بالأمر.

- الغشيم والله هو الذي نقز في وجهي، الله ستر، لو ما لقّيت في آخر لحظة كان من صيد أمس.

عاد إلى القرية ليقضي نهاره فيها. فهذا اليوم لا يصلح للعمل. اتّجه إلى عيسى في مزرعته. استسلف منه مالًا لإصلاح السيّارة. وعده خيرًا وطلب منه أن ينتظره في الخارج ريثما يصلّي العصر.

ما أنبلك يا شيخ عيسى. لم تنظر إليّ نظرةً مختلفةً بسبب تفريطي في الصلوات بالمسجد ولا نظرت إليّ مطلقًا كما ينظر المرء إلى فاسدٍ. لن أنسى وقوفك إلى جانبي، كما لن أنسى أنّك مَن أدخلني زمرة «رجال القرية الكبار» للمرّة الأولى في منزلك.

لم يخبر أمّه أنّه كان في السيّارة وقت الحادث، بل حدّثها بأنّ شقيًّا اصطدم بها وهي رابضةٌ. أوقف السيّارة أمام المسجد. ودخله مبكّرًا على غير العادة. لم يكن بالمسجد سوى أربعة من الشيوخ. عندما أقام

صالح الصلاة رأى عيسى يتقدّم بهدوءٍ وفي يمينه سواك. التفت عيسى ورمق الصبية الذين بدؤوا يدخلون المسجد. ثم كبّر. عندما سلّم الإمام، انتظر فرج ولم ينصرف. حرص على أن يراه عيسى وهو يقوم بالتهليل والتكبير والتسبيح ثلاثًا وثلاثين. خارج المسجد، ركب معه عيسى وانطلقا إلى منزل الشيخ. أحضر الشيخ عيسى القهوة وتحدّثا وضحكا. ما أجمل حديثك يا شيخ عيسى! شهامتك هي ما جعلني آتيك لأريق ماء وجهي وأستسلف منك، وهو ما لم أفعله مع أيّ واحدٍ من جماعتي.

رأى الرجال يجيئون إلى عيسى واحدًا تلو آخر. هذا للسلام، وذاك ليسأل عن علاج حكّة أرهقت يديه. انتهز عيسى دقائق خَلَا فيها المجلس لهما، فدخل غرفةً وعاد وهو يمدّ يده بالمال الذي لفّه في خرقةٍ صغيرةٍ.

- سم يا فرج، أعرف إنك بتردها لكن لا تضغط على نفسك، لك ست شهور، والمية بمية وعشرة.

الشيخ لم يكن جشعًا كالآخرين الذين يطلبون فوق المائة عشرين، بل هو مؤمنٌ يخاف الله ويبتغي الأجر. سأعيدها إليك وأقسم أن أزيدها لو استطعت.

رغم حصوله على المال، أحسّ فرج بغصّةٍ وهو يستدين للمرّة الأولى. مشى بهدوءٍ في القرية وتوقّف بجانب المسجد وهو يرى الرجال والنساء يتوقّفون عنده في غير وقت صلاةٍ. رأى الأبكم ابن سالم فوق المنارة. زاد لغطُ الحضور وتباينت ردودهم ما بين ساخرٍ

ومتعاطفٍ. توقّف فرج ليتفرّج. أمر أحدهم بعض الرجال بأن يصعدوا لإنزاله. وبينما كان الرجال يفعلون ذلك، صمت الأبكم ونظر إلى الجموع من تحته بعينين حمراوين. ثمّ رفع يديه بمحاذاة أذنيه وأطلق صيحاتٍ طويلةً كما لو أنّه يؤذّن للصلاة. قطع الأبكم صيحاته وهو يحاول مقاومة الرجال الذين حاولوا تهدئته. بدأ يردّ عليهم بعنفٍ لم يعهدوه منه. وأخذ يصرخ ويشير نحو الغرب. أنزله الرجال. لمح فرج شبح فتاةٍ من بعيدٍ. عرف ذلك الجسد. انطلق بالسيّارة تاركًا الأبكم والحشدَ. توقّف بجانب سويّر متمنيًا ألّا تلحظ الجانب الآخر المعطوب من السيّارة. هذه المرّة لن يفشل. يعلم أنّها تودّ الحجّ، لذا أخبرها كذبًا عن رحلاته إلى مكّة التي لم يرَها. لم تقل شيئًا. يبدو أنّ كذبته لم تنجح وأنّ الفتاة فقدت الاهتمام به كما فقدت الاهتمام بالحجّ. أين أنت يا راعية السوق؟

* * * *

هل أخبرتكم عن الميّت الذي حملته بسيّارتي؟

تجنّبًا للتعليقات الساخرة من دريويش ورفاقه، حرّف فرج دفّة الحديث ليخبرهم عن الأبكم وما حصل في المسجد. وجدوا الأبكم ميتًا في فراشه بعدها بليلتين! هل مات أم قتله أحدٌ؟ هل كان يحذّر القرية من شرٍّ مستطيرٍ آتٍ من جهة الغرب التي كان يشير إليها؟ قال البعض إنّه جُنّ. وقال بعض العارفين إنّ الله أراه الملائكة، كما أراها أختَه. فلم يحتمل ما رأى. أمّا أنا فأعلم أنّ الجنّ آذوه كما آذوا أهله، فلجأ إلى بيت الله وحاول ألّا يغادره لكنّ الجهل جعل الرجال

يخرجونه قسرًا فتمكّن الجنّ منه ودقّوا عنقَه. لو لم يطلب منّي عيسى حمل جسده إلى المقبرة لما فعلت. هل شمّ أحدكم رائحة ميّت من قبل؟ لا! كم أنتم محظوظون.

تقرّب فرج من درويش رغم سلاطة لسانه ولذعة تعليقاته، لكنّه يعلم أنّه سيفتح له آفاقًا جديدة ولا سيّما أنّه أثناء غيابه أوكل إليه مرّاتٍ عديدةً الجلوس مكانه في صدر الجلسة والإشراف على القهوة والترحيب بالسائقين الجدد. لتلك الجلسة المجاورة لسوق الخضار ميزةٌ هامّةٌ وهي أنّه لا بدّ لجميع أعيان الساحل وزوّار السوق أن يعبروا قربها.

أصبح العمل في الساحل أصعب. البنزين يستهلك نصف ما يجنيه. وثمّة عرباتٌ جديدةٌ أصغر حجمًا تنطلق ما بين الساحل وموارية سرقت بعض زبائن آثروا انضباط مواعيدها على سرعة الوصول التي كان فرج يغريهم بها.

لم يعد الساحل كما كان! صار يرحّب بالغرباء الذين تكاثروا وزاحموا أهله. حتّى زبائنه الذين يعرفهم لم يعد يراهم كثيرًا. قيل إنّ بعضهم أصابه الغنى من وظيفته فاشتروا سيّاراتهم الخاصّة. وقيل إنّ بعضهم كبر ولم يعد قادرًا على العمل. أمّا الجيل الجديد من الموظّفين فآثر استخدام حافلاتٍ وفّرتها لهم الشركة بالمجّان.

بعد انتقال درويش إلى موارية والعمل في الشركة الكبيرة، أوكل إلى سائقٍ، لا يطيق فرج، مهمّة الإشراف على الجلسة والقهوة. أصبح اسم فرج جاذبًا للتعليقات الساخرة ومحطّ اللمز. لم يمض شهرٌ حتّى

صار يعمل على الطريق طوال الوقت. لم يعد الساحل كما كان لكنّه ما يزال أكثر أُنسًا من مجهرة. أصبحت الوحدة تسري ببطءٍ في عروقه. مجهرة تصيبه بالملل والساحلُ تنكّر له. وحدها الطريق بقيت كما هي، مهربًا وملجأً له ولأفكاره التي يسبح فيها. وعندما فقد بعض الرجال عقولهم ولم يعودوا يفضّلون سماع أحاديثه، كان يلجأ إلى الراديو والأغاني التي تلامس شغاف قلبه. أحبّ كلّ أولئك النساء اللواتي سمع عنهنّ في الأغاني. كان يعلم أنّه يحبّهنّ وأنّه سيجد يومًا مّا المرأة الأجمل، راعية السوق. قد لا يعلم من هي الآن لكن لا يهمّ. سيصل ما دام منطلقًا. يعلم أنّه مصابٌ بامرأةٍ ويعشقها بكلّ قلبه، لكنّه لا يعرفها بعد. وهل يضرّ الرصاصة المنطلقة ألّا تعرف مُستقرَّها؟

* * * *

لم يعد الساحل كما كان. وراعية السوق لم تعد إلى الظهور رغم بحثه الدؤوب عنها في كلّ الأزقّة. أصبح ينطلق في الطريق من دون زبائن. لا شيء يغريه مثل قضاء النهار في طريق الساحل منطلقًا نحو سرابٍ لا يودّ الوصول إليه. أمّا أمسيات مجهرة فكان يكتفي فيها بجسد سويّر الدافئ لتبرير جلوسه في القرية أوّلَ عهده بالزواج. أمّا الآن فلا شيء يحدث في مجهرة. لم تكن سويّر كفتيات الساحل اللاتي تمنّى. كانت لطيفةً وقنوعةً وحريصةً على نظافة بيتها وفراشها. وعندما جاءت طفلتها الأولى رأى فيها أمًّا حنونًا، لكنّها تغيّرت. لم تعد تصدّق قصصه التي يرويها، بل إنّها تجرّأت ذات يوم على التشكيك في قصّة حكتها أمّها! أصبحت سويّر مملّةً هي أيضًا. لا حديث لها سوى

الأطفال ومكّة. وكأنّي أستطيع ترك العمل أسبوعًا كاملًا والذهاب للعمرة! لم تتوقّف عن ترديد اسم مكّة إلّا في أشهر حملها الأخيرة. كيف أُقنعها بأنّه لا يذهب إلى مكّة إلّا مَن اكتفى من الذنوب؟

حرص على جعلها حاملًا أو مرضعةً طوال الوقت. وحدَه حملُها يجعله حرًّا. وهو وحده يذكّره بأنّ امرأةً واحدةً لا تكفيه ولا سيّما إذا لم تكن راعية السوق.

صبر على تلميحاتها التي تحاول الحطّ من شأنه، لكن عندما بلغت بها الوقاحة حدّ مدّ يدها وصفعه أمام ابنتهما الكبرى، علم أنّه لا مستقبل له مع سويّر، ولا أيّ امرأةٍ مملّةٍ يشغلها المقصد عن الطريق.

* * * *

مجهرة؟ سأل زبونه الجديد باستغرابٍ، لا لأنّه لم يسبق لأحدٍ من ركّاب الساحل طلبُ الذهاب إلى قريته، بل لأنّه لم يكن يتصوّر أن يعرف هذا الشابّ الغريب قريتَه. وحدهم كبار السنّ، بل بعضهم فقط، سمعوا عنها. تردّد في قبول المشوار. فالوقت ما يزال مبكّرًا على العودة إلى القرية. لكنّ الشابّ اللطيف أظهر إصرارًا عجيبًا. كان الغريب يصغره بعشرين عامًا على الأقلّ، هكذا فكّر. فتح الراديو تاركًا مذيع الأخبار يؤنسهما في الطريق. كان الشابّ صموتًا، لكنّ فرج استطاع لفتَ انتباهه عندما أخبره أنّ مجهرة قريتُه. أطفأ الشابّ الراديو وانهال بأسئلته عن مجهرة. شابّ من الساحل يعرف مجهرة ويسأل عن تاريخها وأهلها؟ بل ويعرف بعض القصص عنها! يظهر احترامه وإعجابه بها؟ والأهمّ أنّه أظهر اهتمامه بالحديث معي، ولم

يسأل عن موعد الوصول كما يفعل غيره. علم أنّه المعلّم الجديد في المدرسة. ورآه بعد أيامٍ بجانبها. فتوقّف وتجاذب معه أطراف الحديث وعلم أنّه يسكن في المدرسة نفسها. بدأ يختلق الأعذار لزيارته والحديث معه.

كان ظافر مختلفًا. وجد في حديثه ثقافة الساحل ومعرفةً تتجاوز شبابه. وعندما أخذه إلى سطح المدرسة ذات مساء ليدخّنا سويًّا ونزل ليحضر الشاي، جلس فرج وحيدًا يتأمّل النجوم. قفزت به نجمة عابرةٌ إلى ليالي الطفولة. وقف ومشى نحو الجدار القصير. ليس للمدرسة جيران. لم يجد أحدًا يشتكي إليه أو يتذمّر من حبّه للنجوم.

أصبحت ليالي الشاي والسجائر مع المعلّم هي الفترات التي ينسى فيها حياته المملّة بمجهرة. كانت ليالي يملؤها الحديث مع شابٍّ لا ينظر إليه نظرةً سيّئةً كما يفعل الآخرون، صاحب يحبّه ويحبّ قصصه عن رجال مجهرة ونسائها، عن الساحل والطريق. أدب المعلّم الشابّ وعدم تعليقه لم يمنعا فرج عن مواصلة وصفه الفاحش لنساء اختلق رؤيتهنّ. لا شكّ أنّ ظافر الأعزب يستأنس في وحدته بتلك الأحاديث ولا سيّما أنّه من الساحل. وجد فرج في سطح المدرسة ملاذًا ومتنفّسًا عندما يحتدم الخلاف بينه وبين زوجةٍ لا تفهمه.

بعدما دفن أمّه، انفجر غضبًا في وجه سويّر، إذ تناست حزنه عليها واقترحت أن يذهبا معًا للعمرة والدعاء للفقيدة. حتّى في أسوإ أوقاتي لا تفكّر إلّا في ما يرهقني ويكدّر مزاجي. «اللّي ما تحترم أمّها وخالتها

ما أنتظر منها تحترمني»، هكذا علّل لظافر هجرَه لها ذات مساءٍ. هل تعلم يا ظافر أنّني طلّقتها مرّتين وأخبرني الشيخ عيسى أنّها لو طُلّقت مرّةً أخرى لما أجاز الشرع عودتها إليّ إلّا إذا تزوّجت غيري. لن أمنح هذا البؤس لغيري. ولن أشرّد أطفالي، لذلك عصفت المشاكل بنا عشر سنوات أو يزيد. وكلّما أحسست بأنّ صبري نفد أهجُرها وأنام في المجلس أيّامًا.

لم يخبره فرج أنّ إحدى نوبات الهجر تلك قد تجاوزت الثمانية أشهرٍ، تركت له فيها سويّر وأطفالها البيت رغمًا عنه. كان يودّ بقاءهم على أن يغادر هو البيت، لكنّها رفضت. لم يعلّق ظافر. صرف الحديث إلى موضوعٍ آخر عن الحقول وأم المطاليب. وحدَه ظافر يراعي مشاعري ويتجنّب الحديث الذي يزعجني. كم أثق في عقل هذا الشابّ المتعلّم. أقسَم لظافر، وهو يستلم الشاي منه، أنّ باستطاعته الزواج من أيّ امرأةٍ في مجهرة كلّها، بل وفي الساحل، وأنّه سيأتي بضرّةٍ لتلك المرأة التي لم يصبر عليها إلّا بسبب صغارها ووفاءً لعهده السرّيّ لخالته العجوز. وقام قبيل الفجر.

– لا تروح، كمّل سوالفك.

– أنت ما وراك مدرسة بكرة، لكن أنا وراي طريق.

– لحظة، لا تروح، عندي شيء بأعطيك اياه.

نزلا. وبينما كان فرج يطفئ سيجارته بجانب الباب الخارجيّ، رأى يد ظافر تمتدّ إليه ولمح لمعانًا.

– لقيتها في صندوق بالمكتبة وحسّيت أن شكلها يعجبك.

أخذ فرج ما بيده، وتوجّه إلى سيّارته. أشعل المحرّك وترجّل. وقف على الجانب الأيسر من السيّارة. مدّ يده أمام الضوء ليراها بوضوحٍ. كان عددها ثلاثة أصاب الصدأ أكبرها. وكان الثاني في حالٍ جيّدةٍ وعليه نُقِش رأس كلبٍ. أمّا الثالث فكان أصفر اللون وبشكلٍ مثلّثٍ غريبٍ لم يرَ مثله من قبل. وحدَه ظافر لا ينظر إليه بسخريّة. وحده يعلم ما تستطيع تلك المفاتيح صنعه. ربّما لأنّ ظافر رأى بنفسه أنّ أحد تلك المفاتيح التي جمعتها طوال السنين استطاع فتحَ باب سيّارة مدير المدرسة عندما أقفل الباب على مفتاحه. رأى تعجُّب المدير وهو يعيد فتح الباب مرّة أخرى وثالثةً. وعندما أخبره المدير المذهول بأنّ مفتاح فرج كان أكثر سلاسةً من المفتاح الأصليّ، ترك له فرج المفتاح هديةً. لا الزوجات الساذجات ولا سائقو الساحل يفهمون ما تستطيع مفاتيح فرج صنعه. وحدَهم متعلّمو المدارس يفقهون ذلك.

* * * *

تأمّل الرجال الذين حضروا وليمةً أقامها عيسى لقدوم أخيه الكبير. لم يكن فرج قد عرفه عندما توقّف ليقلّه عند مدخل القرية. وعندما شاهده ينزل ويختفي وسط الحشود عند النبّاعة، انتظر قليلًا وبحث عنه فلم يجده. سمع أحدهم يحمد الله على نجاة ابن تيماء من الغرق! معظم الحضور لم يكونوا قد علموا بعد. ثمّ بدؤوا يثنون على حمود من غير سببٍ واضحٍ ويسألونه عن سفره ورحلاته فلا يجيب بوضوحٍ، بل بسعالٍ وكلماتٍ مبهَمةٍ.

لم يتكلّم كثيرًا. اكتفى بالميل تابعًا كرشه الضخم، كسفينةٍ مهترئةٍ لفظها البحر على الشاطئ وظلّ موجُهُ يشاكسها. هذا هو الذي ترك أباه وأخاه وأهلَه ولم يلتفت وراءه! هذا هو الذي كانت أمّي تخيفني به! لا يبدو عليه أنّه عانى شيئًا. لم يتعشَّ الضيف مع الرجال، بل دخل غرفة عيسى الذي انحنى بسكّين في يده ليرسم خطوطًا خمسةً عموديّةً في طهر المفطّح مُتبعًا إيّاها بخطوطٍ أفقيّةٍ أكثر عددًا تقطع تلك الأولى وهو يعتذر عن انصراف أخيه بسبب التعب.

إذا كان حمود متعَبًا كما يقول فكيف استطاع التعرّف إليّ عندما انحنيت لأقبّل أنفه؟ لم أعرفه، ولم أعرّف بنفسي عندما أوصلته ذلك النهار. لا شكّ أنّ رفيقه الجنّيّ الذي حدّثونا عنه دلّه عليّ. عاد فرج إلى بيته الذي هجرته سويّر وأطفالها منذ أشهر. أحسّ للمرّة الأولى بوحشة المكان. لماذا أطعتها وبنيته هنا في الخلاء؟ هل سينتهي بي الحال كحمود؟ وأين رفيقي أنا من الجنّ؟ ظلّ يحدّق في السقف حتّى غلبه النوم.

في منتصف الطريق، وهو يستمع للراديو، أصابه الملل. نظر إلى المرآة. منابت شعيرات بيضاء في ذقنه نبّهته إلى أنّه لم يحلق منذ أيّام. لا يعلم كم أوصل من زبائن. عاد مبكّرًا وهو يشعر بكآبةٍ لا تليق إلّا بمواليد يوم السبت مثله.

تردّد في مفاتحة ظافر والفضفضة له. كان يحبّ صمت ظافر وإنصاته وهذا ما أقلقه الليلة. أيخبره أنّه حائر؟ راعية السوق لم تعد. ولم يجد زوجةً جديدةً. وطريق الساحل فقَد السلوى. بدأ بوصف ما

يعجبه في النساء وأخبره عن عشاء عيسى وعودة حمود بعد هجرةٍ استمرّت أربعين سنةً أو يزيد. بدا له أنّ قصّة حمود تناسب ذلك المساء فأخذ يخبر ظافر عنه. في حمود شبهٌ من ظافر، كلاهما غريبان. وهو يشبه فرج من ناحية أخرى، فكلاهما قضّيا حياتيهما مرتحلين وإن اختلفت المراكب. عندما رأى ظافر صامتًا ينظر إلى الشاي بيده ويهزّ رأسه كمن لا يصدّق ما سمع، شعر أنّ وقت المقدّمات انتهى. هذا الرجل يفهمني. يعلم أنّ لديّ شيئًا مّا يعتمل في صدري. بدأ يسرّ إليه ويخبره بأنّه تعب من الطريق وحيدًا وأنّ بحثه لم يتوقّف عن المرأة المثاليّة التي يتمنّى وأنّه يودّ الاستقرار. قاطعه ظافر بالوقوف فجأةً. نظر إليه كأنّه يقول: توقّف عن هذا الكلام العقيم.

يسافر الرجل ويمضي بعيدًا، لكنّه لا بدّ أن يعود، البديهيّ هو أن يعود الرجل إلى بيته وبيت أهله، المحظوظ هو من أدرك ذلك مبكّرًا. قالها ظافر ونزل من سطح المدرسة تاركًا إيّاه وحيدًا.

أعود إلى بيتي؟ إلى سويّر!

عاد إلى البيت وحيدًا. نهض، وفعل ما لم يفعله منذ سنواتٍ. اتّجه إلى غرفة الصغار. رأى حذاء فطوم موضوعًا بعنايةٍ جانب السجّادة. تحسّس السرير الصغير الذي استقبل كلّ أطفاله خلال سنواتهم الأولى. ذهب إلى غرفة نومه. وبدأ يفتح الأدراج. لم تكن فيها ثيابٌ، بل بعض بقايا أدوات الزينة. يبدو أنّ سويّر قد رغبت عنه ولم تترك وراءها علامةَ رجوعٍ. فتح خزانة ملابس سويّر. كانت فارغةً. وقف أمام المرآة. التفت إلى السرير. وعندما لامس خدُّه الوسادةَ تسلّلت إليه

رائحة سويّر ضعيفةً لا تكاد تشمّ، لكنّها كانت كافيةً لتفتح عينيه على الدموع والحقيقة التي رآها طوال عمره غير أنّه تعامى عنها. حقيقة حاصرته يومين لم يغادر فيهما البيت. كيف لشابٍّ يصغرني ولم يتزوّج بعدُ أن يرى ما لم أره! كيف لظافر أن يُسكتني ويصارحني بأنّ وقت التخيّلات والقصص المختلقة عن نساء الساحل قد ولّى!

ذهب إلى مواريه، وأحضر صحن أرز ولحمٍ من المطعم الذي افتتح قبل فترة. تستحقّ اللحم يا ظافر، يا من فتحت عيني وأرشدتني إلى الطريق الصحيحة الوحيدة التي سأسلكها في حياتي. حاول الظهور أمام ظافر بمظهر المتماسك. وأصابته نشوة فرحٍ عندما علم أنّ ظافر يبحث عن تفسير رؤيا. سأردّ جميلك أيّها الشابّ. أقنعه بأن يقصّ رؤياه على الشيخ عيسى، لكنّ فرج تردّد أمام اشتراطه مرافقته لصلاة الجمعة. يرافقه لصلاة الجمعة؟ لم يصلِّ الجمعة منذ سنوات. ويخجل من أن يراه عيسى فيتوقّع حضوره الدائم لها، لكنّه وافق بنيّة ردّ الدَّين إلى صاحبه.

في المسجد، استغفر الله على ما أتاه في حقّ زوجته وأطفاله. وعندما ارتقى عيسى المنبر وخطب سرح فرج بأفكاره في أمر سويّر وصغارها. كان يمسك المفاتيح في جيبه لحظةَ سمع عيسى يقول في خطبته: (كونوا مفاتيح للخير توّابين لله). تحسّس أسنان المفاتيح، أحسّ بأنّ الخطبة كانت له وحده، وأنّ التوبة إنّما خلقت من أجله. بعدما انقضت الصلاة أخذ ظافر قرب الشيخ عيسى. طلب منه الشيخ أن يتركهما. ستر الله عليك أيّها التقيّ كما تستر على إخوتك. شعر بالجذل وهو يرى من بعيدٍ

ظافر يستمع إلى تفسير الشيخ. كلّ ما في حياتي اهتزّ إلّا علاقتي بهذين الرجلين اللذين لا تربطني بهما قرابة.

* * * *

دهان بهذا اللون؟ سأل نفسه وهو يمسك ورقةً انتزعها ظافر من أحد الكتب فيها خريطة أفريقيا وتأمّل اللون الأزرق الذي ملأ جوانبها. لا يفهم هذه الخرائط مطلقًا، ولا حتّى الملوّنة منها. في السوق، اتّجه إلى محلّات الدهان وبحث حتّى عثر على لون البحر في تلك الخريطة. وفي طريق العودة، اتّخذ قراره. سيذهب في المساء إلى سويّر ويطلب رضاها. عندما أنزل الدهان عصرَ الأربعاء في فناء المدرسة، أخبر ظافر بقرار عودته إلى زوجته. ومن دون مقدّماتٍ، ترك ظافر عمله في المكتبة وأقبل عليه وضمّه إلى صدره وطلب منه أن يبتهج لأنّ كلّ شيء سيتغيّر عند عودته إلى سويّر ذلك اليوم. لم يسبق أن ضمّ رجلًا في حياته. هذه ضمّة الأخ التي لم يختبرها من قبل. عاد إلى طريق الساحل. ولم ينتبه إلّا عندما مرّ بجانب اللوحة الزرقاء. واصل انطلاقه. اشترى كلّ العطور النسائيّة التي وجدها. وعندما وجد ورشة تصليح السيّارات مغلقةً قضى ليلته في الساحل للمرّة الأولى بمجلس صديقٍ قديمٍ. قبل أن يفتح مالك الورشة بابها كان فرج في انتظاره. وأثار استغرابَه ما طلبه فرج. لم يكن إصلاحَ سيّارته كعادته، بل طلب شراء تلك اللوحة التي علّقها الرجل خلف ظهره مع صور الملوك وعددٍ من السيّارات الجديدة. أخذ فرج اللوحة وانطلق إلى مجهرة.

* * * *

أخبروه أنّ النار اندلعت وأتت على كلّ شيء. رفض التصديق. ذهب بنفسه وتجاهل كلام مدير المدرسة الذي حاول منعه من دخول المكان. وجده ملقًى على الأرض، وقد غطّت جسدَه سجّادة حمراء. رفعها. كانت النار قد أكلت جسده كلّه إلّا يده اليمنى التي مُدّت أمامه. عرف تلك اليد التي لطالما صافحته وقدّمت له الشاي. سحبه المدير إلى الخارج بعدما أعاد السجّادة فوق الجسد المحروق.

- الله يرحمه، كان محبوب من كل أولياء الأمور ومن المعلمين. طلب مني أسمح له بالصبغ ورفضت، وعندي شهود على رفضي. قلت له يا ابن الحلال الصبغ الحالي زين، لكن ايش نقول. كان يومه. يده ما جاها شيء سبحان الله لقيناها تحت دولاب طاح عليها وغطاها. الله العالم الدولاب هو اللّي مسكه وما خلاه ينحاش من النار.

ذهب بنفسه إلى الساحل، وبحث عن أهل ظافر. اكتشف أنّ الفقيد لم يخبره شيئًا عن أهله. عثر بعد جهدٍ على والده وأخبره بما حصل. وعرض عليه إيصاله مجّانًا إلى مجهرة لاستلام الجثّة. عندما شاهد الوالد جسدَ ابنه، طلب دفنه في مجهرة. غسّله عيسى وصلّى عليه رجال القرية يتقدّمهم معلّموها ونفرٌ من الساحل. لم ينبس والد ظافر ببنت شفةٍ طوال طريق العودة. عندما وصلوا، وقبل أن يفتح الباب، التفت الأب إلى فرج ودعاه إلى الدخول واحتساء القهوة. اعتذر فرج وغادر.

هكذا! لا كلام، لا دموع، لا سؤال عمّا فعل ابنه في مجهرة! عاد إلى مجهرة والصمت يلفّه داخل السيّارة. تذكّر المرّة الأولى التي ركب

فيها ظافر معه على الطريق نفسها وهما متّجهين إلى مجهرة. لم يكن ظافر كوالده. كان مؤنسًا، مقبلًا على الحياة، فضوليًّا ويحبّ الحديث.

لم يعد فرج إلى زيارة المدرسة. لم يوقف سيّارته أمامها منذ رحيل ظافر. أصبح يذهب إلى الساحل ويعود فتمضي الأيّام طويلةً والليالي أطول. بعدما سلّم من صلاة الفجر، رفع يده ودعا لظافر بالرحمة ولنفسه بالهداية. ثمّ انتظر طلوعَ الشمس. انطلق إلى بيت خالته. وقف ينتظر خروج الصغار إلى المدرسة. تأمّل نافذة آل شدوي الذين لم يعد يزورهم كعهده في السابق. تذكّر أنّه كان يختلق الأعذار لزيارتهم عندما طلّق سويّر للمرّة الثانية، وأنّه كان ينتظر عودتها من بيت تيهاء ليرفع صوته بالغناء لعلّها تسمعه عبر النافذة وتحنّ وتلطف بحاله. كان يدير ظهره خجلًا منها ويطرب لخطوات قدميها حتّى إذا ما قدّر أنّها تجاوزته التفت ليشفي غليل عينيه بالنظر إليها. حينها كان يودّ استعادة زوجته وأمّ أطفاله. الآن يودّ استعادة سويّر حبيبته.

خرج الصبية. انحنى ليسهّل لهم تقبيل أنفه. لم تُلق سويّر عليه السلام رغم أنّها رأته، بل أغلقت الباب وراءها. طرقه ففتحت:

- صبحك الله بالخير يا أم سرور.

- صبحك الله بالخير.

- ما أدري ايش أقول يا أم سرور، ما ودّك نتعوّذ من الشيطان وترجعين بيتك؟

- هذا بيتي يا فرج.

- بيتك ذاك، اللّي بنيتيه، اللّي سنّعتيه، واللّي أعماني الشيطان عن شوفته وتقديره.

- ايش بغيت يا فرج؟

- بغيتك ترجعين لبيتك.

- ما طلعت منه، اللّي طلّعني منه أنت، صبرت عليك وصبرت وصبرت.

- فرج اللّي تخبرين تغيّر، راح خلاص، والله اني نادم.

- مثل المرة اللّي راحت؟ نادم؟ بتقول نادم على كل اللّي سوّيت و..

- لا. نادم على كل اللّي ما سوّيته.

- ...

لم تره يدمع أمامها من قبل، لذا صمتت وهي تراه يمسح دمعةً. وعدها بألّا يغضبها ما حَيِيت. طلبت التفكير. تركها وقد ارتاح ضميره. هل كانت عيناها بهذا الجمال طوال الوقت؟ أيّها الأحمق، ما الذي جنيته على نفسك وبيتك وأطفالك؟

حرص على أن يكون البيت نظيفًا قبيل قدومها. استيقظ ونظّف البيت. لم يتعب، ففطوم قامت بمعظم العمل عندما كانت تزور البيت في غيابه. أخرج العطورات التي اشتراها قبل مدّة من الساحل وصفّها بشكلٍ منتظمٍ على التسريحة أمام مرآة غرفة النوم. نظّف سيّارته. وعندما ركبت وأطفالها متراصّين واحدًا فوق آخر، شمّ عطرها الذي وجده في الوسادة. كان قويًّا هذه المرّة. وحرص على أن يرى ردّ فعلها

عندما دخلت غرفة نومها للمرّة الأولى. توقّفت. نظرت إلى اللوحة. ثمّ نظرت إليه. ابتسم وهو يعلّق:

- ما بغى يبيعها راعي الورشة، لكن شريتها بالغصب.

لم تردّ. أسرعت إلى إفراغ حقيبتها التي حوت ملابس كثيرةً. وضع يده على يدها ليوقف إفراغ الملابس من الحقيبة. أشار بيده الأخرى إلى الصورة.

- ما ودّك تشوفينها بعينك بدال الصور؟

نظرت إليه مشكّكة. وعادت تنظر إلى صورة الكعبة التي احتلّت صدر الجدار أمامها.

- جهّزي القهوة الفجر، ورانا مشوار طويل.

فتح عينيه صباحًا. وعى أنّه لم يكن في المجلس. وأدرك أنّه لم يكن مجرّد حلمٍ جميلٍ، بل واقعًا. ها هي سويّر تقف أمام المرآة تجدّل شعرها. وعند باب الغرفة وضعت حقيبة ملابس كبيرةً. نهض واغتسل ولبس. أخبرته أنّها ترغب في بقاء فطوم لدى تيهاء حتّى يتّسع المكان لبقيّة الصغار. لم يرفض. ولن يرفض لها طلبًا. نظر إلى نفسه في المرآة، فرأى ما رأته أمّه فيه، الرجل الطيّب الذي منحه مولده في يوم الجمعة كلّ بركات الدنيا. انطلقت السيّارة نحو بيت تيهاء ومعه فطّوم. وجدا الباب مفتوحًا كعادته. نزلت فطوم ومعها صرّة ملابس تكفيها الأيام الخمسة التي سيغيّبون فيها. وعندما عاد وأخذ سويّر والبقيّة، شاهدوا وهم يغادرون القرية امرأةً في هيئة تيهاء تمشي وفي يدها منجلٌ. ابتهجت سويّر وهي تراها من بعيدٍ. لم يخبر سويّر بما سمعه في المسجد

من خلاف تيماء ومفلح والرجال البارحة. فقد أخذ على نفسه عهدًا بألّا يعكّر مزاجها بعد اليوم. دقّ منبّه السيّارة ليلفت انتباه تيماء إلى تلويح سويّر بيدها، لكنّها لا تسمع كما يبدو. لا بأس ستعود إلى البيت وتجد فطّوم في انتظارها.

انطلقت السيّارة. فتح فرج النافذة. وبعدما سمع الحفيف، التفت فرأى سويّر سعيدةً، أغلق النافذة، استنشق عطرها وهو ينزع شماغه ويضعه على طبلون السيّارة. مضت ساعات من السعادة المحض. نظر إلى المرآة الأماميّة. لم تكن صلعته بذاك السوء، بل خيّل له أنّ الشعر بدأ ينمو.

وعند غروب شمس ذلك اليوم، على طريق مكّة، وضع يده اليسرى على المقود وهو منطلقٌ بسرعةٍ وبهجةٍ. أمسكت يمناه بيسرى سويّر وهما يستمعان لأغاني الراديو. خلف الجبال التي تباين علوّ قممها كأسنان مفتاح أنيق، لمح نجمةً بعيدةً سبقت غيرها في لفت انتباهه. ذكّرته بنجوم سطح خالته. شعر بنشوةٍ لذيذةٍ تجتاحه وهو يشاهد قطرات المطر تنزل على الزجاج الأماميّ. رأى سويّر تنظر بجذلٍ إلى قطرات الماء الصغيرة التي بدأ المطر يرسمها على أرض الإسفلت. التفتت سويّر يمينها لتتأمّل جانب الطريق. شدّه قفاها. تأمّله. وأدرك أنّه لم يره من قبل. كم كان فاتنًا، يتجاوز جمال راعية السوق. وعندما ظنّ فرج أنّ الراديو والمطر وضحكات أطفاله ورنين المفاتيح قد كوّنت الموسيقى الأجمل في الكون، بدأت سويّر تغنّي بصوتٍ فاجأته عذوبته:

ألا يا ليت من خبّر حبيبي ... ترا قلبي نسيته أمس عنده.

(7)
سؤال ولد ميّتًا

لكلّ قريةٍ مجنونُها إلّا مجهرة. كلّها مجانين، قال له عيسى يومًا وهو يضحك.

رأى غيث الرجال الذين اكتظّ بهم المجلس يقهقهون وهم يسمعون تعليقه اللاذع. للشيخ جاذبيّةٌ كبيرةٌ. فالجميع يأنسون لحضوره. ومنذ انتقل غيث للسكن معه في بيته، حلّ عيسى وأخوه حمود محلّ والده الذي لم يرَه. كان يذهب إلى المدرسة ويعود محمّلًا بإجابات الأستاذ ظافر التي يحبّها، رغم أنّها لا تشفي غليله. ويقضي بقيّة يومه مع حمود. ليلة جاءت به أمّه، سمع أنّ حمود هو من أخرجه من النبّاعة. لم يصدّق. وعندما طلب منه الشيخ المشي قليلًا، اتّجه نحو الغرفة رأسًا ليراه، وظلمة المكان تلفّه. وحتّى حين كواه عيسى مرّتين في مؤخّرة رأسه وشمّ تلك الرائحة الغريبة التي أعقبت الكيّ، رائحة الشّواط، كان يتلفّت بحثًا عن ذلك الرجل. سأل أمّه عنه فأجابت بسيلٍ من الشتائم. كيف لأمٍّ أن تقذف بتلك الكلمات السيّئة مَن أنقذ فلذةَ كبدها!

علم أنّه حمود، وهو أيضًا طاقي، الضيف الذي أولم عيسى على شرفه داعيًا رجال القرية. لم يحضر غيث تلك الوليمة بسبب

مرضه، لكنّه سمع الأولاد يتحدّثون عن الرجل الغريب، ذي الجرح العموديّ الذي توسّط خدّه الأيمن كخندقٍ حفرته نظرةٌ ساخنةٌ، هذا الرجل الذي صال وجال في كلّ البحار. غادر مجهرة شابًّا ولم يعد إليها إلّا ليخرجني من النبّاعة. لا أتذكّر أنّي غرقت، بل كنت أسبح. نعم، وكنت أسبح جيّدًا في مكانٍ لم يبلغه أيّ واحدٍ من الصبية الآخرين.

أتاحت ليالي بيت عيسى لغيث أن يتعلّم صنع القهوة ويقدّمها للضيوف. تحمل الدلّة بيُسراك لكي تتيح ليُمناك تقديم الفنجان للضيف. نعم، باليمنى فقط. فتقديمها باليسرى إهانةٌ. وحدَها اليمنى محترمةٌ ونظيفةٌ لا تلامس الخَبَثَ. وحدَها اليمنى تمدّ القهوة، تصافح الرجال في الأعراس، تمسك بالسكّين وقت نحر الأضاحي يوم العيد. وحدَها اليمنى كريمةٌ. أمّا اليسرى فلا تقترب من هذا المجد إلّا عندما تنشغل أختها ويضطرّ المرء إلى استخدام يده الأخرى لتسليم شيءٍ أو استلامه قائلًا: «يسار ما تشناك». فيردّ الضيف: «يسارك يمين». فقط عندما تتحوّل اليسرى إلى يُمنى، ولو افتراضيًّا، يكون لها حقّ فعل شيءٍ نبيلٍ. أحبّ سماع أحاديث الضيوف والمعارف التي يرويها عيسى. كان الشيخ يخبرهم عن الله والرسول وعلاج أمراضهم وقصص الآباء والأجداد. كيف استطاع معرفة كلّ تلك الأمور؟ لولا وجود الأستاذ ظافر لذهب في ظنّ غيث أنّ عيسى أعلمُ الناس. كان يجيب على كلّ الأسئلة إلّا أسئلة غيث! سأله عن سبب تسمية أخيه بطاقي فأشار إلى أخيه وقال: «اسأله بنفسك». يبدو أنّ عيسى يراه مجرّد صبيٍّ ليس كبقيّة الرجال الذين يقصدونه.

ذات ليلة، زارتهم أمّه ورفضت أن تذهب به للعلاج خلف البحر رغم توسّلات عيسى. أراد إخبار عيسى وطافي بأنّها تكره البحر، ولن تركبه حتّى لو كان فيه نجاة ابنها الوحيد. ولولا الخجل من أن ينظرا إليه نظرة المرء إلى طفلٍ، لأخبرهما بما كانت تفعله في صباه لتخيفه من السباحة. أخبرته قصّةً سرقت نوم الليل من عينيه:

- لا يصير لك اللّي صار للولد.

- أي ولد؟ ايش صار له؟

- ركب البحر مع أبوه، وغرق أبوه قدّام عيونه، وهو تعلّق بحطبة ضمّها مثلما يضمّ السرج ظهر الحصان.

- ايش صار له؟

- انجته الحطبة من الغرق، لكنها ما منعته من الطيور الجارحة، كانت تنزل على ظهره وتنهشه بمخالبها حتى نزعت اللحم عن العظم. كان يصيح ويصيح ويصيح، مرّة يدوّر عن أبوه اللّي غرق، ومرّة يصيح من الألم كل ما نهش طير لحمة من ظهره.

كان غيث يتساءل: لماذا تروي أمٌّ هذه القصص لطفلٍ في السادسة؟!

وفي مساءٍ لن يُمحى من ذاكرة الصبيّ، قال له عيسى إنّ أمّه أحضرت له ماء زمزم من مكّة وهو ما سيجعله يبرأ ممّا به.

هل يعقل أنّها تذكّرتني؟ وأحضرت هذا الماء ليشفيني؟ هل كانت تخفي حبّها لي؟

تلك الليلة، كادت روحه تفارق جسده من الحمّى. لم يسبق أن

عانى كما يعاني الآن بعدما شرب الماء وجلس متربّعًا في طشت تحته تاركًا لعيسى المجال ليصبّ على رأسه من طاسٍ صغيرٍ كان يستقبل ما تجود به الجرّة. لم يكد يجد إلى النوم سبيلًا عند الفجر. يا لحماقتي! وهل مثلها قادر على الحبّ! هل أرادت تعذيبي وإلحاق الضرر بي لأنّي لم أعد إلى البيت؟

عندما استيقظ، كان حمود بجانبه. أخبره بألّا يقلق، فلا مدرسة ذلك اليوم. علم أنّ حريقًا اندلع فيها. لم يبلغه نبأ رحيل الأستاذ ظافر إلّا بعدها بليالٍ. بكى طويلًا، ولم يتوقّف إلّا عندما نهره حمود: كن رجلًا.

لماذا منح الله الرجال دموعًا لو كان ذرفها محرّمًا؟!

بلغه أنّ عيسى هو من غسّله ودفنه وصلّى بالناس عليه في المقبرة. وجّه سؤاله إلى طاقي:

- هل كان لجثّته ريحة شواط مثل اللّي شمّيتها يوم كواني عيسي؟
- الميت له حرمته، لا تسأل.
- هو صحيح إن المحترق يروح للجنّة.
- يقول عيسى أن المحترق والمبطون والغريق شهداء وندعو له بالرحمة. يكفي أسئلة.

لا شكّ أنّ الأستاذ ظافر في الجنّة. من تحرقه نار الدنيا ستحول رحمة الله بينه وبين نار الآخرة. سمع أنّ يد المعلّم لم تحترق. قيل إنّ الله منع النار أن تمسّها بسبب خطّه الجميل الذي كان يكتب به بعض الآيات على السبورة. وقيل إنّ سبب ذلك هو صدقة السرّ التي حاول

إخفاءها. وقالت امرأةٌ إنّ الله لم يجعلها تحترق كي لا تدخل الجنّة معه بسبب ما اقترفته من تدخين السجائر. رحل ظافر ورحلت المكتبة والكتب ولم يبقَ لغيث من يجيب على أسئلته سوى طافي.

أيقظه عيسى يومًا وركبا مع فرج، والد فطوم التي أخذت تنام مكانَه في بيت والدته. أخبره عيسى بأنّهما ذاهبان إلى الساحل. وأمَره في حزمٍ بألّا يخبر أمّه مطلقًا عن هذا المشوار. بعدما أنزلتهما السيارة قصدا دكّانًا رأى فيه شوالات كثيرة مصطفّة على الأرض، معبّأة بالأعشاب والخضار والقهوة. وعلى الأرفف زجاجاتٌ امتلأت بسوائلَ من كلّ لونٍ. انتظرا حتّى وصول رجلٍ كبيرٍ. وصف له عيسى ما أصاب الصبيّ. ودون أن يلمسه، نظر الرجل في عينيه وسأل عن العَرق والوضوء الذي تركه وعوّضه بالتيمّم بالتراب. تحدّث الرجل باقتضابٍ وقال كلامًا لم يفهمه الصبيّ. عندما عادا إلى مجهرة شرح له عيسى: تجنّب الماء، وتجنّب كلّ فعلٍ يرهقك ويجعلك تعرق.

فسأل طافي:

- يتجنّب الماء؟ وايش يشرب؟

ردّ عيسى:

- يشرب الماء لكن ما يكثّر منه، عنده الحليب واللبن. يتجنّب الماء على جلده. ابن هندي عطاه الله علم وفطنه أظنّه عرف علّة الصبي.

* * * *

- هل زرت كل مدن العالم العشرين؟

- عشرين؟

- المدن الكبيرة، هذا عددها صح؟ صح ولّا فيه أكثر؟

- أكثر شوي.

ضحك طاقي وسأل الصبيّ عن المدن التي زارها.

- المدينة الوحيدة اللي زرتها هي الساحل، قبلها كان أبعد مكان رحت له هو المغارة، شكلك ما تعرفها، مغارة برا القرية وتخوف، رحت لها كثير لكن ما دخلتها. مرّة وقفت عند مدخلها وصحت بصوت عالي مثل بقية العيال. كل واحد صاح باسمه بأقوى صوته. كنّا نسمع الصدى يرجع وهو يردد اسم اللّي صاح. صحت أنا مرتين لكن ما رجع الصدى. يقولون صوتي كان ضعيف. رحت للأستاذ ظافر الله يرحمه وقلت له إن المغارة ما تعرفني وما تعرف اسمي. فضحك.

رحل ظافر فأتى طاقي. أصبح هذا الرجل الأشيب أكثر انفتاحًا وحديثًا. بدأت جلساته مع غيث تطول. كان لا يسأل كثيرًا لكنّه إذا سأل جعل الصبيّ يتفكّر معه. عارض عيسى مرّةً عندما سمعه يدعو لرجلٍ منحَ بعض المال لشراء سجّاد للمسجد.

- بيّض الله وجهه؟

- نعم، بيّض الله وجهه، ما قصّر، تصدّق بِحُرّ ماله في وقت الصرام اللّي يدور فيه كل رجال مجهرة من يسلّفهم.

- والردي ندعو عليه بسواد الوجه؟

- الردي يستاهل سواد الوجه، لكن هذا الرجال ما هو ردي.

- ومن قال إن السواد علامة للردي؟ ومن قال إن البياض علامة للطيب.

- الله قال: (يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه)، قالها الله في القرآن ما قالها عيسى. الله خلق الأبيض وخلق الأسود، وخلق الردي وخلق الطيب، وكل وعمله.

- خلنا نمسي واترك منك الجدل.

كان غيث يستمتع بمناكفاتهما. فلكلٍّ منهما حُجّة كما يرى، أحدهما علّمه الدينُ ومجالسةُ كبار السنّ والآخر علمّته الحياةُ والسفرُ.

رائحة المدرسة لم تعد كما كانت. غطّت رائحة الحريق على غيرها. حتّى عندما لم يعد بقيّة الطلّاب يشمّونها، كانت لا تغادر أنف غيث. في الفسحة كان يقترب من غرفة الأستاذ ظافر. لم يدخلها قطّ. انتهز فرصة انشغال الجميع فحاول فتح بابها. كان مقفَلًا. لا شكّ أنّها مليئةٌ بالكتب والأوراق وكلّ ما هو جميلٌ.

في حصّة التربية الرياضيّة، لم يعد يجري مع بقيّة الطلّاب بعدما مكّنه المدير من عذرٍ خاصٍّ تجنّبًا لأيّ عملٍ بدنيٍّ مرهقٍ. وفي يوم مّا، عندما ملّ من متابعة زملائه خلال لعبهم، ذهب إلى الفصل وانتظر. نظر إلى السبورة. نهض وحاول رسم دائرةٍ مثاليّة. لم تكن دائرة مطلقًا. انطلق يتجوّل في ردهات المدرسة. وجد نفسه أمام المكتبة التي دهنت من جديدٍ بعد الحريق وأقفلت. تذكّر أنّهم جعلوا بالجدار الخارجيّ فتحةً لتكون نافذةً. يقولون إنّ أحد مسؤولي الوزارة أجبرهم على ذلك. التفّ خارج المدرسة. ووقف أمام النافذة. دفعها. فانفتحت

ساحة لرائحة الدخان المكتومة بالخروج. فأقفلها بسرعةٍ. وعاد إلى الفصل عَجِلًا.

* * * *

تبع أمّه متّجهًا إلى المزرعة كما طلبت منه. رغم أنّ عيسى حذّره من العمل المرهق، فقد شعر بأنّ أمّه تحتاج إليه. وجدا فطّوم أمامهما. كانت في العشرين تقريبًا، تكبره بسبع سنين، لطيفة جدًّا وكثيرة الابتسام، يضحكها أيّ شيء حتّى توافه الأمور، تعيش مع أمّه منذ خطف الموت كلّ عائلتها في حادث سيرٍ. وحدها بقيت، وأصبحت تيماء هي أمّها الجديدة. ها هي مشمّرةٌ عن ذراعيها منشغلةٌ بحفر مسارٍ جديدٍ للماء حتّى يصل شتلات البصل. يذكر أنّه رأى وجهها عندما قدم إلى البيت ذات مرّةٍ فوجدها نائمةً في الباحة الخارجيّة. أحبّ ملامحها الهادئة التي تُوهم من يراها بأنّ العالم سيؤول إلى كلّ ما هو خيرٌ.

أحسّت بهما فطوم، فأطلقت ضحكةً وهي ترحّب ماسحةً العرق الذي انساب على جانب عنقها. انطلق الثلاثة وبدؤوا العمل. بدأ غيث يحسّ ببوادر العرق لكنّه تناساه. ففطوم تقوم بالمستحيل أمامه. كانت تسأل أمّه فتجيب. استطاعت أن تفكّ شيفرة أمّه. تجرّأ وسأل، فأجابت أيضًا! عندما أزالت أمّه قطعةً خشبيّةً منعت الماء من دخول المنطقة التي كانوا يعملون بها، رأوا الماء يمرّ ببطءٍ غامرًا شتلات البصل حولهم. أحسّ ببرودة الماء تتسلّق قدميه. كان شعورًا منعشًا رغم معرفته بأنّه سيتحوّل لاحقًا إلى حرارةٍ حارقةٍ. لم يبالِ هذه المرّة.

- كيف الماء يمرّضك؟

- ما أدري.

- هذا سبب عدم سبوحك وريحتك الخايسة؟ حتى البصل ما قدر يغطّي عليها.

قالتها فطّوم وجلجلت بضحكتها، فضحك هو. هناك، وقبيل غروب شمس ذلك الثلاثاء، سمع غيث وللمرّة الأولى ضحكة أمّه. ضحكت، ثمّ ضحكت، ثمّ كتمت ضحكةً لم تجد سوى عينيها لتعبُر منها.

أخبرته فطوم بأنّها اختارت نخلتها بنفسها. وطلبت منه أن يختار هو نخلته. نظر إلى أمّه، فقالت هذه نخلتي وهذه نخلة فطوم، فاختر لك واحدةً.

- أيّ نخلة؟

سأل، فأومأت تيماء موافقةً. تلفّت كثيرًا وأشار إلى نخلةٍ متوسّطة الطول بدت وحيدةً متطرّفةً. هذه نخلتي، أشار إليها. لم تختر سوى تلك البعيدة؟ ستكون مثلك لا ترى الماء إلّا قليلًا، علّقت فطوم ضاحكةً. رغم احمرار قدميه وألمٍ حلّ بهما، مشى إلى بيت عيسى وهو سعيدٌ. منحه ذلك الثلاثاء من تيماء ضحكةً ونخلةً.

* * * *

ما أعجبك يا طاق! تأمّله غيث وهو محاطٌ بالظلمة في غرفته عبر الباب الذي لم يغلق قطّ. نظر باتجاهه وهو يسمع أحاديث يتجاذبها بعض غرباء قدموا إلى مجلس عيسى. كانوا يتهامسون وهم ينتظرون

رجوع الشيخ. سمع منهم ما لا يصدّق. عندما يغادرون جميعًا سيعود ويصبّ فنجان قهوةٍ لطافي وهو يفكّر. هل أنت فعلًا من يتحدّثون عنه؟ ولماذا تختلف قصصك عمّا يحكيه عيسى ورجال القرية؟

سأل أحدهم غيث الذي دار بالقهوة بينهم:

- الشايب المتكئ داخل الحجرة، هو النوخذة طافي؟

- نعم. تعرفه؟

- ومن ما يعرفه!

أكمل الغريب حديثه الخافتَ وأخبره بما سمع. كان طافي الوحيد الذي لم يخسر مركبًا قطّ. وحتّى عندما غرقت الدنيا سنة الطوفان الرابع، خرج مركبه بسلامٍ. للبرّ حكوماتٌ تحكمه، أمّا البحر فكان له طافي. قيل إنّه مَلَك البحارَ. وقيل إنّه سيطر على الماء. لم تذرف عيناه الدموع. لم يبكِ عندما ولدته أمّه. حتّى العرق لا يخرج من جلده إلّا بإذنه.

قدم عيسى. فقطع الرجل حديثه تاركًا غيث وراءه في عالم الدهشة.

طافي! هذا الرجل الذي لا يكاد يغادر مكانه! لماذا قال أبو فطوم إذَن كلامًا غليظًا عنه ذات يومٍ؟ لماذا لا يظهر عيسى شيئًا من التقدير المستحقّ له! أخبر طافي بما سمع. فضحك حتّى ترجرجت كرشه. ولم يعلّق، بل طلب منه الذهاب لإحضار دفترٍ صغيرٍ من إحدى الصُّرَر التي جمعها في الصندوق بزاوية الغرفة وجعل فيها كلّ ما جاء به إلى مجهرة حين عاد. ما إن فتح الصندوق حتّى شمّ رائحةً قويّةً لم يحبّها. بحث عن الدفتر. وجده فأخذه إلى طافي بعدما أغلق الصندوق.

- الريحة اللّي في الصندوق، هي عطر أو عشبة؟

- عنبر.

- كل اللؤلؤ لونه أبيض؟

- يجي بألوان كثيرة، وكل ما كان صافي بدون شوائب كان هو الطيب.

- الطيب! ليه؟ فيه لؤلؤ ردي؟

- خلق الله من كل شيء: طيب وردي. فيه دانة تباع بغالي الأثمان، وفيه لؤلؤ أخضر من أردى أنواع اللؤلؤ.

- لقيت شيء تحت الأغراض في الصندوق كأنه ربابة!

- قلت لك جيب الدفتر، ليه نبّشت؟

- ما نبّشت، لقيتها قدّامي جنب الدفتر.

- تكذب.

علم غيث أنّه أزعج طاڤي عندما رآه ينهض بصعوبةٍ ويغادر متّجهًا إلى فراشه بجانب الصندوق. لم تكن الربابة بجانب الدفتر، بل كانت في أسفل الصندوق وتمت تغطيتها. يعلم أنّه أخطأ وكذب، لكنّه لم يقاوم السؤال:

- تعرف تلعب على الربابة؟

أخذ طاڤي يتصفّح الدفتر وتجاهله كما تجاهل لاحقًا كلّ ذكرٍ للربابة. علم غيث أنّ الربابة موضوعٌ محرّمٌ. في الأسابيع اللاحقة انشغل بمساعدة عيسى في استقبال الرجال وتجهيز الولائم أحيانًا. عندما توفّي

رجلٌ كبيرٌ سمعهم يدعونه بأبي مريم، كاد يقفز فرحًا إذ استجاب عيسى أخيرًا لرغبته وسمح له بأن يرافقه إلى المقبرة والمشاركة في دفن الميّت. أسره الهدوء الذي وجده في المقبرة. لا يسمع سوى صوت الهواء. وقد بدا له مختلفًا عنه خارج المقبرة. كان يهبّ في لحنٍ متّصلٍ. لا شكّ أنّ انتظام القبور وتباين ارتفاع كلٍّ منها هو ما صنع هذه الموسيقى. انتظر في طرف الممشى الترابيّ الفاصل بين القبور. رأى عيسى يبتعد متّجهًا إلى الطرف الآخر عبر الممشى. وشاهده يهدّئ من مشيه ليستدير حول قبرٍ توسّط الممشى بشكلٍ أفسد امتداده. وصل عيسى إلى الجدار، واتّجه يسارًا إلى زاوية المقبرة حتّى اختفى في عريشٍ صغيرٍ. هنا يغسّل عيسى الموتى.

توافد الرجال على المقبرة فُرادى. خرج عيسى من العريش وناداه. شعر بالفخر وهو يمشي أمام الرجال نحو عيسى الذي لم ينادِ غيره. وجد مع عيسى رجلين من أقارب الميّت لفّهما الحزن فوقفا مكبّلين بلا حركةٍ وأحدهما يحمل بطانيّة في يديه. كان العريش شبه فارغٍ إلّا من براميل معدنيّة فيها أقمشةٌ وحبالٌ وبعض المجارف المعطوبة. في الزاوية صندوقٌ خشبيٌّ مُهمَل عليه كتاباتٌ هنديّةٌ، في ما يظنّ. وبجانب الباب عددٌ من الأواني التي تُستخدَم لصبّ الماء وخلط السدر. طلب منه عيسى إحضارَ قِدرٍ من الماء ودَفْقَه في القِدر الكبير داخل العريش. مشى إلى سيّارة أقارب الميّت أربع مرّاتٍ لجلب الماء. رأى عيسى الماء الذي أصاب ثياب غيث. يبدو أنّ الموت يُنسي ما دونه من ألمٍ!

كان الميّت مسجًّى على حصيرٍ ممدودٍ في منتصف العريش. كانت قدماه بارزتين خارج الغطاء الذي لُفّ حول بقيّة جسده. طلب منه

عيسى الخروج. وعندما حاول غيث إقناعه بالبقاء ليساعده علا صوت الشيخ في حزمٍ آمرًا بالخروج.

في المساء، أثنى عيسى أمام طافي على الصبيّ ومساعدته له. ثمّ التفت إلى عيث وقال قبل أن يغادر البيت: للميّت حرمته، وما لم تكن المغسّلَ أو قريبَ الميّت فلا مكان لك هناك.

رأى طافي الفتى واجمًا فواساه:

- هذا هو عيسى من يوم كان بزر، الدين والعادات عنده قبل كل شيء، ويوم كبر زاد أكثر. كأن العالم ناقص تعقيد.
- هذي المرة الثانية التي يرفع صوته عليّ فيها قدّام الناس، قبل أيّام بغيت أركّب لمبة جديدة هنا في الغرفة بدال الظلماء. هاوشني! هذا جزاء اللّي يساعد؟
- كبار السن مثلي ومثله ما يحبّون العبث بظلمة الليل. نحب الظلام، عوّدتني ليالي البحر عليه، وعوّدت عيسى مرافقته لعمّي يعقوب.
- ما سمعته يطري عمك أو يسولف عنه.
- عم لنا مات في غيابي، وُلد وعاش أعمى، تركت عيسى عنده يوم تركت مجهرة وهو اللّي ربّاه بعد وفاة أبونا. علّمه عمّي الكثير لكنه ما علّمه شيء من مزحه، كان يضحك الرجال لو جالس على قبر أبوه.

ذلك المساء سمع الصبيّ، وهو مغمض العينين، طافي يطلب من عيسى أن يجعله مساعدًا له في المقبرة، لم يردّ عيسى. في الصباح، أخذه

إلى المقبرة وأدخله العريش. لم يعد المكان مهيبًا لغيث كما كان البارحة. حدّثه عيسى عن الموت وعن عذاب القبر وعن الجنّة، ثمّ أشار إلى الموضع الذي خلا من الحصير.

- هنا، آخر عهد أهل الميت به، المغسّل آخر من يلامس الجنازة، ما بعد المغسّل إلّا ملائكة الحساب في القبر. عندك العزم والقوّة على الثبات وأنت تغسّل رجّال أو صبي أو ورع صغير، ما كمّل سنة، بيديك؟ تمسك جسمه البارد؟ تمسح مناطق ما مسحها له أحد؟ عندك المروءة والأمانة للستر على الأموات وتركهم يروحون بسلام دون كلام عما شفت أو سمعت؟ لا، لا، ما أقصد كشف عورة الميت، هذي ما تحتاج وصاة! بتتعوّد عليها. قصدت ستر ما تشوفه من علامات على الميت توحي بغضب من الله.

- ايش هالعلامات؟

- تغسّل رجال أبيض وقد اسودّ وجهه وقلب كنّه قار. تشوف الفتى الضاحك المازح وهو مكفهر ومتجهّم بعد ما فاضت روحه من هول ما شاف، وأمور ثانية ما يخبرك بها إلا الموت. هذولا قلّة ولله الحمد، أهل مجهرة يخافون الله. كثير منهم يموت بسلام وبلا معاناة. إبراهيم بن ذيب غسلته بيدي وشفته بعيوني هاذي اللّي بياكلها الدود وهو يتبسّم بعد ما قبض الله روحه بساعات، بشّرت أهله.

- تقول لا تخبر أحد! ليه علمتهم؟

- لا تخبرهم أمرَ سوءٍ يكره الميّت سماعه لو كان حيًّا. أمّا البشارات فلا تكتمها. وبشّر أهل الميت بها بينك وبينهم.

خرج من العريش وواصل حديثه وهو يسير أمام الفتى:

- اسمع يا غيث، بأعلمك طريقة الغسل، وبأخلّيك تساعدني إذا شفت فيك أخلاق مغسّل الموتى وخوفه من الله. شفت هذاك القبر؟ هذا قبر أبوي الله يرحمه، وهناك جنبه قبر جدتي. أما هذاك.. أكيد إنك تعرف هذاك القبر.

كان قبرًا عاديًّا، لا يختلف عن باقي القبور. هزّ غيث رأسه نافيًا.

- هذا قبر جدّك سالم الله يرحمه ويسكنه الجنّة، كان من أطيب رجال آل جبر، محافظ على الصلاة، كريم، شهم. ما علمتك أمك عن قبره ولا سولفت لك عنه؟

- لا، ما كلّمتني أبد عن قبر جدي. أدري إنها ولدتني جنب المقبرة يوم دفنوا جدّي، وكل مرّة أنشدها عن سبب ولادتي جنب المقبرة تسكّتني وما تعلّمني، يقولون إنها كانت ترعى الغنم. أنا وعليّان بن شدوي ومحمّد بن طلق كلنا وُلدنا خارج البيوت، أنا بجنب المقبرة، ما هو مثل ما يقول بعض العيال إني ولدت داخلها، وعليّان هناك بين المدرسة ومكان البسّاط، وأما محمّد بن طلق فكان مكانه غريب، ولد في سيارة أبوه قريب من أم المطاليب.

توقّف عيسى ووزّع نظره بين غيث وقبر جدّه. وقال وهما يخرجان من المقبرة:

- مهما اختلف المكان الذي انولدنا فيه، مردنا كلنا للمقبرة.

أصبحت زيارة المقبرة عادةً أسبوعيّةً عند غيث. ينظّف المكان من بعض الأوراق التي علقت بنباتات الحَمْض الموزّعة في المكان. يطرد الكلاب الضالّة. وعندما يرافق عيسى لا ينفكّ يسأله عن القبور وأهلها. كان عيسى يعرف معظم القبور حتّى تلك التي حُفرت قبل مولده. أمّا التي لا يعرفها فكان يقول إنّها لرجالٍ من آل فلانٍ أو من بيت فلانٍ دون تحديدٍ. لكنّه لم يقدّم لغيث جوابًا مُرضيًا عندما تساءل عن عدد القبور. لاحظ أنّ آل جبر يشغلون معظم الجهة الشرقيّة أمّا آل صميح فكانوا في الجهة الغربيّة، لكنّ قبور العائلتين اختلطت في المنتصف تقريبًا. وحدَها زياراتهم إلى المقبرة استطاعت فكّ قيد لسان عيسى. أصبح يجيب عن بعض الأسئلة ولا سيّما ما كان منها عن المقبرة والمزرعة.

ألم أخبرك عن هذا من قبل يا غيث؟ سأله عيسى ذات يوم وانطلق في الحديث.

كانت المقبرة صغيرةً جدًّا. وبعد امتلائها اضطرّوا إلى دفن الرجال في أيّ مكانٍ يجدونه حتّى لو كان في جهة العائلة الأخرى. الأمور تغيّرت بسبب رجلٍ صالحٍ يُسمّى مصبّح. أخبره عيسى أنّ مصبّح كان ميسورًا ويحبّ فعل الخير، وهو السبب الحقيقيّ في ما نعمت به القرية من عمرانٍ وتطوّرٍ كالطرق المعبّدةِ وقنوات الريّ. وهو مَن تبرّع للمقبرة بالأراضي عندما بخُل غيره بالمال. دهس أحد الغرباء صبيًّا مجنونًا فأصرّ أهله على أن يُدفَن في منتصف طريق القرية.

نعم يا غيث في منتصف الطريق. ما أقبح أن يستغلّ الرحال الموت ذريعةً لكسب الأراضي ومتاع الدنيا! كانت الطريق ملكًا لمصبّح ولم يبخل بها. منحهم إيّاها، لكنّ شقيًّا يدعى ذيب لم يقنع بذلك. فقام أمام القرية كلّها وأساء للرجل وطلب منه الرحيل من القرية. فعادر مجهرة، ولم يرجع.

قيل إنّه مات حزنًا بعدها بعامين. وقيل إنّه عندما شاهد ذيب يؤلّب القرية ضدّه آثر الخروج بهدوءٍ على أن يبقى ويتسبّب في انقسام القرية. وقيل، وهو الحقّ والله أعلم، إنّه غضب على الرجال الذين لم يحترموه ولا قدّروا ما قدّمه للقرية. ومن يلومه! اتّهموه زورًا بالتسبّب في مقتل الصبيّ المجنون. أخبرني أحد الشيوخ أنّه كان صبيًّا عندما سمع مصبّح يتنازل عن كلّ حقّه في أرض المقبرة ويخبر بعض الرجال أنّه سيمنح ذيب وأهله ما يريدون، ومنها موضع ذلك القبر الذي تراه هناك في المنتصف.

نظر غيث إلى ملامح الشيخ وهو يروي تلك الحكاية. كان متأثّرًا ويقطّب حاجبيه في مواضع الاستنكار.

دار غيث حول القبر الذي توقّف عنده عيسى. كان بارزًا يرتفع منتصفه عن الأرض شبرَين أو يقلّ قليلًا. لم تعرّه الرياح ولم ينزله مطرٌ، كأنّما حفر بالأمس. كان القبر وحيدًا في منتصف الممشى الذي قسم المقبرة شطرَين. بعد أن أخبر الصبيّ بأنّه سيحضر له قفّازًا يقي يديه وذراعيه من الماء خلال غسيل الموتى، خرج عيسى متّجهًا إلى المسجد.

دارت عينا غيث في المكان. تأمّل القبور. كان موتى آل جبر وآل صميح يرقدون بسلامٍ وهدوءٍ. رأى أنّ الموت قد سوّى كلّ خلافات السابقين. لا أفضليّة لقبور الجهة اليمنى على الجهة اليسرى. ساوى الموت بين غنيّهم وفقيرهم. وحدَه الموت يزيل الكراهية.

* * * *

لم تقاوم النافذة دفعةَ يده. انفتحت. قفز بسرعةٍ. لم يغلقها تمامًا، بل تركها موارَبة كي يسمح لبعض الضوء بالتسلّل معه. لم تعد رائحة الدخان هي الغالبة هنا، بل رائحة اللون الأبيض الذي لفّ المكان. وقف في الموضع الذي شاهد فيه ظافر ذات مرّةٍ. ماذا كان يقرأ يا ترى؟! نظر أمامه فوجد كتابًا عن بناء الأهرامات. هل هذا الذي دعاك يومًا إلى حديث عن الأهرامات يا أستاذ؟ وعدتني بأن تخبرني عمّن بناها، لكنّ الموت لم يُمهلك. سحب الكتاب. يا للعجب! لقد بنوها لتكون مقابر! هل كنت مهتمًّا بالمقابر يا أستاذ ظافر؟ أعاده. وبحث عن كتابٍ آخر. وجد في آخر الرفّ عند الجدار كتابًا قديمًا جذبه عنوانه. سحبه. فوجده ملتصقًا بالجدار. انتزعه فخرج الكتاب بيده مخلّفًا وراءه الغلاف وصفحتين آثرتا البقاء على الجدار. حاول نزعهما، لكنّهما كانتا ملتصقتين بالدهان كحال الغلاف الخلفيّ. يبدو أنّ الدهان كان رطبًا عندما لامسه الكتاب، فكّر وهو يضع الكتاب في جيبه ويغادر مغلقًا النافذة.

- ليه ما نحط لمبة تنوّر لنا محلنا، عشان نشوف بعض، ونقدر نستّع أغراضنا؟

- عودنا لها السالفة؟ أدري ودّك تقرأ من هالدفاتر حقتك. الله ما خلق الليل للقراية والتعب. يا ولد، النهار للشغل وللناس، والليل للراحة ولله.

أجابه عيسى قبل أن يتركه مع طافي ويتّجه إلى فراشه في الغرفة المجاورة. على ضوء النار، أخذ غيث يسأل طافي عن البحر، عن امتداده، عن أهواله. طافت به أحاديث طافي حول العالم. فما إن شعر الفتى باستجابة طافي له واستئناسه به حتّى أمطره بأسئلةٍ وجدت صدرًا رحبًا. لا يعلم لما كسر خوفه وأخبر طافي بما كانت أمّه تخبره من قصصٍ مرعبةٍ عن بحرٍ يبتلع الغرقى وطيورٍ تنهش ظهورَ من نجا منهم. ضحك طافي وقال وهو يسعل:

- يا ولد، هذي قصص تقولها العجايز يخوفون الورعان بها من البحر. نفس القصص اللّي يسمعها صبيان كل مدن الساحل في العالم. خرافات! أهوال البحر الحقيقيّة أعرفها زين وشفتها مثل ما أشوفك قدّامي.

- أجل ليه قالوها؟

- قصص كذبها واحد ما ركب بحر في حياته. عشان يتجنّب الصبيان البحر والغرق، أكيد إنهم قالوها بسبب غرق وموت ولد ولا بنيّة من قبل.

- كيف عرفت إن القصّة فيها أحد مات؟

- تعرف قصّة انتشرت بين الناس ما فيها موت!

رحل ظافر وحضر طاقي. لم يخجل غيث من ذكر تلك القصّة له.

سمع منه قصصًا أكثر إمتاعًا وأشدّ غرابةً من قصّته تلك. سمع أنّ الهنود كانوا يرقصون بلا تعبٍ طوال اليوم وأنّ طافي رآهم منتشرين في كلّ مدن العالم التي زارها. ذكر له النوخذة أنّه زار مصر، لكنّه لم يذهب إلى الأهرامات لأنّها بعيدةٌ عن الساحل. تجرّأ غيث وسأل مشيرًا إلى الجرح العميق في وجه محدّثه. ابتسم طافي وأعلن أنّ وقت النوم حان. وأمام إلحاح الفتى أخبره باقتضابٍ أنّه أصيب بهذا الجرح في أفريقيا وفي وادي الأسود.

- شفت أسد بعيونك؟

سأل الصبيّ وعيناه تظهر مدى الدهشة التي اعترته.

- شفته؟ ومن ظنك عطاني هالهدية؟

أشار طافي إلى الوشم الذي توسّط خدّه الأيمن كخندقٍ حفرته دمعةٌ من نارٍ، ثمّ أكمل حديثه:

- كانت الأسود تمشي جماعات، الذكر الواحد وراه أربع أو خمس من الإناث. ما ودّك تخلّيني أرقد؟

- بس هذي الحكاية، كمّلها.

- ما يطلب كامل الحكاية إلا خبل، وما يقولها له ويظن إنه يعرفها كلها إلا واحد أخبل منه.

التفّ طافي وسحب من تحت المخدّة قنّينة صغيرةً مدّها إلى الصبيّ. ثمّ وضع رأسه على الفراش تاركًا العنان لكرشه حتّى يسرق المشهد. تأمّله غيث على انعكاسات ضوء النار. أسد؟ لا شكّ أنّك قتلته بعدما أصاب وجهك. وتسمّي جرحًا كاد يخطف

عينك تذكارًا! يا لك من رجلٍ! لقد جال هذا الشيخ الضخم العالمَ كلّه. وكيف؟ على الماء طوال عمره، الماء الذي يكاد يقتلني! صدق الغرباء، لقد سيطر هذا الرجل على الماء. تمكّن حتّى من الماء الذي في جسده! لا يدمع. ولا أتذكّر أنّي رأيته يتعرّق رغم صيف مجهرة! قريبًا سأتعلّم منه السرّ الذي يجعلني أسيطر على الماء مثله. فتح القنّينة. وهمّ بالتعطّر منها، لكنّه ما إن وضعها مرّةً أخرى أمام أنفه حتّى عدل عن قراره. وأغلقها.

في الصباح، سمع عيسى وطاقي يتحدّثان وهو يسّخن الماء لصنع القهوة. ظنًّا أنّ صوتهما لا يصله، لكنّه كان يسمع بوضوحٍ. ولم يحبّ ما سمع.

بعد أن لام طاقي على سهره وهو في هذه السنّ، ذهب عيسى إلى المزرعة وغيث يتبعه. قضّيا نهارهما هناك. وعند العصر طلب عيسى من الفتى مرافقته إلى المقبرة.

- تشوف ذولا كلهم؟ هذولا المحظوظين اللّي راحوا للرحمن وأجسادهم هنا بين عيالهم وبناتهم يدعون لهم ويترحمون عليهم من قريب، يزورونهم، ويجيبون الصغار عشان يعرفونهم ويتذكرونهم. أعرف رجال طيبين تركوا مجهرة وما عاد رجعوا لها فنساهم الناس. سمعت بسويقي بن مبروك؟ حمد بن معدي؟ ما سمعت بهم وما راح أحد يسمع بهم إذا مت أنا واللّي في سنّي. ما راح يبقى لهم ذكر في الأرض. سويقي! اللّي ذبح أربعة رجال في الساحل بيديه، ما شافت مجهرة أشجع

من سويقي، لكن وينه اليوم وين ذرّيته؟ الله العالم، اختفت مثل ما اختفى هو.

لم يفهم غيث سبب حديث عيسى، لكنّه قبِله كما يقبل النصائح الأخرى التي كان يقدّمها له. تذكّر أولئك المهاجرين والمسافرين والمغتربين. ما أصعب ترك الأهل! أين والدي يا ترى؟ أما يزال حيًّا؟ وإن لم يكن، فأين قبره؟ تذكّر الأستاذ ظافر. فبادر بسؤال عيسى عن مكان قبره. لا يعلم لما انتفض عيسى منزعجًا ونهره ليغادر تاركًا إيّاه في المقبرة. لم يغادرها إلّا عندما غربت الشمس. كان لصوت الطيور القادمة من خارج المقبرة أثرٌ في نفسه. عاد إلى البيت فوجد الأخوين أمام النار. نهض عيسى قبل وصول الفتى إليهما، واتّجه إلى الحجرة التي يخلط فيها الأعشاب للمرضى الذين سيصلون بعد صلاة العشاء.

سأله طافي:

- سألت عن قبر مدرّسك؟

- ليه ما يعلمني عن مكان قبره؟

- وليه تسأل عنه؟

- ودّي أزوره وأدعي له.

- الدعاء ما يحتاج قرب، ادع له من أي مكان وبيوصل دعائك.

- مرّات، وأنا على فراشي، أفكّر في الأستاذ وهو يحترق، ايش كان يفكّر فيه؟ يمكن كان يفكّر في أهله، أو فينا حنا طلّابه، كان يقول إنه يفكّر كثير فينا وفي مستقبلنا.

- كان يفكّر في مهرب من النار اللّي حاوطته.

قرّب غيث يده من النار. أبقاها ثوانيَ. وسحبها عندما لسعتها.

- كل ما أمد يدي للضو أو أسمع القهوة تفور في الدلّة أتذكّر الأستاذ. يا شين الحريق، هو أردى الموتات.

- شفت أحد يغرق قدّامك؟ ما به أصعب من موتة غريق.

- كلهم يفقدون الهواء والنفس لكن المحروق يتألّم. كيف يغسّل جلد المحروق؟ هل هو بارد مثل باقي الجثث؟ أو إن النار تخلّيه حار؟ سبحان الله، يقول الشيخ إن النار فيها علاج لبعض الأمراض اللّي ما ينفع معها إلا النار!

- النار علاج؟ كيف يجعل الله العلاج في شيء يعذّب به الناس في جهنّم!

- شفت بعيوني بدوي جابوه هنا محمول ما يعرف يمشي، رجليه منتفخة كنها بطن عنز. قالوا إنه مشى على جمر مدفون برماد ما شافه، احترقت رجليه وانتشر المرض لين تنفّخت، راح للدكاترة وقالوا بنقطعها من عند الركبة، رفض، وجاء هنا للشيخ، شافها الشيخ وقال لي وللرجال اللّي جابوا البدوي نمسكه بقوّة ونثبّته. جلست على فخوذه عشان ما يتحرّك. تعرف ايش سوّى الشيخ لعلاج الحريق اللّي في رجلينه؟

نظر طافي إلى الصبيّ الذي انطلق في الحديث. كانت عيناه مليئتين بالدهشة، دهشة السذّج الذين لم يروا شيئًا بعدُ في العالم. أراد مجاراته رفقًا به. فسأل مظهرًا الاهتمام:

- وش سوّى؟

- وش سوّى؟ طلب المسمار. حاول البدوي يتفلّت وطار عقله يوم شاف المسمار أحمر، تعاون الجميع ومسكوه، وأول ما لامس المسمار قدمه انفقعت وخرج منها قيح، ثم تبعه دود، نعم، دود حي، قام يطلع من رجله بسبب المسمار الحامي. اثنا عشر كية اللّي حصل عليها البدوي، شالوه ربعه وراحوا، نسيناه، بعد ثلاث شهور رجع لنا معاف يمشي على رجليه وجاب للشيخ بشت وَبر وأربع تولات دهن عود. الشيخ عالج الحرق بالكي! عالج النار بالنار!

- ما خلق الله الجلد عشان يلامس النار. لو تحكي لي ميّة قصّة، ما راح أحضر مجلس يقوم فيه رجل بحرق رجل ثاني برضاه!

قالها طافي وهو يشير إلى مكان جلوس الرجال القادمين للعلاج. وواصل:

- متى بتكمّل قراية القصّة؟

كان غيث يقرأ له من الكتاب الذي جاء به من المكتبة، قصّة أجنبيّة تروي حكاية فتاةٍ فقيرةٍ وجميلةٍ تبحث عن والدها الذي اختفى خلال الحرب. فقدت الفتاة ملامحها بسبب مرضٍ أصابها فاضطرّت إلى العمل نهارًا في مستشفًى وبعضَ الليالي في منزل رجلٍ غنيٍّ من أرباب المال الذين اغتنوا خلال الحرب. كان طافي يطلب إكمال القصّة كلّما ذهب عيسى إلى النوم مبكّرًا. وحين يعود غيث إلى القراءة على ضوء النار، كثيرًا ما يكتشف أنّ طافي قد نسي أحداثًا سابقةً، ممّا يضطرّه إلى العودة وتكرار ما قرأه في المرّة السابقة. ظلّا على هذه الحال أشهرًا

طويلةٌ. وعندما اكتشفت البطلة أنّ والدها لم يكن سوى مدير أحد المستشفيات التي عملت بها من دون أن تعرفه بسبب تغيير اسمه، انطلقت نحوه، أنزلتها العربة التي تجرّها الخيول أمام..

هنا توقّف غيث وهو ينظر إلى الصفحة الأخيرة بين يديه. لا شكّ أنّه الصبغ اللعين الذي التصق بالغلاف الممزّق. نهاية القصّة في الصفحتين الملتصقتين بالجدار.

وعد طافي بأن يذهب إلى المدرسة ويُحضر النهاية.

* * * *

أشهر مرّت منذ زار غيث المدرسة آخر مرّةٍ. كان قد أنهى سنوات الدراسة الستّ بنجاحٍ. أصبح اليوم ناضجًا، كما يقول طافي. وسيعمل مع عيسى في الحقل. ويومًا مّا سيجمع المال ويسافر ويزور الأهرام. دخل المدرسة، وقبّل أنف المدير كعادة كلّ من يترك المدرسة ويصير رجلًا. سأله المدير عن أمّه. ووعدَه الفتى بإيصال سلامه. أخرج الكتاب الممزّق من جيبه وسلّمه للمدير ذاكرًا أنّ الأستاذ ظافر منحه إيّاه ليقرأه، وأنّه يودّ إعادته لكنّه يبحث عن الصفحة الأخيرة. قام المدير وطلب من غيث أن يتبعه. فتح قفل المكتبة. وتلفّت يمنةً ويسرةً وهو لا يعرف المكان الأنسب لوضع الكتاب. دلّه غيث عليه. وأزاح الكتب لتظهر الصفحة الملتصقة بالجدار، حاول غيث نزعها فلم يستطع. قرأ بسرعةٍ الأسطر الأولى، لكنّ المدير طلب منه وضع الكتاب والمغادرة. فموعد دقّ الجرس قد حان. خرجا. سأل المدير غيث عمّا إذا كان يودّ قرع الجرس بنفسه. كاد يقفز فرحًا. عليك بالضغط على الزرّ مرّتين،

علّق المدير وهو يشير إلى الزرّ الذي عُلّق على الجدار بجانب مكتبه. ضغط غيث مرّتين. هذا هو الزرّ الذي كان يحكم يومنا هنا في المدرسة. هذا هو الذي يجعل الأستاذ ظافر يأتي إلينا وهو ما يجبره على التوقّف والمغادرة!

قبل أن ينصرف غيث، مرّ ظافر بباله. فسأل المدير. فأخبره عن مكان قبر الأستاذ. لم يكن وصفه صعبًا: آخر قبر من الجهة الجنوبيّة أمام الشقّ الكبير في جدار المقبرة. قصده رأسًا. فالجوّ الغائم يخفّف من حرارة نهار بجهرة. رأى قبره. ألم يجد عيسى مكانًا أفضل من هذه البقعة النائية؟ بجانب الشقّ الذي تدخل منه الحشرات وربّما الفئران!

حلم ذلك المساء بظافر. أخبر طافي بحلمه. وعندما علم من طافي أنّ عيسى غادر إلى الساحل مع أبي فطوم، انطلق هو إلى المقبرة. وقف أمام قبر ظافر ودعا له. رأى أثر أفعى بجانب القبر كانت قد دخلت من الشقّ. اتّجه إلى العريش. أخرج المجرفة. وعاد إلى القبر. توقّف متردّدًا. ثمّ رفع المجرفة عاليًا وبدأ الحفر. لم يبالِ بالعرق الذي ملأ جسده. وصل إلى اللحد. لم يخف من ملامسة الكفن المشبّع بالتراب. سحبه إلى الخارج وأعاد دفن القبر. لم يُضع الوقت. حمل الجثّة. واتّجه إلى القبر الجديد المحفور، لكنّه هو أيضًا كان في مكانٍ ليس ببعيدٍ عن الشقّ. خطرت له فكرةٌ بدت عادلةً ومبرّرةً. ذهب بالجثّة نحو قبرٍ قديمٍ في منتصف المقبرة. وبدأ نبشه مُطلقًا مجرفتَه بسرعة. ماذا لو جاء عيسى الآن؟ ماذا سيكون عذري؟ شمّ رائحةً غريبةً لم يحبّها. قطع صوت الرعد رتابة صوت المجرفة. عليَّ أن أسرع وإلّا اضطررتُ إلى

الاحتماء من المطر. وعندما وصل إلى منتصف عمق القبر وضع جثّة المعلّم وبدأ الدفن. كان يحسّ بلهيب العرق. شاهد ذراعيه تحمرّان، لكنّه واصل بعزمٍ. هذا هو المكان الذي يليق بك يا أستاذ ظافر. أعاد المجرفة إلى العريش، وأسرع في مشيه وهو يشاهد قطرات المطر تنزل.

أصابته الحمّى ذلك المساء. وفي اليوم التالي، عندما سمع من طافي أنّ عيسى ذهب إلى المقبرة، أصابه الهلع. لا بدّ أنّه سيلاحظ القبرين اللذين حُفرا ودفنا بالأمس. سينكر أيّ علاقةٍ له بما حدث. سيقول إنّ المرض الذي أصابه البارحة كان بسبب المطر فقط. عاد عيسى، ولم يقل شيئًا. بعد يومين تسلّل هو إلى المقبرة. لم يكن القبران مختلفين عمّا حولهما. لا شكّ أنّ المطر قام بعملٍ عظيمٍ في تغطية آثار الحفر. شمّ تلك الرائحة الغريبة مرّةً أخرى. أخبرته غريزته بأن يعود إلى المنزل بسرعةٍ. ما إن دخل البيت حتّى نزل المطر. علم أنّ للمطر رائحةً لا يشمّها كلّ الناس. شعر بأنّه مختلفٌ ومتميّزٌ من الآخرين، كما قال طافي. نام سعيدًا ذلك المساء وهو يعلم أنّه حقّق العدل وأعطى معلّمه القبر الذي يستحقّ.

كم من شقيٍّ حصل على مكانٍ جيّدٍ لقبره؟ وكم من طيّبٍ لم يحظَ بقبرٍ يستحقّه؟

* * * *

ترك عيسى فنجانَ القهوة. بَرَد من دون أن يلمسه. التفت في اتّجاه الفتى. رآه في الحجرة يطحن اللّبان ويخلطه بالعسل كما طلب منه. قال طافي:

- الصبي ذهين وصار جيد في خلط الأعشاب، يعرف المقادير ويطحن أنعم من طحنك.

- الطحن والخلط سهل، باقي له يتعلّم كيف يعرف علامات الأمراض، هذا المهم.

- بيتعلّم منك. ايش فيك قاسي عليه؟ ما يعجبك شيء من اللّي يسوّيه.

- أبّيه يصير رجّال.

- تعلّم غسل الموتى وأنت كنت تظنّه ما راح يتعلّم، ويساعدك في نخلك حتى وهو مريض، أربع مرات اللّي مرض بسبب شغله معك في المزرعة. ما منعه الوجع اللّي في يده، ايش تبّي منه زيادة؟

- الصبي جيّد لكنه ما هو من آل صميخ.

- ...

- تبّي آل جبر يتولّون المقبرة بعد؟ تبّيهم يتولّون الغسل والدفن!

- الموتى ما اشتكوا. ليه تشتكي أنت؟

- ما راح أكون الرجل اللّي طلعت في وقته المقبرة والقيام على أمورها من آل صميخ وراحت لآل جبر. من سنين وآل صميخ هم من يتولّون المقبرة. ورثناها من الأولين وبنورثها لعيالنا اللاحقين.

- ما كانت كذا، كان كل بيت يدفن موتاه.

- ايش درّاك أنت؟ تغيّرت الأمور بعدك. اللّي يحز في خاطري هو أن صبيان اليوم من آل صميح لاهين ولا ودّهم بالمقبرة وأجر المقبرة. مرّات ما يحضر منهم أحد للدفن! بأسوّي الواجب والصحيح، بأعلّم واحد من عيال آل صميح، وأخلّي ولد تيماء معي عشان يساعدني ويساعد اللّي بيمسك المقبرة بعدي.

عندما خرج غيث مبكّرًا إلى المسجد، لاحظ طافي عينَيه وهو يجلس بجانبه.

- فيك شيء يا ولد؟

- هل في الموت والمقبرة فرق بين آل صميح وآل جبر؟

- ايش تقول؟

- سمعتكم، ما ظنّيت رجّال صالح وشيخ يفرّق بين الناس ويرفع ويخفض ناس! وين خطبة الجمعة وإن الناس سواسية! أتعجّب من رجل يقول هالكلام وهو ما عمره سأل مريض عن أصله ونسبه! يعالج الغريب وما يهمّه نسبه وينزعج منّي وأنا ابن قريته!

- الرجال يغليك لكن يمكن قصده..

- أساعده وأفزع له وأقدّره مثل أبوي، لكنه يقلّل من شاني ويقول توّك جاهل! يقول إني ما أعرف المقبرة وهو اللّي يوم سألته عن عدد القبور فيها ما عرف يرد! قل له إن مقبرته فيها ألف وتسعمية وستّة وسبعين قبر. نعم، أعرف المقبرة أكثر منه. كنت أظنه أخير رجال القرية، لا يظلم أحد ولا يكره أحد!

- يا ولدي، حتى لو أخطى تراه يعزّك. تشكي الظلم وتظلم بنفسك! ما به أحد كامل الصلاح ولا أحد كامل الفساد، الناس وحنّا ما بين وبين.

- كيف؟

- لو كان الخير والصلاح هناك فوق في السماء، والشرّ والردى تحت عند قاع البحر، فترى غالب الناس بيكونون هنا.

قال طافي جملته الأخيرة وهو يضرب بكفّه على التراب. وواصل:

- وبتلقى عيسى أخير من معظم الناس، حتى وإن أخطأ.

نظر غيث إلى الأثر الذي تركته كفّ طافي على التراب، ثم نظر إلى السماء. وسأله:

- وأنت وين بنلقاك؟

- ما راح يلقاني إلا الحيتان.

قضى غيث مساءه متكدّرًا. أعدّ عشاء الرجلين، وذهب إلى مخدعه ولم يشاركهما. أشرقت الشمس. استيقظ غيث فوجد عيسى غادر، وطافي قد سبقه وصنع القهوة. اتّجه إليه وصبّح عليه. نظر إليه طافي، فوجده لا يزال معكّر المزاج. جلسا يحتسيان القهوة بصمتٍ. لم يبادر غيث بالأسئلة كدأبه دومًا، بل ظلّ واجمًا. نظر إلى طافي وهو يَزْحَرُ محاولًا النهوض. سار بتمايلٍ نحو فراشه وتجاوزه حتّى بلغ صندوقه. نظر إليه غيث باستغرابٍ وهو يعود ممسكًا الربابة. جلس ووضعها أمامه. وأخذ يربط وترها الذي ارتخى.

- قضيت حياتي في البحر، لكن أجمل أيام عمري كانت في البر،

في الصحراء، عشت ثلاث سنين مع رجل عاملني معاملة الولد، كنت أظنّه قاسي علي، ويوم قلت له إني نويت أمشي وأدوّر رزقي وبأتركه عطاني ربابته.

لم يكن القوس هو الشيء الوحيد بيد طافي، فرَدَ أصابعه فرأى غيث لؤلؤةً كبيرةً تتمايل وتتألّق في كفّه الممتلئة. مدّها باتّجاه غيث فأخذها. تأمّلها على عجلٍ، فبدت في شكلٍ كرويٍّ مثاليٍّ، دون أيّ شائبةٍ. أعادها إلى طافي الذي هزّ رأسه رافضًا استلامها. وانشغل بإمساك الربابة بيُسراه وقوسها بيمناه. وعلى صوت الربابة، جرّ طافي صوته بأبياتٍ لم يفهم غيث بعض كلماتها. لم يكن صوت طافي جميلًا، لكنّ صوت الربابة أنسى الصبيّ ذلك. كانت المرّة الأولى التي يسمع فيها صوت تلك الآلة. توقّف طافي بعدما شاهد أسارير الصبيّ تبتهج. وضع الربابة والقوسَ جانبًا. عاتبه غيث:

- ليه ما تكمّل؟

- أنا رجّال كبير والربابة تتعبني، والحين قل أنت، متى بتخبرني عن نهاية القصة والكتاب اللّي ما خلصته؟

- ما يطلب كامل الحكاية إلا خبل، وما يقولها له ويظن إنه يعرفها كلها إلا واحد أخبل منه.

ضحكا معًا. كان طافي يهتزّ من الضحك. سعل ومدّ يده مشيرًا إلى كوب الماء وهو يطلق ما بقي من ضحكاتٍ بدأ يخفّ صوتها شيئًا فشيئًا. أعطاه غيث الكوب. شرب رشفةً واحدةً وهو ينصت إلى غيث يخبره عن الصفحة الأخيرة الملتصقة بجدار المكتبة. شرق طافي برشفة

الماء الوحيدة التي ارتشفها. سعل مرّاتٍ. جحظت عيناه. اسودّ وجهه وهو يجاهد للعثور على نفس. هناك، أمام غيث الذي لم يفهم ما يحدث ولا أدرك ما يفعل، هناك بجانب الربابة وقوسها، وغيث يمسك بلؤلؤة خلت من أيّ شائبةٍ، سقط طافي على جنبه وفارق الحياة.

* * * *

حضر حشدٌ كبيرٌ إلى المقبرة للصلاة على طافي. شاهدهم غيث جميعًا يواسون عيسى الذي لم يذرف دمعةً واحدةً. قدم الرجال من القرى والساحل على مدار أسبوعٍ كاملٍ إلى منزل عيسى. توقّفت سيّاراتٌ عديدةٌ نزل منها رجالٌ تبدو عليهم علامات الثراء. وجاء فلّاحون وعمّال أجانب.

رأى غيث عالَمَه يهتزّ أمامه. كان رحيل طافي صدمةً أخرى له. لماذا يختار الموت أولئك الذين أحبّهم! شاهد عيسى يقف احترامًا لأحدهم عندما أقبل. أسرّ له الرجل بشيءٍ وأخذ منه مفتاح السيّارة. أعطاها لغيث وطلب منه أن يأخذ علبةً من ماء زمزم الذي قرأ عليه عيسى ويضعه في سيّارة الرجل. خرج غيث. وبينما كان يجرّب فتح كلّ السيّارات الواقفة ليعرف أيّها المقصودة سمع الرجال الواقفين خارج البيت. كانوا يتهامسون وهم يتناوبون على سيجارةٍ وحيدةٍ بينهم. سمع منهم كلامًا عن طافي تمنّى أنّه مات قبل سماعه. تأمّل وجوههم. شاهت الوجوه! الساعةَ خرجوا من عزاء الميّت وها هم يلوكونه بألسنتهم: ما فيه خير، ترك أهله، عاق، سوء الخاتمة، سواد وجه.

صباح الجمعة، ذهب لزيارة قبر طافي. كان مكانه جيّدًا، بجانب والديه. ها أنت يا عيسى ترتّب القبور كما تريد أيضًا! لكنّي أعدَل منك. أخرج العلبة التي أعطاها إيّاه طافي وسكب بعض ما فيها من عنبر على قبره. دعا له بالرحمة والسعادة.

هل يستطيع أهل الجنّة الطيران حتّى لو كانت كروشهم ضخمةً؟ لا شكّ أنّ الجاذبيّة التي تحدّث عنها الأستاذ ظافر لا توجد في الجنّة.

في المساء وبينما كان يدور بالقهوة على بعض الرجال في المنزل، سمع أحدهم يخاطب عيسى:

- مرّيت اليوم بقبر أمّي، تعرف، مو بعيد عن قبر حمود عليه رحمة الله. أقسم بالله ياشيخ أني شمّيت ريحة الجنّة، ظنّيت أني أتوهّم، لكن أخوي كان معي.

أكّد أخوه أنّه شمّ رائحةً طيّبةً وأنّ ذلك من علامات القبول والصلاح. لمح في عيون البعض عدم التصديق. وفي المسجد، سمع أحد هؤلاء يحدّث آخر مستغربًا أن يكون شقيٌّ مثل طافي من أهل الصلاح في السرّ!

صباح الجمعة هو الوقت الذي اختاره غيث ليمرّ على قبر طافي فيضمّخه بالعنبر، حتّى يتسنّى للخارجين من صلاة الجمعة شمّه عند مرورهم قرب المقبرة. أصبح الرجال يتداولون قصصًا عن صلاح طافي. قيل إنّه كان يكفل عشرات الأيتام في بلدانٍ عديدةٍ. وقيل إنّه إنّما عاد إلى القرية مُعدَمًا بعد كلّ تلك السنوات من بيع اللؤلؤ لأنّه تصدّق بكلّ ما يملك على أرامل مَنْ رَحَل مِن رفاقه البحّارة. وقيل

إنّه ترك البحر رغم شهرته ليعتني بقريةٍ فقيرةٍ في أفريقيا فتَك المرض برجالها، فظلّ طافي يعمل فيها: يجلب الماء ويحرث الحقل ويبني منزلًا لكلّ محتاجٍ، ممّا جعل كلّ القرية تُسلِم ويَحسُن إسلامُها على يديه.

ها هي مجهرة تتحدّث عن صلاحك وقبرك العجيب يا طافي. وحدَه الموت أنصفك وجعل هؤلاء الناكرين يعرفون من أنت. وحدَه الموت يعرف قيمة الرجال، لذا فإنّي أقسم لك وللموت ألّا أخذلكما.

أصبح يتّجه إلى المقبرة كلّما شمّ رائحة المطر حاملًا رداءً صنعه يقيه منه. كان يقوم بما يظنّ أنّ الله خلقه للقيام به: يعيد ترتيب قبور مجهرة كما يجب أن تكون. جمع الإخوة بجوار والدهم، الزوجات مع أزواجهنّ، دفع بفقراء القرية نحو المنتصف. خسروا بفقرهم في الدنيا، لن يخسروا في البرزخ. وعلى مدى سبعة أشهر كاملةٍ أعاد ترتيب أكثر من خمسة وعشرين قبرًا. ولولا إيقافه العمل خشية المطر، لتضاعف العددُ.

* * * *

هل تذكر الصبيّ الذي يُكثر الأسئلة؟ أتذكر سؤالي لك عن معاني بعض الكلمات الهنديّة التي ذكرتها لي ولم تخبرني بمعانيها؟

لم تجبني عن النساء اللواتي تزوّجت أو أحببت، ولا عن أبيك وأمّك، ولا عن قصّة البدويّ والموقف البطوليّ الذي من أجله منحك ربابته التي يحبّها. لقد رحلت الأسئلة معك أنت وظافر، ولن تعود إلّا إذا وجدت من هو كفء لتلقّيها.

لم تزدني السنتان اللتان انقضتا منذ رحيلك يا طافي إلّا يقينًا بأنّ تلك المرأة لا تحبّني وأنّ عيسى لن يعاملني معاملة الأب لابنه وأنّ الموت هو صديقي من بعد رحيلك. أخبرتني مرّةً أنّ ما جعلك أفضل النواخذة لم تكن معرفتك الكثيرَ من المهارات والمعارف، بل الربط بين ما تراه عينك وما يراه قلبك. لم أربط بين تلك الأحداث المتفرّقة إلّا مؤخَّرًا: وُلدت بجانب المقبرة، أنا الوحيد الذي دخل النبّاعة وغاب عن الوعي وظلّ وقتًا طويلًا هناك ولم يمت. تخلّت تيماء عنّي لك ولعيسى لأنتهي هنا، لتكون المقبرة هي أكثر الأماكن رحابةً وطمأنينةً وحياةً. حاولتَ كثيرًا إخباري بذلك وبأنّي مختلفٌ لكنّي لم أنتبه إلى الحقيقة الجليّة: لست ابن تيماء التي اهتمّت بزرعٍ أخضر اللون كلؤلؤٍ رديء. تركت شأن الاهتمام بي للمقبرة. لست ابنها. أنا ابن المقبرة.

(8)
سابقو الريح

تولد الأحلام ميّتةً في مجهرة. أحمق من عاش في هذا الجحيم برضاه، والأشدّ حمقًا من يعود إلى الجحيم بعد نجاته. لم يلتفت حمود خلفه ولم يلق نظرةَ وداعٍ وهو يغادر مجهرة حافي القدمين. مشى نصف نهارٍ حتّى أشفق عليه رجلٌ بعربيةٍ يجرّها حمارٌ. سأله الرجل عن وجهته في رمضاء ذلك اليوم الحارّ. جاءه الردّ: إلى أيّ مكان لا يُسمع فيه اسم مجهرة.

وُلد في الوقت الخطإ والمكان الخطإ. هكذا أخبره والده في إحدى نوبات التقريع التي يُغرقه فيها كلّما رآه. لمَ تأخّرت عن الصلاة؟ لماذا لم تسلّم على فلانٍ قبل فلانٍ الذي يصغره بشهرٍ؟ لمَ لا تُتقن صنع القهوة؟ لماذا مزّقت ثوبك؟ كانت تلك الأسئلة جرعات اعتاد عليها. كان يسمعها ولا يقول شيئًا. السرّ في تجاوزها هو الصمت وادّعاء الخنوع. بعدها ستمرّ نوبة الغضب الاعتياديّة بسرعةٍ.

واحد، اثنان... لم تسمع الأغنام القريبة رقم ثلاثة بسبب عضّه بأسنانه على ثوبه متيحًا لساقيه الانطلاق. يعرف أنّ الأغنام ستبتعد ما إن يتركها، لذا لم يكن يبتعد كثيرًا في تمارين الركض. وصل إلى صخرةٍ توسّطت الأغنامَ والمغارةَ. استدار حولها. كاد يسقط مع الالتفاف. استعاد توازنه. توقّف ليلتقط أنفاسَه. لن يسبقه أحدٌ في سباق اليوم،

لا معجب ولا سعيد ولا حتّى ... لم يكمل الفكرة. كان يعلم أنّ فرصته بالفوز ضئيلةٌ إذا كان (سِوِيْد) موجودًا. لم يسبق الريحَ أحدٌ سوى سويد، وقد فعلها مرّتين.

جمع حمود الماعز وعاد قافلًا. أدخل الأغنام في البيت، وأغلق باب الحظيرة الواسعة عليها. شرب لبنًا قبل ذهابه. اللبن ينشِّط كما يقول والده. اتّجه إلى أم المطاليب. التقى بقيّة الصبية. كان الجميع هناك ما عدا نايف أكبرهم سنًّا وهو حكَمُ السباق. ضحكوا وهم يرون مُعجب يصفع سويد على قفاه ويهدّده.

- يا ويلك إن سبقتنا يا العبد.

- اسمي مبخوت.

- اسمك سويد، أو العبد، اختر بينها.

ضحك حمود وهو يرى الصبية يتندّرون على سواد بشرة الصبيّ. لم يكن يحبّ شكله، أنفٌ أفطس مضحكٌ وأذنان بارزتان. أسماه الصبية سويد من شدّة سواده. ضحكوا كثيرًا وهم يتناوبون على صفع قفاه أو شدِّ شعره الخشن. اصطفّوا بعدما قدم نايف الذي نهرهم لسوء تصرّفهم مع مبخوت. وقال لهم: سنرى من يضحك في نهاية السباق. ألم تسمعوا جميعًا أنّ سويد سابق الريح فسبقها؟

لهث حمود وهو يرى مبخوت ينطلق كغزالٍ شاردٍ. تقطّعت أنفاسه وهو يزيد من سرعته، سويد اللعين يبتعد! وصل حمود ثانيًا مكرّرًا مركزه الذي يحصل عليه كلّما حضر ذلك الفتى الأسود. كان سويد يلهث مُرهَقًا مثله تمامًا، بل أكثر.

سأسبقك وأتجاوزك، فمثلي لا يسبقه مثلك. تأمّله. كان خصمه أطول منه قليلًا وأقلّ لحمًا. لا شكّ أنّ السرّ في هاتين الساقين النحيلتين.

لا يعلم تحديدًا متى بدأت صداقته لاحقًا مع مبخوت. ربّما يومَ اكتشف أنّ في وسعه هزمَ مبخوت إذا كانت مسافة السباق طويلةً جدًّا. كلّما ابتعدت نقطة النهاية أكثر يتباطأ سويد شيئًا فشيئًا فيدركه حمود ولا يتجاوزه إلّا قليلًا.

أنكر عليه والده كثرة جلوسه مع الصبيّ.

- تترك مجلس ابوك وتجلس مع هذا؟ أنت تدري من أبوه؟

- لا، ما أدري، خبّرني.

- عيال عمّك كثير اجلس مع أي منهم.

- خبّرني من أبوه، دايم تسألني وما تعلّمني، قل لي.

تعجّب الأب من جرأة الردّ. صفع الصبيّ، فهرول هاربًا، وتركه يلتفت إلى ابنه الأصغر:

- عويس، اياني ورياك تجلس مع أخوك الحمار وأخوياه.

لم يكن يمكث وقتًا أكثر من النوم في بيته. كان يحبّ الابتعاد عنه بقدر ما يسمح له النهار. وبعدما توثّقت عرى صداقته مع سويد، أمست المغارة مكانهما المفضّل. كانا ينطلقان راكضَين تاركَين الأغنام ترعى. في المغارة، كان مبخوت أجرأ منه فتوغّل زاحفًا. حاول حمود عدم الظهور بمظهر الخائف فتبعه. هناك في ظلمة المغارة لم يعد يراه رغم أنّه لا يزال يمسك يده. كانا يجلسان ويتحدّثان في الظلمة. أخبره مبخوت عن القصص التي روتها له أمّه وقولها إنّها وهو لم يخلقا ليكونا

من الرقيق، وإنّ والدها كان ميسورًا جدًّا حتّى إنّه أحضر أهله كلّهم للحجّ على نفقته. كانت في مكّة عندما خرجت مع والدها إلى السوق وهي صغيرةٌ. غدر بهم أحد العرب بعدما قتل أباها وسلب ما بيده من ذهب، وباعها هي إلى أحد المارّة الذين لم يفهموا صرخاتها بلغتها الأمّ. لم تنسَ أهلها. وتعلم أنّهم لن ينسوها رغم السنوات. كانت تخبر ابنها بأنّه يجب أن يتعلّم لغة آبائه لأنّهما حتمًا سيعودان. ضحك حمود وهو يسمع بعض الكلمات التي قالها مبخوت وتأتأ في نطق بعضها.

لم يرتح حمود للجلوس في الظلمة المطبقة.

- نطلع؟

- شوي، إذا سكتّ بالمرّة، تقدر تسمع دقّات قلبك هنا. تسمعها؟

لم يسمعها حمود رغم أنّه يعلم أنّ قلبه يدقّ بسرعةٍ خوفًا من الظلام الدامس.

- أنا بأطلع، ايش يجلسك هنا. ما تخاف من العقارب؟

- تظن هذا هو اللّي يشوفه عمّك طوال الوقت؟ ظلام في ظلام.

- ما أدري.

قالها حمود وهو يزحف خارجًا من المغارة، ولم يستجب لرغبة مبخوت في البقاء. رغم أنّ الشمس غابت فإنّ بجهرة بدت مضيئةً من بعيدٍ مقارنةً بداخل المغارة.

وهما يسيران خلف الأغنام التي ألفت الطريق، أخبره مبخوت عن حبّه لقريتهم التي قدمت منها أمّه بعد سماع قصصها. أخبره أنّ الجميع هناك بلونٍ واحدٍ.

- تدري إنّنا قبائلُ مثلكم؟ قبيلتنا هي (الأشانتي) تقول أمّي إنّها أشرف وأكثر أصاله من كل قبائلْكم. عندنا ملوكٌ كثيرٌ وفرسان أكثر. بيوتنا محوّطة بالأشجار والأنهار. هناك الجميع يحبّ الجميع.

كانت المرّة الأولى التي يسمع فيها حمود كلمة الأنهار. سمع عن البحر، لكنّ النهر كان عنده مجهولًا تمامًا. شعر بالسعادة عندما علم أنّ مبخوت ابن قبيلة مثله. إذن لن يستنكر أحدٌ صحبته له. أخبره مبخوت بأنّه كان يشتكي لأمّه أمر اختلافه عن بقيّة الصبية. فأخبرته بأنّه أفضل منهم جميعًا. وحدّثته عن قبيلته التي ينحدر منها والذهب الذي يخرجونه من الأرض والأنهار التي تجري بلا مستقرّ لها والأراضي التي يملكونها. توقّف مبخوت وأشار إلى أثر الوشم الذي توسّط خدّه وصدغه الأيمن. هذا وشمنا الذي منحتني إيّاه أمّي عندما كنت صغيرًا. هذا هو ما يخبر الآخرين مَن أنا، ما سيعرفني به أهلي عندما نعود إليهم. تقول أمّي إنّ الرجال في قريتي تكفيهم رؤية الوجه ليميّزوا الصديق من العدوّ، لا يعتمدون كمجهرة على الظنون الواهية والقصص المكذوبة ولون البشرة أو اللهجة.

وصلا. لم تغلق أمّ مبخوت الباب حين دخل ابنها. طلبت من حمود الدخول. كان بيتها نظيفًا ووادعًا. توقّفت بعدما أنزلت صحنًا فيه خبزٌ ساخنٌ أمامها. سألت الصبيّ:

- ركضت اليوم؟

- لا.

- لا تكذب.

التفتت إلى حمود. سألته عن السباقات، ووصفتها بأنّها سيّئةٌ. ردّ:

- والله، ما تسابقنا اليوم.

- اليوم؟ أجل تسابقتم أمس أو قبله! ما نهيتك عن السباق؟ ليه تتسابقون؟ إيش تستفيدون؟ بتاخذون جايزة؟

- لا.

- أجل ليه التعب والمخاطرة! إن كانت مرقتك ماء، فلا تتعب نفسك بالوصول لقاع القدر.

لم يفهم حمود ما قالت. ولم يعِ قصدَها بالمخاطرة. سألها عن الأنهار ما هي؟ ضحكت وانطلقت تصف شيئًا كالبحر لكنّه طويلٌ، عذبٌ، وأكثر نقاءً، يمرّ بالقرى فيُهديها حياةً. كانت تقبّل رأس مبخوت وتشمّه كلّما مرّت بجانبه مكرّرة كلمة (أودو). هل هذا هو اسمك في لغتكم يا مبخوت؟ عندما ينحني عليّ والدي أستعدّ لصفعةٍ أو لطمةٍ.

فكّر حمود وهو يأكل الخبز الذي صنعته المرأة: لماذا لا تغادر الآن عائدةً إلى قريتها؟ هل آفريكا هذه بعيدةٌ؟ لم تعد عبدةً لأحدهم. هل كانت تنتظر الزواج من جديدٍ ليأخذهم الرجل إلى هناك؟

قبل أن تغلق الباب، طلبت من حمود الانتظار. خفضت صوتها وأخبرته بأنّ الجري يُتعب صدر ابنها. ورجته أن يمنعه من المشاركة. الجري يتعب سويد؟ ماذا عن الجري والخسارة! ألا يُتعبان مَن خلفه؟ لم يقل لها شيئًا.

* * * *

كان الرجال قد اجتمعوا بعد صلاة العيد. طلب أحدهم من الصبية أن يتسابقوا. خطّ أحدُهم برجله خطًّا متعرّجًا على التراب. اصطفّ الصبية. التفت حمود ليتأكّد أنّ الخطّ لم يمنح سويد أفضليّةً. قاطع حمود الرجل الذي بدأ العدّ. سأل عن الجائزة. نعم، فلمَ نتسابق عبثًا بلا جائزة؟! سأل حمود فردّ الرجل: «اطلب الجايزة من أبوك».

«الجايزة عندي»، قالها أبوه وهو ينظر إليه بلا مشاعر واضحةٍ.

«لا يسبقكم العبد»، صرخ أحدهم وهو يرى الصبية ينطلقون. سمعه حمود، وسمع لهاث سويد يبتعد أمامه بسرعةٍ لم يتخيّل أنّها تكون لبشرٍ. كان لهاثه مختلفًا. لمس كلٌّ منهما الشجرة التي حدّدها الرجل. وانطلقا عائدين. رأى في عودته بعض الصبية متوقّفين وهو يسمع آباءهم يصرخون فيهم باستياءٍ. بدأ يقترب من سويد. المسافة بينهما تتقلّص. كان يعلم أنّ الساعات التي قضّاها في التدرّب ستؤتي ثمارها هنا أمام والده وكلّ الرجال. نظر إلى قدمَي سويد أمامه. راودته رغبة في القفز والإمساك بهما. هل سيستطيع سحبي معه؟ هل سيجرّني في الهواء لا تلامس قدمي الأرض وأبقى معلّقًا كعلَمٍ يرفرف؟!

مدّ الرجل يديه إليهما من بعيد. مَن يلمسها أوّلًا سيفوز. كان الرجل يصرخ مشجّعًا حمود. كان الجميع يهتفون لحمود. شحنته الصرخات بطاقةٍ جعلته يقلّص الفارق إلى مترين فقط. وصل سويد قبله. رآه يمدّ يده نحو يد الرجل. لم يلمسها. رفع الرجل يده فجأةً فأخطأها سويد. لمس بعدها حمود يد الرجل الأخرى التي كانت تنتظره. وبين صرخات الرجال وضحكات بعضهم ولهاث مَن وصل بعدهم من الصبية،

رأى حمود سويد راكعًا، ممسكًا صدره، يصارع لسحب الأنفاس وهو ينظر إلى الرجل وإليه. عندما أعلن الرجل أنّ حمود هو الفائز، سقط سويد أرضًا. توجّه حمود إليه. كانت عيناه تدمعان وفمه مفتوحًا محاولًا سحب أنفاسٍ عصيّة.

قيل إنّ سويد كان يسابق الريح فيسبقها. غارت منه الريح صباح ذلك العيد. وعندما أنهى السباق أحسّ الجميع بهبّة نسيمٍ لطيفةٍ وصلتهم جميعًا ما عدا سويد. ظلّ يمسك صدره وهو يصارع في سبيل شهيقٍ واحدٍ، لكنّ الهواء غدر به انتصارًا للريح وتركه مفضّلًا أن يهبّ بنسماته العليلة على مَن لم يشارك في السباق. هناك وفي يوم العيد أمام الرجال، لم ينهض مبخوت من مكانه. حملوه جثّةً هامدةً إلى بيت أمّه. مات مبخوت. قيل إنّ قلبه الضعيف لم يتحمّل طول السباق. وقيل إنّ أبا معجب (النُّضُول) رماه بعينٍ تفيض حسدًا عندما رآه ينطلق كالحصان أمام الصبية. وقال ابن رحيّم، محاولًا تعزيز القصص التي تجعل البعض يخشاه، إنّه هو مَن نال فضلَ إصابته بالعين.

* * * *

لم يُدفَن مبخوت ذلك اليوم. أخبروا أمّه أنّ القبر الوحيد المحفور سيوضع فيه عامر الذي توفّي عصر ذلك العيد. تبرّع أحد الرجال وحفر قبرًا على أطراف المقبرة دَفن فيه من بقي من المعزّين الصبيَّ بعدما انصرف معظم رجال آل صميخ وأوّلهم أبو حمود لحضور عزاء الشيخ عامر، أبي شرعاء ذات الثماني سنين، شرعاء التي كان مبخوت يعطف عليها ويجلس للّعب معها. جلس حمود في بيته ذلك المساء

مصعوقًا ممّا حصل. رحل مبخوت، رحل مَن كان يهتمّ لأمر الأبكمَين شرعاء وأخيها الصغير، مَن يهتمّ بعمّي يعقوب الأعمى وبفقراء مجهرة وخرفانها التي ضُحّي بها صباح العيد! لن يكبر مبخوت. ولن يتقدّمهم جميعًا في السباقات. لن يجمع المال ويأخذ أمّه إلى قريتها كما وعد. وحيدٌ هو الآن في قبرٍ مظلمٍ. هل سيستأنس بظلمة القبر كما كان يفعل في قلب المغارة؟ رحل وهو يعلم أنّه الفائز الأوّل بالسباق لا أنا. رحل وهو يراني صامتًا أستقبل عبارات التهنئة لأنّي الوحيد الذي سبق «العبد».

لم ينم إلّا عندما طلع الصباح. استيقظ بصعوبةٍ على ركلة مفاجئةٍ من قدم والده الصارخ:

- قم يا قليل النفعة، قم، ايش مسهّرك؟ تفكّر بالجايزة؟ جايزة عشانك سبقت لك عبد؟ والله ما تشوف قرش. قم صلّ ورح مع عمّك للسوق شف ايش يبغى.

صلّى الظهر. وبعدما غادر جميع مَن في المسجد، استلقى على ظهره وتأمّل السقف وأعمدته وما به من جذوع النخل وأغصان الأثل. أراد النوم. لم يستطع. صوت لهاث مبخوت يتردّد في المسجد. خرج هاربًا، وركض حافيًا، عسى ذلك الصوت أن يخفت. همّ بالذهاب إلى المغارة، لكنّه استحى من مبخوت. توقّفت أمامه عربةٌ يجرّها حمارٌ. سأله صاحبها عن الجهة التي يودّ الذهاب إليها. وبينما كانت قدمه تتحسّس أرضيّة العربة الخشبيّة ومساميرها، نظر إلى الحمار أمامه يتحمّل الضربات التي أرسلها الرجل من عصًا في يده.

«لعن الله الرجال، ولعن الله الهواء، ولعن الله مجهرة كلّها»، ردّد في خفوتٍ، وأقسم ألّا يعود إلى مجهرة أبدًا.

* * * *

لا يعلم لما استقرّ به الحال مع البدويّ. أصبح يرعى الإبل مقابل منامه وأكله. منحه ذلك الرجل فرصة الالتقاء بكلّ الرجال الذين قدموا لشراء أباعر أو نياق. أنت رجل قليل الكلام، قالها البدويّ القصير قبل أن يتركه مع الإبل. ولم يردّ عليه بغير الصمت. عاد البدويّ بعد أسبوعٍ، وعرض عليه أن يرافقه في رحلةٍ سيأخذ فيها الأباعر ويحتاج إلى شابٌ صموتٍ مثله. قضّيا أسبوعين يسيران فيهما فجرًا، وإذا اشتدّت الظهيرة يتوقّفان، ثمّ يعاودان المشي حتّى المغيب. عندما اكتمل البدر صار الليل رفيق مسراهما وفي النهار يرتاحان. لم يحبّ حمود المشي ليلًا. منعه السير من الاستمتاع بصوت الربابة التي مع البدويّ وقت التوقّف. سمع في نغمات صوته الحزينة قصّة ذلك الطفل الذي رحل مع أهله وظلّ يجوب العالم بحثًا عن منزلٍ قديمٍ ماتت فيه أمّه. مدّ حمود يده ذات ليلةٍ ليلمس الربابة بعدما أنزلها الرجل بجانبه. فضربه البدويّ بقوسها على يده. وقال بهدوءٍ دون أن تفارق عينُه الربابة:

- هذي ربابة أبوي، ما لمسها أحد بعده غيري.

كان البدويّ يمشي في الصحراء من دون تردّدٍ حتّى في غياب أيّ علامةٍ من شجرٍ أو جبالٍ على جنبات الطريق. كيف أعرف دربي؟! ردّ البدويّ مستنكرًا بعدما سمع سؤال حمود. أشار الرجل القصير إلى

قلبه وقال: هذا اللّي يعلّمني. وصلا قُبيل المغرب إلى بيت شَعَر توسّط بعض الخيام. خرجت إليهما فتاةٌ مرحّبةً بصوتٍ عالٍ. هذه (موضي) التي حدّثني عنها! ألقت السلام على حمود وهي تشير إليه ليقود الإبل نحو حوض ماءٍ كبيرٍ.

ثلاث سنوات قضّاها مع البدويّ لم يتجرّأ خلالها على التعبير عن إعجابه بها. لا يوجد أمرٌ تعجز هذه الفتاة عن فعله. في إحدى الليالي أخبره الرجل بأنّه سيمنحه بَكْرَةً جزاءَ أمانته وشهامته. تقلّب على فراشه ليلتها. سرح مع النجوم في السماء. لم آتِ إلى هنا لأكون ابنًا لك أيّها الرجل الطيّب. لم أُخلق لأكون ابنًا صالحًا ولا زوجًا صالحًا. في الصباح، وبعد أن انتهى من القهوة التي صنعتها لهما موضي، أخبر الرجل بأنّه لن يأخذ البَكْرَة لأنّه سيرحل.

- شفت منّي أو من أختك سوء؟
- ما شفت إلّا الخير.
- أجل هي البكرة؟ تبّي غيرها؟ اطلب اللّي تبّي واختر من الإبل وما طلبت جاك، تبّي بكرتين؟

أخبر حمود الرجلَ بأنّه يرغب في السفر إلى أهله. كان يكذب. ماذا عساه أن يقول؟ أقسم البدويّ ألّا يدعه يمشي راجلًا. أعطاه ناقةً. وطلب منه أن يبيعها إذا بلغ أهله ويشتري زادًا وهدايا لهم. ركب الناقة، فوجد على ظهرها خُرجًا. لم يفتحه. رائحة القهوة أخبرته بما فيه. ركب الناقة بعدما قبّل رأس الرجل. صاح الرجل بابنته لتسرع في قدومها من بيت الشَّعَر. رآها تأتي وهي تحثّ السير وفي يدها خُرْج

صُنِع من وبر ناقةٍ حمراء. أعطته لأبيها فامتدّ بطوله محاولًا إيصاله إلى حمود. رأى حمود الخُرجَ ورفع عينيه بدهشةٍ محاولًا ردّه إليه، لكنّ البدويّ أقسم أن يقبل هديّته. تمتم حمود بكلماتٍ مبهمةٍ. فقال له بنبرةٍ خافتةٍ وهو يضرب جنب الناقة لتنطلق:

- ما خبّرتك كثير كلام يا ولد. رَوِّح الله يسمح دربك.

سارت به الناقة حتّى بلغ سوق الحلال وقد امتلأ بباعة الإبل والغنم. قبض ثمن الناقة وركب مع أحد الرجال في سيّارته منطلقًا في طريقٍ مجهولٍ. سبق أن رأى سيّارات تعبر القرية، لكنّها كانت أوّل مرّةٍ يركب فيها هذه العربة الحديديّة التي أنزلته بإحدى مدن الساحل. رأى السفن والبحر ولم يفهم ما تعني. أخافه منظر السفن وهي تتهادى وتتمايل بلا توقّفٍ على صفحة الماء. في الصحراء كانت الأرض ثابتةً. أمّا هذا الشيء فكان صحراء مختلفةً. قضّى يومين يرى الرجال ينزلون ويصعدون تلك المراكب. حمل أمتعته وعزم على خوض تجربةٍ جديدةٍ، تجربةٍ غير مريحةٍ. شفع له طوله وموافقته دون جدلٍ على الأجر الذي ذكره أحد الرجال لينضمّ إلى فريق أحد المراكب.

كان يتساءل عن مدى قدرته على الصبر في هذه المغامرة مدّةَ ثلاثة أشهر متواصلةٍ من دون أن يرى اليابسة. لم ينتبه إلّا وقد مضت خمسون سنةً، خمسون عيد أضحى قضّاها وهو بحّارٌ.

في رحلته الأولى سخروا منه ومن تكرار استفراغه عندما يرفعهم الموج عاليًا. ما للبدو والبحر؟ سأله أحدهم. أصبحوا يسمّونه البدويّ بسبب اللهجة التي علّمتها إيّاه الصحراء وقهوة الرجل القصير. صبر

على سخريّتهم وداواها بالصمت. لم تمض ثلاث سنوات إلّا وهو يتحوّل من صبيٍّ يخدم البحّارة إلى مهمّة بحّارٍ، ممّا أكسبه إعجاب البعض وغيرة كثيرين. كانوا يتندّرون عليه وعلى بداوته والخُرجَين اللذين يحملهما معه أينما ذهب. لم يتنقّل بين المراكب كما كان الرجال يفعلون، بل بقي مع النوخذة يونس سنواتٍ طويلةً. تعلّم منه الحساب والصبر والعدل. قال له يونس إنّه يرى فيه نجابةً، وإنّه لم يخلق إلّا للبحر، ولو واصل معه بإخلاصٍ فسيكون نوخذة يومًا مّا قبل أن يصل الخمسين. «ليت عندي ولد مثلك يا حمود، ليتني عرفتك قبل ما أزوّج ظبية لابن عمّها»، قالها يونس عندما أصابه العشى وخانه البصر. كان يقرّب حمود إلى جانبه ليصف له مواضع النجوم سرًّا، ولم يفشِ حمود سرّ علّة عينَي النوخذة للرجال ولم ينسَ له النوخذة ذلك. وعندما كان الرجال يستعدّون ذات يوم لدخول البحر شاهدوا رسول القصر يطلب من النوخذة تركَ ما بيده ومرافقته لملاقاة الأمير في المدينة. التفت يونس إلى الرجال:

- أنا رايح للأمير، وروحتي ورجعتي بتاخذ ثلاثة أيام أو تزيد، ويمكن يطلب الأمير قعدتي عنده.

احتجّ الرجال فصرخ فيهم يونس مطمئنًا:

- المحمل بيدخل البحر اليوم. وما راح يتعطّل بسببي.

سأل ابن خلفان:

- من نوخذتنا في غيابك؟

اشرأبّت أعناق الرجال الذين طمح القدامى منهم إلى أن يؤمّرهم

يونس ويعلن نيابتهم عنه خلال غيابه. سمعوا يونس يرفع صوته بعدما فكّر قليلًا:

- نوخذتكم البدويّ حمود.

علا الهرج بين البحّارة. رمى أحدهم ما بيده في الماء بانزعاجٍ وغادر الحشد. تبعه آخر. صرخ يونس فصمت الباقون:

- المركب مركبي، وأنا أعرفكم بالبحر، ما فيكم من يعرف البحر مثل البدوي ومن يقول غير كلامي فيتوكّل على الله ولا عاد أشوف وجهه.

شاهد يونس أربعة يغادرون. وعندما صرخ في مَن تبقّى من الرجال ليواصلوا العمل، انزوى بحمود وهمس له:

- الله الله في المركب، وفي الرجال.

- يا نوخذة ما أدري ايش أقول، ما خلّيت أبو مجول ولا ابن خلفان؟

- أبو مجول حار على الرجال، ما يحب أحد وما أحد يحبّه. وشوفة عينك هذا هو ترك المركب وراح. ما عنده صبر ولا حكمة. وابن خلفان فيه بركة لكنه طيّب وضعيّف والرجال يبّون نوخذة قوي ما يتراعد ويهتز وقت اللّزوم.

غادر النوخذة يونس مع رسول الأمير. وانضمّ حمود إلى الرجال الذين لم يبذلوا جهدًا في إخفاء امتعاضهم من ذلك القرار الغريب. عاد حمود بالمركب بعد شهرٍ قضّاه وهو يسمع تعليقات البعض الذين لم تنفع معهم معاملته الحسنة كما نفعت مع غيرهم. كان يونس في

انتظاره. بادر البعض بالشكوى إلى يونس من بعض قراراتٍ اتّخذها حمود وبعدما سمعهم، التفت إلى حمود:

- ايش تقول يا حمود.

- أقول يا نوخذة إن اللّي ما يسمع كلام نوخذته ماله محل في محملي.

ضحك الرجال. محملك؟ سأل أحدهم.

- هو صادق. النوخذة هو راعي المحمل ومن عنده غير هالكلام يدوّر له محمل ثاني.

جاء صوت النوخذة يونس حاسمًا. يومها بدأت القصص عن بدويٍّ من الصحراء عاد للتوّ من رحلته الأولى وهو نوخذة بحر.

- كم سنينك يا حمود؟

سأله النوخذة وحمود ينحني عليه مقبّلًا أنفه.

- حول الخمسين.

تبسّم له يونس غير مصدِّقٍ ما سمع. وحدَه حمود يعرف عمره الحقيقيّ. لم يكن جاوز الثانية والثلاثين.

* * * *

انتشرت قصص النوخذة الجديد. وكان كلّ موسم غوص يشعل نار الإشاعات والقصص عن البدويّ الذي قدم من البرّ فملَك البحر. أحبّه بعض النواخذة وسخر منه الآخرون، لكنّ تلك السخرية والشكّ في قدراته غرقت كلّها مع مَن غرق في ليلة الطوفان.

كان الطقس ملائمًا، وقد أنهى الرجال للتوّ نزلتهم الأخيرة إلى الماء وعادوا بعددٍ لا بأس به من المحار. وبعد أن مسحت مواويل النّهام على همومهم وهيّجت ذكرى المحبين، ناموا. نظر حمود إلى النجوم التي غاب عنها القمر. وحدَها الصحراء تشبه البحر. لم يكن بدويًّا كما قالوا عنه، لكنّه أحبّ البدو وكثبانَ الرمل أكثر من أمواج البحر، على ما بدا له من تشابهٍ. البحر والصحراء يمتدّان كلاهما إلى الأفق. كلاهما يجعلان السماء أشدّ سوادًا ونجومها أشدّ لمعانًا. كلاهما يدعوان إلى التأمّل والتفكير. حدّق في السماء. لم يكن يسمع سوى صوت البحر، ذلك الصوت الذي يجعلك تحتار وقت سماعه. إن تذكّرت وجوده سمعته، وإن سرحت عنه اختفى. أغمض عينيه. غاب صوت البحر. سمع ضرباتٍ مكتومةً منتظمةً، لم يسمعها من قبل. التفت. لم يعرف مصدرها. وضع يده على صدره. أحسّ بها وسمعها جيّدًا. أدرك، وهو يسلّم نفسه لبراثن النوم، أنّ ذلك الصوت قادمٌ من صدره. كان صوت ضربات قلبه.

حلم بمجهرة وبالمغارة. سمع شهقات مبخوت وهو يركض أمامه. وبعد أن أخطأت يد مبخوت يد الرجل الذي منح حمود فوزه المزيّف، شاهد مبخوت ينظر إليه بابتسامةٍ ثمّ يشير إلى السماء وهو يحاول بصعوبةٍ سحبَ نفسٍ. نهض حمود مذعورًا. ذهب إلى الخُرج وأخرج دفتره الصغير. تفحّصه على ضوء سراجٍ أزعج الظلمة التي كانت تحيط بالمكان.

صرخ في الرجال. نهضوا مذعورين وهم يسمعونه يأمرهم برفع المرساة وفردِ الشراع. لم يفهموا ما يجري. استجاب ابن خلفان لنوخذته

وطلب من الرجال الجدَّ وعدم إضاعة الوقت في الأسئلة. انتصبت قامته أعلى من الرجال وهم يعملون بسرعةٍ ناسبت الذعر الذي بثّته فيهم صرخات حمود. نظر ابن خلفان ويده ترتعش إلى النوخذة. لم يسأل بلسانه. ترك المهمّة لعينيه. فأجابه حمود:

- حسبتي غلط، ظنّيت اليوم هو راس الشهر.

- هو راس الشهر، هذي حسبتنا كلنا.

- لا، أمس هو راس الشهر وحسبتنا كلنا غلط، الليلة بتضربنا عاصفة قويّة الله يستر علينا منها.

- عاصفة والليلة؟

سمع ابن خلفان مِن يونس الذي يعرف البحر جيّدًا أنّ هذا البدويّ حاذقٌ، لكنّ الطقس كان عليلًا ولا بوادر لأيّ عاصفةٍ. لم يعترض.

- وين نتوجّه؟

- للجبل، إن ستر الله علينا ووصلناه قبل العاصفة يمكن نحتمي به.

روى ابن خلفان لكلّ من سأله عن تلك الليلة ما جرى. أخبرهم أنّهم رغم الظلام الدامس رأوا عددًا من المراكب التي بقيت في مكانها، ابن سديران خير من ركب البحر وبشهادة يونس نفسه كان هناك ولم يحرّك مركبه «هل بتعرف أكثر من ابن سديران؟»، سأل أحد البحّارة فلم يرُدّ حمود. أبحر الرجال ساعاتٍ طوالًا تلك الليلة، وكاد يُهلكهم التعب. ومع أوّل نور اليوم الجديد رأوا الجبل. داروا حوله من الجهة

الأخرى مستترين به سدًّا أمام الريح التي لم يرَوْها بعدُ. وما كادوا يقتربون منه حتّى بدأ البحر يموج. استطاعوا إرساء المركب بعناءٍ. حال البحر الذي هاج فجأةً بينهم وبين راحةٍ ظنّوا أنّ وقتها حان بعد ليلٍ طويلٍ.

هلك يومها خلقٌ كثير. غرقت المراكب. لم يحترم البحر الغدّار سمعة النواخذة. ابتلع ابن سديران واللومي وابن عبد الحقّ ومراكبهم، وهم الذين كانوا قد نجوا من حادثتي (الغرقة) و(السيل) اللتين ذهبتا بخلقٍ كثيرٍ. اليوم، وحدَه مركب حمود نجا دون أيّ خسائر. لم يسخر أحدٌ منه بعدها. أصبح حديث البحّارة. صاروا يتسابقون جميعًا للانضمام إلى محمله. سارعت الأرامل إلى إرسال أبنائهنّ ليتدرّبوا على يديه. الله وحدَه الحامي، لكنّ مركب حمود يجيد التعامل مع غدر البحر. ومعه وحدَه سيكون أولئك اليتامى أوفر حظًّا من آبائهم.

أسماه الرجال طافي، لأنّه الوحيد الذي لم يغرق، ولأنّه أصبح نوخذة وهو لم ينزل للغوص بل يظلّ على السطح دومًا كجذع حطبٍ يطفو ولا يغرق. وهذا ما لا يصدّقه ابن خلفان الذي يردّ دومًا بأنّ طافي كان في بداية حياته غوّاصًا ماهرًا جمع من المحار ما لم يجمع غيره، لكنّه وصل ذات يومٍ إلى عمقٍ لم يبلغه بشرٌ فخرجت له جنّيّة القاع وأمسكت بقدمه ولم تتركه إلّا عندما أقسم ألّا يعود إلى الغوص أبدًا.

لم يزعجه الاسم الجديد، بل راق له مع الوقت. فهو يقطع آخر الروابط بينه وبين والده الذي اختار له حمود اسمًا. لم يكن طافي الاسمَ

الوحيد الذي وسمه به الرجال، لكنّه الأشهر. فعندما اشتهرت تلك العاصفة التي جلدت أرواحهم بحادثة (الطوفان)، أطلق البعض عليه اسم (نوح). كان طافي يبتسم ويكتفي بالصمت أمام تلك التسميات.

ها قد أصبحتُ نُوحًا وطافي والنوخذة، كما كنت أنت سويد والعبد وأودو. لم يعد أحدٌ يسمّيني حمود، مثلما توقّف الصبية عن مناداتك بمبخوت.

استأذن من النوخذة يونس، وهو يقدّم له صندوق اللؤلؤ الذي جمعه الرجال. أخبره بأنّه دفع لكلٍّ منهم أجرَه. وجعل بقيّة المال في يد يونس. عرض عليه يونس الزواجَ من ابنة صاحبٍ له. ضحك، وقال إنّه قريبًا سيتزوّج قريبته. كان يكذب. أخبر يونس بأنّه سيتغيّب مدّة أشهرٍ. استلم من يونس أجره. لقي ابن خلفان، وأوصاه بأن يذهب إلى مجهرة ويبحث عن أخيه عيسى ويعطيه المال. صارت هذه عادةً سنويّةً يقوم بها ابن خلفان. في المرّة الأولى طلب منه أن يقسم المال بين أخيه عيسى والمرأة السوداء في القرية، فإن لم يجد عيسى على قيد الحياة فليعطِ ما لديه لعمّه يعقوب الأعمى، فإن مات هو أيضًا فليرجع المال إليه. عاد ابن خلفان ليخبره بأنّه وجد عيسى حيًّا معافًى. أمّا الأعمى فقد رحل عن دنيانا. وأخبره بأنّهم كانوا يسمّونه يعقوب الأزرق. لماذا أزرق؟ تساءل حمود. لم يجب ابن خلفان. وإنّما أخبره بأنّه لم يجد امرأةً سوداء وأنّ عيسى قال له إنّ المرأة السوداء الوحيدة التي يذكرها غادرت القرية بعد رحيل طافي بسنواتٍ قليلةٍ. لا أحد يعلم إلى أين. أنا أعلم يا ابن خلفان. لقد عادت إلى قريتها وأهلها.

غادر بيت يونس. وركب سفينة متوسّطة الحجم. سعد ربّانها عندما علم أنّ مركبه يحمل النوخذة طافي. انطلق المركب أيّامًا وليالي حتّى بلغ اليمن. ومنها انطلق بمركبٍ آخر نحو الحبشة. عثر على رجلٍ قبِل بمرافقته والعمل معه في طريقه ترجمانًا. لم يخبر أحدًا من الرجال بما فعل في السنة والنصف التالية التي غاب خلالها في أفريقيا. قيل إنّه انضمّ إلى إحدى القبائل وعاش فيها سنةً كاملةً. ولا أحد يعرف السبب. وقيل إنّه وقع في حبائل فتاةٍ زنجيّةٍ لم تتركه إلّا بعدما منحها طفلين. ويقول ابن خلفان إنّه لقي رجلًا في حضرموت يعلم ما حدث وإنّ طافي عاش في قريةٍ صغيرةٍ بجانب نهرٍ يدعى انتوا-نياما وإنّ أهل القرية اعتبروه أحدَ أبناء القبيلة فمنحوه وشمَهم وأسموه كوابينا أوو. يقول ابن خلفان إنّه همس بالاسم مرّةً فالتفت إليه طافي دون أن يشعر، ثمّ تظاهر بأنّه لم يسمع شيئًا.

سنة ونصف لا يعلم أحدٌ حقيقة ما حصل فيها. عاد طافي بعدها إلى الساحل فوجد المرض قد طرح النوخذة يونس. وعندما عاد من دخلته الأولى إلى البحر ذلك الموسم وجد يونس قد مات. لم يكن ليونس أولادٌ. أنجب ابنةً وحيدةً زوّجها لابن عمّها قبل ظهور طافي. ذهب طافي إلى ظبية وعزّاها في رحيل والدها. سألته أن يتولّى كامل أمور المحمل مقابل أن يكون شريكًا فيه.

وهو يمدّ يدًا ثابتةً كصخرةٍ أمامه، أخبره ابن خلفان أنّ عيسى قرأ عليها القرآن وتلا أدعيةً كثيرةً خفّفت من رعشتها يومًا بعد يومٍ. وأخبره بأنّ سالم الجبر توفّي وأنّ ابنته كادت تفقد طفلها الذي أسقطته

قبل موعده بسبب الفاجعة. وذكر له أنّ عيسى استطاع شراء أرض جاره وأضافها إلى مزرعة أبيهما.

ها أنا على مشارف الستّين، لا زوجة ولا ذرّيّة، ولا منزل مكتمل. كسبت احترام الرجال والتجّار. يقول ابن خلفان وآخرون إنّ مجهرة تغيّرت بعدي وإنّ عيسى يدعو الله أن يعيدني سالمًا. يقول إنّ الرجال هناك يتلقّفون أخباري بفخرٍ: ولدنا هو أطيب النواخذة.

الآن فقط أصبحت ابنكم الذي تفخرون به. أقسم ألّا أدخل تلك القرية الخبيثة حيًّا.

* * * *

عند مدخل مجهرة، قبيل مغيب الشمس، وقف حمود ينظر إلى القرية. تأمّل حذاءه، ثمّ بدأ يمشي وهو يعرج. اللعنة، تبدو القرية أقرب ممّا أذكُر!

التفت إلى المغارة البعيدة وهو يلهث. تسعة وأربعون عيد أضحى مرّت منذ رحيلك يا مبخوت. لم أُرِد العودة. لم يعد اللؤلؤ مربحًا كما كان. لعن الله الآلات التي سلبت مهارة الرجال واحترامهم الذي يستحقّونه. السنّ ورُكبتي التي بدأت تخونني جعلتا الحياة أصعب.

وقف شابٌّ بسيّارته عارضًا عليه إيصاله. لم يتعرّف إليه الشابّ الأصلع الذي انشغل بالراديو. توقّفت السيّارة عند جدارٍ قصيرٍ نسي طافي ما يكون. كان الصبية يصرخون ويشيرون نحو الجدار. علم أنّ أحدهم غرق. نزل بصعوبةٍ تاركًا السيّارة وصاحبها. قد تكون الركبة عاجزةً لكنّ الذراعين لا تزالان كالحديد. تعلّق ورفع جسمه المستدير

فوق الجدار. نظر إلى حيث أشار الصبية أسفل الماء. دائرة سوداء تحذّره من الاقتراب. سمع هتافًا بجانبه يقول إنّ صبيًا مجنونًا غاص في الأسفل ولم يخرج. لا، لم يدفعه أحدٌ، أجاب أحدهم بل غاص ليفوز بتحدٍّ.

هل أصبح الغوص تحدّيًا! يا للصبية الحمقى! وهنا في مجهرة!

نظر إلى الماء أمامه. اللعنة، هل وصلت يا (أوكومفو) إلى هنا بحثًا عنّي؟

جئتك يا مجهرة مادًّا يدي للصلح، وها أنت تحاولين قتلي ساعة وصولي! تركتك عندما غدر هواؤك بمبخوت وترك صدره بِلا نفسٍ. وها أنت تسلبين صبيًا آخر الهواءَ لأنّه يسابق غيره! أقسم بالله الذي أخرج الحيّ من الميّت ألّا أخرج إلّا وهو معي حيّ، أو يتمّ إخراجنا جثّتين معًا.

دفع جسده نحو الماء. فسقط كصخرةٍ كبيرةٍ هرب منها الماء متسلّقًا الجدران القريبة.

سمع طافي دقّات قلبه بوضوحٍ كبيرٍ كان سيثير حسد مبخوت لو علمه. ما أشدّ وحشة المكان! لا تقلق أيّها الصبيّ المجنون. لن ترحل وحيدًا بسبب السباق. أنا خلفك. لطالما كنت الثاني في مجهرة.

* * * *

قبّل عيسى أنفَ أخيه. وأدخله الغرفة كي يجفّف جسده ممّا أصابه من بللٍ. لم يتحدّث كثيرًا، لم يسأل عيسى أخاه مطلقًا عمّا فعل خارج القرية. كان يهتمّ به ويجلس للحديث معه عن كلّ شيءٍ إلّا عنهما وعن والدهما.

كم كبرت يا عويس! غزا الشيب وجهَ أخي، الصبيّ الصغير! كلّ الشيب وقارٌ إلّا شيب الحاجبين. تعاقب الأهوال هو ما يجعلهما يشيبان وليس تعاقب الأيّام.

أولم عيسى فحضر الرجال. سمع حمود بنشوةٍ أوّل الأسئلة عن طافي وقصصه العجيبة. لا شكّ أنّ القصص تنمو جيّدًا في مجهرة. لا يزال يحسّ بألمٍ في ذراعه وصدره من حادثة اليوم. عرف سعيد من عينيه، وعندما بادله التحايا سمعه يسأل:

- حمود، تذكر سباقاتنا وحنا صغار؟ تذكر العبد؟

صمت طافي. تغيّرت الملامح ولم تتغيّر الطبائع! الغيبة والعنصريّة لا تزالان حاضرتين. لم تَزِدْكم الأيّام إلّا وقاحةً آل مجهرة! تمتم طافي باقتضابٍ وتعلّل بتعبه وانسحب إلى الغرفة المجاورة.

هل سأعيش أيّامي هكذا؟ قهوة ساخنة وحديث بارد مع عيسى تطرّزه أحيانًا قصص المرضى والموسوسين! لم يحضر أيَّ واحدةٍ من جلسات العلاج والقراءة. ولم يستجب لتلميحات عيسى وهي ترجوه مرافقته إلى المسجد. كان يستيقظ من فراشه ويمشي خطواتٍ معدوداتٍ إلى المتكإ في منتصف الغرفة وبين حينٍ وآخر نحو الحمّام. أصبحت هذه هي المحطّات التي يبحر إليها كلّ يوم؟ ما أقبحك يا مجهرة وما أشدّ لياليك البطيئة! كلّ مَن فيك مملّ. وكلّ ما فيك مملٌّ. لا مغامرة ولا مغامرين! لا أحد يستحقّ الاحترام. هكذا تململ حمود حول كلّ ما يحيط به، حتّى ظهر الصبيّ.

استعان حمود بالظلام الذي لفّ غرفته فأخفاه عن الآخرين.

وأطلق لعينيه العنان تتفحّصان المرأة والصبيّ اللذين قدما. عرف أنّ الصبيّ هو مَن كاد يغرق ويُغرقه معه. نظر إليه متفحّصًا. كان مختلفًا. كان حيًّا هذا المساء.

سأل عنه عيسى. فأخبره أنّ الصبي ولد في قبر جدّه! عجبًا، وُلد تحت الأرض؟ خلق الله البشر ليولدوا ويعيشوا ويرحلوا هنا بالقرب من سطح الأرض، لا تحته. وحدَهم الموتى يتحمّلون القاع. عندما أموت، سأطلب ألّا يدفنوني، وأن يتركوني لتأكلني الطيور وتحملني معها بعيدًا، بعيدًا عن القاع.

- اللّي يسمعك ما يقول إنك غيص!

ردّ عيسى ضاحكًا.

لن أهشّم الصورة الجميلة التي رسمتها عنّي مجهرة وخصوصًا لدى أخي الصغير. لا شكّ أنّه استخدمها لرفع ثقته بنفسه بين هؤلاء الأوغاد الذين لا يعرفون أصول الاحترام.

كان الفضول هو ما جعل حمود يسعد بقدوم الصبيّ ليسكن معهما. وجد فيه براءةً لم يرها إلّا في مبخوت. رأف بحاله وهو يرى أمّه تتركه ولا تعاود القدوم لزيارته. لم يسأله الصبيّ عن مجهرة مطلقًا، وهو ما جعله يرتاح. وحدَه البحر سيطر على مخيّلة الصبيّ ولا سيّما عندما علم أنّ الماء هو سبب مرضه الذي أرهقه. قال له الصبيّ إنّهما مختلفان جدًّا:

- أنت تحبّ الماء وتعرف الغوص وسافرت كثيرًا، لا البحر هزمك ولا العواصف كسرتك. أمّا أنا فعرَقٌ بسيط يتعبني ومطرٌ خفيف يطرحني.

هل يخبر الصبيّ؟ لن يصدّقه لو أخبره بالسرّ الذي كتمه أكثرَ من أربعين سنةً. هل سيصدّق الصبيّ وابن خلفان ويونس والبحّارة؟ بل هل سيصدّق البحر نفسه أنّ طاقي الجبّار، طاقي النوخذة، نوحًا الذي قهر الطوفان، لم يكن يعرف السباحة!

عندما قيل له إنّ النوخذة يونس يبحث عن مساعدين، سأله رجلٌ: أتعرف السباحة؟ أومأ إيجابًا. وهكذا أصبح يعرف السباحة أمام الرجال. لم يجد فرصةً ليتعلّم. وأدرك أنّه يقامر بحياته في سبيل مغامرته ورحلته العظيمة. وحدَه النوخذة الجيّد لا يحتاج إلى تعلّم السباحة. هل ستصدّق أيّها الصبي العجيب أنّ أوّل نزولٍ لي تحت الماء كان بسببك! ستّون عامًا لم يغمرني الماء فيها. نجوت من البحار والخلجان. ركبت أنهارًا. قطعت انتوا-نيها عشرات المرّات ولم يمسسني ماءٌ. وهأنذا، أقارب الستّين، أقدم على تعلّم السباحة وربّما الغرق برضاي من أجل صبيٍّ مريضٍ بالماء.

ربّما من أجل كلّ الصبية الذين كرههم أقرانهم بسبب بلوغهم خطّ نهاية السباق وهم في المقدّمة قذفت بنفسي في الماء وأنا أشاهد أطراف حلقاتٍ معدنيّةٍ ثُبّتت في الجدار فتعلّقت بها ونزلت. وعندما بلغتُ القاع جاء الله بقدمك إلى يدي. لم أقفز لأمسك بها. سحبتك، لكنّ الماء كان يدفع بك إلى الداخل. كان نَفَسي ينقطع. هل هذا ما يحسّ به الغاصة عندما ينزلون إلى القاع بأمرٍ منّي؟ كم بخسناهم حقّهم! سحبتك بكلّ ما أبقى لي البحر من طاقةٍ. وتعلّقت بالحلقات. كنت تنظر إليّ بعينيك وأنت تتقلّب بين الحياة والموت. ولولا أنّ الرجال

قدموا ومدّوا أيديهم لسحْبك ثمّ لسحْبي لمكثتُ في تلك النبّاعة وبقيت فيها إلى اليوم.

لا يا صبيّ، لسنا مختلفين، كلانا لا نعرف السباحة، كلانا نخاف الماء، لكنّي واجهته فصدّق الماء أنّي لا أخشاه. أمّا أنت! أنت الأعجوبة الحقيقيّة. وسيكون لك شأنٌ يا مَن واجه الموت مرّتين من دون أن ترتعد له فريصة واحدة. سأعتني بك. وسأحدّثك بالقصص التي تستحقّ فقط. وسأعلّمك كيف تحترم الرجال وكيف ترفض أيّ تقليلٍ من احترامك حتّى لو كان من أقرب الأقربين.

ضحك وهو يسمع عبارة غيث. «سيطرت على الماء»، أنا؟ يا للمخيّلة الواسعة. لكن وبتواضعٍ، أظنّ أنّ الماء والبحر والعواصف المطريّة والأعاصير لم تستطع كلّها إيقافي عن تحقيق ما أردت. كم أستأنس بحديثك يا غيث. لقد جعلت ليالي مجهرة أسرع وأكثر متعةً. وما أسمعه من عويس حول مهارتك وسرعة تعلّمك في ما تقوم به يجعلني أفخر بك. «ليت لي ولد مثلك يا غيث».

* * * *

كيف هي رائحة البحر؟ وهل خفت منه عندما دخلته أوّلَ مرّةٍ؟ سأله الصبيّ وهو يحتمي من المطر الذي بدأ يغازل التراب.

أسئلتك البسيطة يا غيث ماكرةٌ. ما إن أبدأ في الردّ عليها حتّى أكتشف أنّي لا أعرف الجواب! تتحدّث بكلماتٍ لا أعرف معناها، عثرت عليها في بطون الكتب، وأنا أعلّمك كلماتٍ عن باطن البحر. تسألني عن رائحة البحر!

للبحر رائحةٌ لا يتيه عنها غريب، لكنّ رائحته تختفي كلّما أطلتَ معاشرته. أحبّ رؤية البحر وأنا في منتصفه. هناك يكون البحر صادقًا، لا يخفي وجهَه القبيح مثلما يكذب علينا عند الشاطئ مُظهرًا الوداعة وتلك الألوان الماكرة التي نراها في الأفق. تلك الألوان ليست سوى المنايا وهي باسمةٌ. كنت أخشى البحر وأحبّه، إلّا في منامي. في الحلم لم أخشه قطّ. بنيت في طفولتي صورةً عن البحر ولونه ولم تتغيّر مطلقًا في كلّ حلمٍ راودني، رغم أنّي شاهدت البحر وعلمت أنّه ليس كما كنت أتصوّر. قهر البحرُ المراكب وابتلع الرجال وحطّم السواحل في مدنٍ بعيدةٍ رأيتها، لكنّه لم يستطع كسرَ مخيّلة الطفل بداخلي.

كم تحبّ الأرقام أيّها الفتى! لا أعرف عدد المدن التي زرت، ولا عددَ المرّات التي دخلت فيها البحر، لكنّي أعرف عدد الأيّام التي زارنا الموت فيها. خمسة عشر رجلًا أعادهم البحر جثثًا، سبعة آخرون لم نعثر لهم على أثرٍ، أربعة قضى عليهم المرض وكفّنّاهم في البحر.

لا لم أغُص، رغم أنّي أحسد الغوّاصين، يقضون خمس دقائق وأكثر بنفسٍ واحدٍ! أؤمن بأنّ للمرء عددًا من الأنفاس محدّدًا ومحسوبًا في الدنيا لا يتجاوزه، لذا لم أعد إلى السباق منذ تركت مجهرة. على المرء أن يقتصد في أنفاسه. ربّما كان في وسع مبخوت أن ينتزع سنواتٍ أخرى تُطيل عمره لو أنّه لم يكن يركض كلّ وقته لاهثًا بسرعةٍ.

تأمّل غيث المطر الذي بدأ يخفّ، وقال له:

- يوم من الأيام بأركب البحر.

- لا تركبه وأنت صغير، البحر يغوي الصغار لين يطيحون في غرامه.

- بأنتظر لين أكبر. ودّي أكبر، كيف أخلّي الوقت يمرّ بسرعة؟

- اقضه مع من تحبّ. وكثّر النوم. أبطأ الساعات هي اللّي تهوجس فيها عن حياتك بظلام الليل. وساوس آخر الليل هي الشيطان الخبيث.

- عيسى يكره النوم، يقولون عنه الرجال إنه خفيف نفس ويضحكهم. بس ما شفت عيسى بعيوني يضحك أو يضحّك. ظنّك عند الشيخ وساوس مثلنا؟ ما أشوفه يسهر. ظنّي ما عنده شيطان.

- لكل إنسان شيطانه.

حتّى عويس له شيطانٌ أيّها الصبيّ، وهو الذي منعه من الزواج. وحده مبخوت كان نقيًّا. لم تستطع الشياطين اللحاق به.

وصل عيسى فوجد موضوع زواجه لا يزال ساخنًا في رأس طافي. ضحك وقال إنّه سيتزوّج هو وطافي في ليلةٍ واحدةٍ. طلب عيسى من الصبيّ أن يتركهما.

- ليه تملأ عقل الولد بقصص ما تفيد؟

- يسأل وأجاوبه.

- هو وحيد أمّه ولو ترك القرية وخلّاها بينهدّ حيلها.

- يسافر الرجال.. يرجع الرجال.. هذي هي الحياة.

عويس! كلّما جئت أخبرك عن الدانات التي جلبتها لك تعكّر مزاجي بملاحظاتك حول ما أقول وما أفعل مع الصبيّ! لماذا لا تبتسم وتتمتّع بحياتك! أراك تختلف ويتغيّر صوتك عندما تزور أمُّ الصبيّ بيتَنا. هي ما تزال شابّة وأنت ما تزال قادرًا. فما الذي تنتظره؟

أقسم أن يكون عرسك أضخم الأعراس لو تزوّجت، لا في مجهرة وحدها. سأدعو البحّارة وتجّار اللؤلؤ، وأدعو كاتب الأمير، وأذبح عشرة أباعر وخمسين خروفًا. أنت من يستحقّ أن ينجب ذرّيّة صالحةً، ذريّةً لا يشبهونني ولا يشبهون جدّهم. سأزوّجك وسأرى صغارك. وستسمّي أكبر الصبية حمود وأولى البنات منيرة على اسم أمّنا رحمها الله. سنعمّر كلانا حتّى نزوّج حمود بن عيسى ونرقص في عرسه. سنحبّ أبناءك وبناتك كما يجب أن يحبّ الأب أطفاله. سأموت سعيدًا هنا في مجهرة على فراشي هذا. سيغسّلني غيث كما أوصيتك وسأدفن في طرف المقبرة كما وصفت لك بدقّةٍ، هناك جهة قبر صاحبي، جهة قدميه النحيلتين. فلطالما بلغت خطّ النهاية خلفهما.

(9)
غيث

الحزن ضيفٌ سيء، لا يختار وقتًا مناسبًا للقدوم، ولا يغادر سريعًا.

عامٌ كاملٌ مرّ منذ الفاجعة. ما يزال حزن فراقك يا سويّر حاضرًا كأنّك رحلت للتوّ. فتحت تيماء عينيها المتعبتين فرأت وجه فطّوم الوادع. انتهت فطّوم من كنس الغرفة وجلست خلف تيماء تدلّك رقبتها.

يا لك من فتاةٍ مسكينةٍ. كم هو مؤلمٌ فقد الوالدين. عندما قدمت العجوز أم شري وأخبرت تيماء بما حصل، لم تصدّق. قالت لها أم شري إنّ السيّارة تكوّرت مرارًا بسبب انقلابها وإنّ كلّ مَن فيها ماتوا في لحظتهم، إلّا فرَج. رآه الرجال يقف ويدور كالمجنون بعدما غطّى الدمُ وجهَه وسال على ثيابه تحت زخّات المطر. لم يقل كلمةً. يقولون إنّ زجاج سيّارته قطع لسانه. وقال بعضهم إنّه عندما نُقل إلى المستشفى ورأى أطفالَه وأمّهم موتى فقَد عقلَه. «طلعت روحه على عتبة باب المستشفى»، هكذا أخبرتها العجوز. لا بارك الله فيك يا عجوز النحس ولا في ولدك شري، هو سرق ماء نخلي وها أنت تسلبين آخر الفرح من حياتي.

رحمك الله يا صديقتي. عام كامل مرّ وما إن تتذكّرك فطّوم حتّى يكمل الدمع حكايتها. بكت السماء يوم رحلتِ وجاءنا مطرٌ غزيرٌ أنسى مجهرة عطشَها. بماذا أحسست يومها حتّى تصرّين على بقاء فطّوم عندي قبيل رحيلك؟ هل كنتِ تعلمين؟ سأُنسيها الحزن بكثرة العمل نهارًا، فالحزن غَرسٌ لا يسقيه إلّا الفراغ.

عام كامل طلعت فيه ملامح المزرعة، لذا آن الأوان كي تنصب حولها حِظارا. أعطى ذلك الحظار هيبةً غامضةً. فجريد النخل المربوط بإحكامٍ والمتراصّ كجدارٍ منع العابرين من رؤية ما خلفه.

هل رأيت يا فطوم كيف تتنازل لنا النخلة عن كلّ ما لديها؟ لا أتحدّث عن الرطب والتمر فقط، ليفُها هنا أمامك في دلّة القهوة ليمنع سقوط الهيل والقناد في الفناجين، عذوقها التي تمنحنا الرطب والتمر تنتهي مكنسةً للبيت، كَرَبُها حطبُ النار، حتّى جريدها الذي لا يشبه أغصان أيّ شجرٍ آخر تُصنع منه مراوح الهواء ومفارش المائدة، أو نفرده ونرصّه ليكون كالحظار الذي أنهيناه اليوم. هل تعلمين أنّ نوى التمر المطحون علاج لا يستغني عنه عيسى لبعض الأمراض! جذعها، قلبها، خوصها، سُلّاؤها، لقاحها، لا أستطيع حصر ما تهبنا إيّاه النخلة.

صمتت. التقطت نفسًا عميقًا. منذ رحيل سويّر عادت الكتمة التي لازمتها وهي صغيرة تقبض صدرها بشدّةٍ. تشعر أنّ الهواء حولها لا يكفي. لم تشكُ إلى أحدٍ. سويّر هي الوحيدة التي سمعت شكواها.

سمعت صوت فطّوم خافتًا يأتي من خلفها، يخبرها بأنّ أمّها كانت تحبّ تدليك رقبتها بهذه الطريقة. أحسّت تيهاء بأصابع فطّوم تنغرس بين عظامها وهي تكتم صوت بكائها. لم تحسّ بالدمعة التي فرّت صامتة على خدّ الصبيّة.

* * * *

ما عاد الفتى يأتي لمساعدتها في المزرعة. في السابق، كانت تظنّ أنّ المعلّم أفسد عقله. رحل المعلّم ولم يتغيّر. لعلّ قصص طافي السيّئة كانت سببًا في ابتعاده أكثر. سحرته قصص البِحار والصحاري. لكنّ طافي رحل هو أيضًا ووضعُ الصبيّ يزداد سوءًا. عندما ذهبت لتعزّي الشيخ عيسى بعدما خفّ اكتظاظ الرجال بمنزله، رآها الفتى. نظر في عينيها. ثمّ أدار رأسه متظاهرًا بعدم الانتباه وانشغاله بتوديع أحد الغرباء. اتّجهت نحوه. هل لحقت به لعنة أبيه؟ لا يبدو عليه أنّه سيرحل. هذا الفتى يربكها. تأمّلته وهو يخبرها بعدم قدرته على القدوم إلى المزرعة لألمٍ في يده.

كلّ يوم يزيدك شبهًا به! لكنّه لم يورثك عينيه الطيّبتين. يا لهذه النظرة! عيناك لا تشيان بخيرٍ، ولا تشبهان عينَي أحدٍ.

تركها الصبيّ عندما اقترب عيسى. ألقت بكلمات تعزيةٍ مقتضبةٍ. وقبل مغادرتها ألمحت إلى عيسى بأنّ الفتى لا يبدو على ما يرام.

– فقد رفيقه بالغرفة وقبلها فقد استاذه، الولد صالح، لكنه حزين ومريض، ارفقي به.

حزين! فكّرت وهي تسير إلى المنزل. ومن هو طافي ليحزن عليه؟

من هو المعلّم الغريب؟ لم أرك تحزن على خالتك سويّر ولا على أختك فطّوم التي فقدت كلّ إخوتها الصغار! وعندما كان بعض الأنذال يحرمونني الماء وسقَي نخلي، ألم تكن حينها رجلًا؟ ما الذي منعك من الوقوف إلى جانبي؟ لم تفعل. فطّوم فعلت. أمّا أنت فاكتفيت بخدمة الغرباء والبحث عن كلّ فرصةٍ لتفارق ديرة أهلك.

رغم محاربة الرجال لها ولمبروكة، كانت ترى تمرها يطيب مع كلّ موسمٍ. الماء وفيرٌ لكنّه لا يكفي عندما تستقبله القلوب الجافّة، قلوب أولئك الذين أعلنوا عن كراهيّتهم لمبروكة ولها.

كانت تخرج صباحًا في موسم الصرام لتقف تحت النخل، نخل مثقل العذوق بتمرٍ آن موعدُ هطوله على البسط المفروشة تحته. الرجال سيصرمون كلّ النخل، لهذا أتت بهم من قراهم ودفعت لهم، لكنّها حدّدت خمس نخلات ستصرمها بنفسها مع فطّوم.

- نخلة أمّي، نخلة أبوي، نخلة أمّك، ونخلتي ونخلتك يا فطيمان.

- ونخلة غيث!

- يجي يصرمها بنفسه، عنده يدين.

رغم أنّ الرجل الواحد كان ينجز صرام ما بين أربع نخلات إلى ستٍّ في النهار الواحد، استغرقت تيماء وفطّوم أسبوعًا كاملًا في صرام نخلاتها الخمس المختارات. كانتا تتبادلان الأدوار. عندما ترقى تيماء أعلى النخلة وتأخذ في قصّ العذوق ببطءٍ، تفرش فطّوم البساط النظيف تحتها ليستقبل العذوق والرطب المتساقط. كانت تيماء تشعر

بسعادةٍ لا تُضاهى وهي تمرّ بمحشٍّ -حرصت على برد نصله حتّى يقصّ جيّدًا- على ما تبقّى من رأس العذق قبل انفصاله ونزوله. كانت تنظر بجذلٍ وهو يسقط من يدها في الهواء، حتّى إذا لامس الأرض تسمع وقعه وتلاحق بعينها بعض الرطبات الهاربة في كلّ اتجاهٍ.

ذلك الصوت، صوت الارتطام، ما أجمله!

توقّفت لتلتقط أنفاسها قبل البدء في قصّ عذق آخر بالمحشّ الذي في يمينها. تأمّلت من علوٍّ فطّوم وهي تجمع الرطب وتغنّي بصوتٍ خفيضٍ. هي لا تحبّ الغناء، لكنّها تغاضت عن ذلك من أجل الفتاة التي بدأت تتعلّق بمبروكة.

وصلها تنبيه فطّوم متأخّرًا. كان عيسى قد اقترب وبدأ بسعالٍ مفتَعلٍ. رفع صوته بالتسبيح معلنًا اقترابه من النساء. نزلت وقد سترها جذع النخلة عن عيسى. التفّت حول النخلة بعدما لامست قدماها الأرض لتلقاه. سارت مع عيسى في المزرعة. كان ينظر إلى الرجال وهم يصرمون. وقف وقال وهو ينظر إلى يديها:

- ما خلق الله المرأة لهذا التعب والرهق.
- صرام نخلتين رهق؟
- ما أتكلّم عن الصرام، أنا أتكلّم عن كل هذا!

قالها وهو يدور دورةً كاملةً متأمّلًا المزرعة. لم يعجبها كلامه.

- العريش فيه قهوة، والرجال بيتقهوون بعد شوي. حياك، أما أنا بأرجع أعاون البنت.

أخبرها بأنّ جرح يد غيثٍ قد تفاقم وأعجزه عن علاجه.

- الولد طبّه عند دكتور نصراني في الجزيرة ولو ما لحقنا بسرعة راح تفسد يده. الطبيب هذا غالي، يبغاله فلوس.

- ما عندي شيء الحين. كروة العمال وبأدفعها لهم هالأسبوع. لو صبر شهر أو اثنين دبرت له فلوس.

لم يردّ. نظر إلى فطّوم وهي تعمل. دعا لمبروكة ولوالدي تيماء ووالدي الفتاة. ثمّ غادر.

أعلم أنّ جرح يدك يخفي وراءه سرًّا. لقد أخبرتني عيناك. هل هذه حيلةٌ أخرى يا غيث؟ مازلت تتحيّن الفرص للرحيل! وعلى حساب مبروكة! لو كان لي مالٌ لما منحتك إيّاه إلّا حين أسمع الطبيب يقول ذلك. لست عيسى لتخدعني أيّها الكذوب. سيصل تمرك يا مبروكة إلى الجميع وسيدعون لوالدَي مَن زرعها بالرحمة وستصلك نصف الدعوات يا أمّي. لن أقبل أن ينساك أحدٌ. سيذكرك أهل مجهرة طويلًا بعد رحيلي.

* * * *

آتت مبروكة أكلها. أهدت تيماء غالب التمر إلى مَن حولها: المحتاجين، الأقارب، مدير المدرسة الجديد وكلّ معلّميها، بل وحتّى زوجات أولئك الذين وقفوا ضدّها. يوم عيد الأضحى. بعدما أعطت فطوم فستانًا خاطته لها، اتّجهت إلى حيث يجتمع الرجال. كان أحدهم يحضر أطيب ما طبخه أهلُه في صحنٍ ليضعه مع بقيّة الصحون، وعندما يكتمل العدد يذهب الجميع للغداء ويتنقّلون من صحنٍ إلى آخر ويقارنون بهمسٍ بين جودة الصحون أمامهم. رمقوا تيماء وهي

تقترب. أقبلت عليهم يتبعها أحد أبناء الجيران حاملًا صحنًا من اللحم والأرز، خلفه صبيٌّ على رأسه صحن تمرٍ يقارب حجم الأوّل. رمقها الرجال تقف بالقرب منهم. لم ترَ أحدًا منهم ينهض نحو صحنها. مرّت الثواني بطيئةً. قام عيسى. وقال بصوتٍ مسموعٍ: كثّر الله خيرك يا بنت سالم ورحم والديك. تبعه آخرون. عادت إلى البيت ورأت فطّوم بفستانها الجديد. قبّلتها. وجهّزت صحن تمرٍ آخر وقصدتا معًا بيتَ جارتها.

سألتها أم مبارك وهي تمدّ لها فنجان القهوة:

- هو صحيح إنك شريتي مزرعة مفلح؟

لم تكن أم مبارك الوحيدة التي صدمها الخبر. سنوات قليلة رأى خلالها الرجال هذه المرأة تزاحمهم في زراعة النخل وتنجح رغم توقّعهم فشلَها ورغبتهم جميعًا في ذلك، لكن ها هي تتوسّع وتشتري مزرعةً أخرى، ومِن مفلح! وستغيّر الكثير فيها. ستعيد ترتيب الممرّات. ستضع عتباتٍ جديدةً لمدخل حجيرة ماكينة الماء. تساءلت: لِمَ لا يهتمّ الرجال بالعتبات عند عمار مزارعهم؟

أُشيع أنّه باعَها مزرعته بثمنٍ بخسٍ بسبب غور مائها. وقيل إنّها استغلّت رغبة مفلح وزوجته في ترك القرية بسبب الجنّ الذين أقضّوا مضاجعهم. وقيل إنّها أغرت مُفلح بأموالِ ورثتها الفتاة اليتيمة ووسّعت أملاكها.

عندما عادت من عند أم مبارك، أخبرت فطّوم بأنّهما ستزوران أم عايض.

- صحيح إن غيث بيترك القرية؟

تفاجأت بسؤال فطّوم. هل فعلها! تظاهرت بعدم المبالاة وهي تردّ:

- سمعتي شيء؟
- يقولون طلع قبل أسبوع وما رجع، شافه رجّال في الساحل وكان تعبان بسبب يده، يقولون انتفخت حتى صارت كبر رأسه. ما يستاهل.

لاحظت مسحة حزنٍ اعترت ملامح الفتاة. هل هذه دمعةٌ؟ تساءلت في سرّها وهي ترمق الفتاة.

حملت قدرًا ملأته تمرًا واتّجهت ذلك المساء إلى عيسى. تهلّلت أساريره وهي يراها.

- أرحبي يا بنت سالم، تمر طيب، بارك الله في مبروكة وراعيتها. ما شاء الله على غداكم اليوم، ما بقى في الصحن شيء.
- طبخ فطّوم.
- ما شاء الله، الله يزوّجها ويرزقها الرجل الصالح.
- ما أشوف الولد! ما جاني اليوم، لا عيّد علي ولا على أخته.
- غيث حاله ما يسر، صار ما ينام الليل من يده، كويتها فطلع منها صديد أصفر ما شفت مثله. شكله ركب مركب وراح للطبيب. قلت له بأروح معك لكن طلع ما خبّرني، ما صبر. له أسبوع ويزيد ما فيه خبر عنه. وصّيت أمس أحد الرجال يسأل عنه..

- الولد عنيد وما يسمع الكلام.

- إذا رجع بأخلّيه يمرّك.

عاد الصبيّ بعد أشهرٍ. أخبرتها فطوم وهي تبكي أنّه عاد من البحر بيدٍ واحدةٍ فقط. هل أحزن على يد الصبيّ التي نهشها البحر أم أسعد بأنّه عاد حيًّا! سمعت أنّ البعض يلمز ويقول إنّه سرق من شركة الجزيرة وقبضوا عليه وقُطعت يده. أعلم يقينًا أنّك لست بسارقٍ. فما الذي حدث لك ولماذا لم تأتني منذ عدت؟

ذهبت إلى بيت عيسى. رأته جالسًا في المكان الذي كان ينام به طاقي. وقفت على رأسه. لم تكن قد رأت ذراعًا بلا كفّ من قبل. كان يضع خرقةً سوداء حول مكان المعصم. ألقت السلام وسألته عن حاله. أعرض عنها، وقال إنّه متعَبٌ. تركته غير عالمةٍ بأنّ هذه هي زيارتها الأخيرة له في بيت عيسى. شغلتها المزرعة وفطوم وصدود الصبيّ عن زيارته. هو مَن يجب أن يزورني في بيتي! وحتّى عندما توفّي عيسى فجأةً بعدها بعامٍ ويزيد، لم تذهب لتعزّي الصبيّ. كانت بعدُ منزعجةً من رفض عيسى دعوة الرجال لصلاة الاستسقاء طلبًا للمطر. لم يرَ أنّ الوضع يستحقّ. وهل سأنتظر حتّى يموت النخل عطشًا لتقتنع يا عيسى؟! كانت المرّة الأولى التي تختلف فيها مع عيسى بشكلٍ صريحٍ. رحل إلى رحمة الله وهو لا يزال نشِطًا. كانت تسمع من بعض الرجال الذين يعبرون جنب عريشها أنّ غيث أبلى بلاءً حسنًا في تغسيله ودفنه والصلاة عليه مستخدمًا يده اليسرى وما بقي من ذراعه اليمنى.

نظرت في قاع البركة الإسمنتيّة التي بناها الرجال في المزرعة. تأمّلت الأوراق والشوائب. نزلت إلى داخلها، ونظّفتها. خرجت وهي تنضح عرقًا. كانت السماء صافيةً، لا سحابة ولا طيف قطرة مطرٍ. وحدَه السقف الزجاجيّ اللعين يعلو مجهرة. هل عبرت روحك يا عيسى أم توقّفت هي أيضًا! لقد أطال الموتُ مكوثَه بالقرية. كان يمرّ كلّ عامين أو ثلاثةٍ لتسلّمه القرية روحًا. اليوم أصبح ظمآن هو أيضًا ولا يرتوي. لن تموت مبروكة وستظلّ حيّةً بعد رحيل كلّ مَن في مجهرة.

وصلت إلى المكان. كانت أحذية الرجال مبعثرةً حول باب المسجد. انتظرت حتّى سمعت الإمام يُنهي الصلاة. لم يكن صوته جهوريًّا مثل صوت عيسى. دخلت المسجد بهدوءٍ. وقفت خلف صَفَّي الرجال. التفت أحدهم ونظر إليها متعجّبًا. تبعه الآخرون في الالتفات. انطلقت متحدّثةً خشية أن يخرجها أحدهم قبل قول ما تريد. تحدّثت عن الزرع الذي كاد يموت وعن الحيوانات التي سيسأل الله الجميعَ عنها يوم القيامة. ختمت بأنّ مجهرة يجب أن تصلّي طلبًا للمطر. قالت ما لديها وخرجت بسرعةٍ وهي تسمع عبارات الاستنكار والانزعاج من اقتحامها حرمة المسجد.

ومثلما رأت الرجال يرضخون لدفاعها عن ماء مجهرة، رأتهم يعودون إلى رشدهم مرّةً أخرى بسببها. لم يمضِ يومان حتّى صلّى الرجال طلبًا للمطر. شاهدتهم متراصّين يرفعون أكفّهم إلى الله. بحثت عن ذراعٍ بلا كفٍّ فلم تجدها. لقد سمع رجال مجهرة صوتها. اغتسلت مجهرة ذاك الأسبوع كعروسٍ تتجهّز لحياة جديدة. نزل مطرٌ لم ترَ القرية مثله. قيل إنّ المطر لم يتوقّف إلّا لمامًا طوال أسبوعين.

وقيل بل طوال ثلاثة أسابيع. وحدها تيماء تعرف أنّها كانت تسع ليالٍ بالتمام شاهد فيها الصبية جدران الريّ تطفح والنبّاعة يفيض ماؤها في الشارع

تحت المطر مشت في دربها اليوميّ مع فطوم إلى مبروكة. بادرها بعض الرجال بالسلام. ردّت عليهم بصوتٍ واثقٍ حرصت على أن يبلغ الجميع.

في المزرعة، نادتها فطوم لتنضمّ إليها بعدما قفزت في البركة الإسمنتيّة.

- خالة، سبحتي بماء المطر من قبل؟

سألت فطوم بعدما غمرت رأسها بالماء. ارتفاع الماء يصل صدرها. قالت وقد بدأت عيناها تحمرّان:

- ما راح يجي العمّال اليوم، تعالي اسبحي معي.

حاولت النزول ببطءٍ. لم تمهلها فطوم إذ سحبت يدها فجأة. سقطت تيماء في البركة ببرقعها. وهي تحت الماء وصلتها ضحكات فطّوم العالية. غمرت رأسها ثانيةً، ثمّ مسحت الماء عن وجهها وعينيها بعدما وضعت البرقع على طرف البركة. نظرت إلى فطّوم، ثمّ جمعت كفّيها وغرفت من الماء المنعش. نظرت بتأمّلٍ حولها.

المطر أعاد إلى النخل لونَه الأخضر الذي يستحقّه. أعاد إلى الطيور تغريدًا كادت تنساه. صبغ السماء بلونٍ أبيض نقيٍّ لا يشوّهه شيءٌ ولا يشوبه.

اتجهت إلى فطوم. دفعتها مداعبةً وصدى ضحكاتها يتردّد في

البركة. ضمّتها، وأحسّت باهتزازات صدر الفتاة الضاحكة. رفعت تيماء رأسَها إلى السماء، وانتبهت إلى أنّ السقف الزجاجيّ فوق مجهرة لم يعد موجودًا.



(10)
في الظلمة تستوي الألوان

كي تعرف مجهرة يا غيث، عليك أن تعرف كيف نشأت هذه المقبرة.

لئن كان غالب سكّان القرية منكم آلَ جبر فإنّ بعض أجدادك أكلتهم الغيرة. أزعجتهم تجارتنا وكرمنا الذي جلب إلى مجهرة صيتها. وكانت علاقاتنا مع تجّار المدن المجاورة سببًا في انتعاش القرية. لا أحبّ المبالغة، لكنّ تاريخ مجهرة يقول إنّ أكثر من دفع بها إلى التوسّع والتطوّر هم آل صميح رغم قلّة عددنا. وعندما قرّرت الحكومة وَصْلَ القرية بشبكة الطرق وقعَ اختيار المهندسين على الساحة التي فيها المقبرة. المقبرة لم تكن كما ترى اليوم. كانت قبل عشرات السنين مقسومةً إلى جزأين: الشماليّ لنا والجنوبيّ لكم. رحمهم الله، لم يتذرّعوا بالموت ليغيّروا المقبرة. تركوا الفراغ الممتدّ بين شطريها. تركوه فاصلًا بين موتانا وموتاكم.

بدأت الحكاية مع جدّي مصبّح، رحمه الله. يسمّونه راعي الفقراء. وهو من بنى مسجد القرية الوحيد سابقًا، المسجد الذي بُني على أنقاضه مسجدنا هذا. في منتصف القرية، كانت هناك نخلةٌ وقبرٌ للجدّ بثران رحمه الله. ولم تكن أرضها ملكًا لأحدٍ. فقرّر آل صميح أن تكون

هي المقبرة، إلّا أنّ بعض رجال آل جبر رفضوا ما لم يدفع لهم الكثير من المال. كيف لرجلٍ أن يبيع قبر والده! لا تستغرب يا صبيّ من الجشع. فمجهرة لم تبنها الملائكة. بعدما ورِث مصبّح الأرضَ وصارت ملكًا له، وضّح له مهندس الحكومة أنّ النخل يسدّ القرية تمامًا من جهة الجنوب، ممّا يتطلّب تكاليف مضاعفةً إذا تمّ تغيير مجرى الطريق كي تلتفّ حول القرية، أمر قد يجعل الحكومة تصرف نظرها عن تنفيذه. لذا كانت أفضلُ الطرق وأقصرُها تعبُر المقبرة في الفراغ بين شطريها. وافق رجال القرية على الاقتراح، لكنّ شابًّا متهوّرًا يدعى ذيب كان يحبّ فتاة انتهى بها المطاف زوجةً لمصبّح أعمته الغيرة فصارت عداوةُ مصبّح هدفًا له. يعارضه في كلّ ما يأتي به، بل إنّه يسخر بين جماعته من خلقة الله التي خلق عليها مصبّح. وافقت القرية عدا ذيب، وتمّ فتح المقبرة وإخبار الناس بأنّ الطريق ستشقّ قريبًا. بدأ عبور السيّارات واكتشف أهل القرية تيسّر حركتهم إذ جنّبتهم الطريق عناء الالتفاف حول محيط القرية. وأصبحت النسوة والأطفال يعبرون أرضًا مستويةً بدلًا من المشي بين مشارب النخيل والقفز فوق حفر الريّ.

في مساء مظلمٍ، اصطدمت سيّارةٌ عابرةٌ بطفلٍ مجنونٍ من آل جبر وقتلته. لم يتوقّف السائق. وغالب الظنّ أنّه لم ينتبه إلى أمر الدهس لضآلة جسد الصبيّ. ربّما ظنّ أنّ ما قفز أمامه كان كلبًا أو شاةً صغيرة. استغلّ ذيب الحادثة في تأليب القرية ضدّ مصبّح وضدّ الطريق. ترك الحزن على قريبه ليتفرّغ للعناد واشتراط دفنه مكانَ الحادث! وسط الطريق. هدفه الوحيد كان إحراج مصبّح.

تنازل مصبّح عن المشروع، وفي اللحظة نفسها أوصى ابنه بأن يطلب من المهندسين الالتفاف حول القرية على أن يتولّى هو دفع التكلفة الزائدة، إكرامًا لمصاب آل جبر. ليس كلّ آل جبر مثلك يا غيث. هل تعرف أنّ ذيب وجماعته دفنوا ميّتهم مساءً من دون إخبار القرية؟ منعوا آل صميح من الأجر والصلاة على الصبيّ. وكأنّ آل صميح مسؤولون عن دهسه!

يوم علم ذيب أنّ مصبّح وافق على ترك استخدام حقّه في الأرض ودفعِ مئات الآلاف من حُرّ ماله غضب، وقال ما معناه أنّه لا فضل لمصبّح في فعله ذاك! قال هذا أمام شهودٍ.

كان مصبّح على موعدٍ مع سفرٍ خلال أيّامٍ، لكنّه عجّل به وغادر كي لا يذكي وجودُه الخلافَ. غادر ليلتها ولم يعد. قال البعض إنّهم شاهدوه جانبَ مقام إبراهيم بمكّة بعد أسبوعٍ يدعو للميّت وللذيب وللقرية. وقيل إنّه لم يعد كي لا يستغلّ بعض الحمقى وجودَه لإلحاق الأذى بالقرية. سمعنا أنّه مرض وذهب إلى طبيبٍ نصرانيٍّ عالجه. ونشأت بينهما صداقةٌ طويلةٌ أسلم خلالها الطبيب على يد مصبّح بعدما رأى خُلُقه وصلاحه وحبَّه للخير. لا أحد يعلم ما حدث له، لكنّي أظنّه مات -رحمه الله- في طريق العودة. وفشلت محاولة أبنائه والحكومة معرفةَ مصيره.

هذا يا غيث هو القبر الذي سألت عنه، قبر حبيب الله، قبر تسبّب في خلاف شديدٍ بين أهل مجهرة، قبر أرغمَ الطريق الوحيدة على تغيير مسارها إلى الأبد. أرأيت؟ تظنّ في الظاهر أنّك تعرف، حتّى

إذا حفرت أكثر اكتشفت ما تجهل. فلا يغرّنّك ما بدا لك. لكلّ قبرٍ حكاياته وقصصه العجيبة.

كان عيسى يجيب على أسئلة غيث عن المقبرة، لكنّه توقّف عندما باغته الصبيّ بسؤاله عن طفولته وعن رحيل أخيه. ماذا أقول لك يا غيث؟

* * * *

منذ صغره ووالده يدفع به كي يصبح رجلًا. لم يلعب عيسى كسائر الصغار.

- ما عندي أنا وعمّك إلا أنت، خلّك رجّال.

كم ودّ أن يسأل هو أيضًا عن أخيه الكبير حمود الذي اختفى. لم يتجرّأ. كان عيسى في الحادية عشرة عندما رحل أخوه. وعندما بلغ الثالثة عشرة رأى والده ينازع الروح بين يدي عمّه يعقوب. لا شكّ أنّ سبب قسوة والده هو حرصه على أن يصبح رجلًا وألّا يكون مثل أخيه. قبّل رأس والده المحتضر وسأله همسًا عمّا إذا كان يوصيه أو يأمره بشيءٍ كما جرت العادة. جاءه صوت الأعمى من خلفهما: لا تشغل المحتضر بسؤالٍ، كفى بالموت شاغلًا.

جاءه صوت الأب ضعيفًا: «الله الله بعمّك»، قبل أن يرحل تاركًا عيسى مع يعقوب الأعمى.

ولد يعقوب، عمّ والده، أعمى. تولّى تربية عيسى بعد وفاة أمّه المبكّر وهجرة أخيه بعدها. يتذكّر عيسى تلك الليالي التي سهر فيها مع يعقوب من دون علم والده. «تقول تأخّر الوقت، وهل تعرف ما

هو الوقت؟» يسخر عمّه منه وهو يسمع حديثه عن قلقه من اكتشاف والده سهرهما.

أصبح يسمّي يعقوب بالعمّ بعد أن أغضبته مناداته بـ«أبوي». تعوّد على الجلوس في الظلمة بجانبه. وحدَه الظلام يشعرك بالأشياء. وحدَه الظلام يريك ما لا تراه في النور. يفتح عقلك قبل عينيك. تعلّم من عمّه أنّ البصر هو أخطر الحواسّ على الإنسان. البصر خدعةٌ توهمك بأنّك عرفت الأشياء. لا يعرف الأشياء إلّا مَن لمسها وشمّها وتذوّقها وسمع أصواتها.

- تعرف البرسيم؟ تظن أنك تعرفه زين؟

أمسك عيسى بعود برسيم وتلفّت خشية أن يراه أحدٌ وهو ينفّذ ما طلبه منه عمّه. تحسّس ورقةً منه. شمّها بعمقٍ. امتثل للطلبات الغريبة. مضغ ورقتين وهو مغمَض العينين. أبطأ عندما لامه الأعمى على استعجاله. كيف عرف أنّي أمضغ بسرعةٍ!

- الحين صرت تعرف البرسيم. عويس، الجمال عندي غير الجمال عنكم. كلّ من حولنا يتغزّل في حبيبته ويذكر زينها، أنا ما يغريني الوصف بس. إذا ما لمسته بيدي، ودخلت ريحته بصدري فما هو جمال. الجمال في المجرّب. النظر يخدعك مثل ما يخدعني الغناء، أطرب وأتوجّد وأتهيّض إذا سمعته من بعيد، عشان كذا أوصيك، لا تكثر من سماع الطرب إلا إذا كان زين، وأحسنه اللّي تحضره.

- الطرب والغزل ما يصلح لمثلك ومثلي يا عم.

- غضّ البصر وغضّينا. تبّينا ما نسمع!

وجد عيسى في عمّه الأعمى خليطًا ساحرًا بين خوف الله وخوف فوات اللذة، التأنّي دومًا والرّعونة أحيانًا. إنّه خليطٌ من السمت والمزاح، والحكمة والطفولة. كيف لرجلٍ اجتاح البياضُ شعرَه أن يشترط النوم على وسادةٍ محدّدةٍ، لا يغيّرها، طوال عمره! صبر على ظلمات العمى لكنّه لا يصبر على فراق تلك الوسادة والفرسَين اللذين نُقشا عليها.

- ما هم حصانين يا عويس، هذي فرس وبنتها المهرة.

علّق العمّ مصحّحًا مرّةً. نظر عيسى إلى الوسادة التي وضعها يعقوب في حضنه وبدأ يتحسّسها، سماويّة اللون، عليها رسمان منقوشان لفرسين بخيطٍ أزرق. أحدهما كبير يقف خلف الصغير الذي التفت إلى الخلف. تحسّس يعقوب الكبيرَ منهما مبتسمًا.

- قالت لي أمي بأن هذي هي الفرس الأم. قلت لها: والحصان الصغير ولدها؟ ضحكت وقالت: لا، هذي مُهرة. ما تشوفها ملتفته وراها عشان أمها؟ لو كانت ذكر كانت ركضت مبتعدة عن أمها وراحت تلعب مثلك يا الهيس.

مرّر يعقوب أصابعه على رأس الفرس الأمّ مستشعرًا كلّ الخيوط التي تغيّر لونُها وأصبح داكنًا من كثرة اللمس.

- قلت لها إنّه مهر.

- ذي الوسادة معك من أيّام أمّك الله يرحمها؟ كم لها من سنة!

- تغيّرت مجهرة وتغيّروا أهلها ودبشها ونخلها، بعدما ماتت أمّي تغيّر كل شيء، الطريق الوسيعة ضاقت، الشجرة الصغيرة اللي

كانت تعطف عليّ بثمرها تركتني ورَقَت فوق، ويومِ كبرت أنا ورقيت لها، نزلت هي وصدمت راسي وشقّته. الهواء ما عاد نظيف، الليل ما بقى هادئ، حتى الكلاب! الكلاب ما عادت تحترم أحد ولا تقدّر الشيبان! كل شيء تغيّر إلّا المهرة وأمّها ما تغيّروا. عويس..

- آمر يا عم.

- لا تتغيّر وأنا عمّك.

كان يرافق الأعمى إلى المسجد والسوق. عندما أوقفهما رجلٌ يشكو ألمًا في رقبته، نظر عيسى بدهشةٍ وحرجٍ إلى الأعمى وهو يُنزل ما بيديه ويضعهما على رقبة الرجل ليتحسّس موضع الألم أمام مرتادي السوق. طلب يعقوب من الرجل أن يخلع ثوبه ففعل. رغم كبر سنّه، رآه عيسى يضمّ الرجل ويشبك يديه ويضغط بقبضتيه على كتف المريض اليمنى، ثمّ اليسرى. وبعد أن سمع مَن حولهم صوت عظام الرجل، سمعوا المريض يلهج بالدعاء للأعمى مشيرًا إلى زوال الألم.

قضى عيسى سنوات صباه يتعلّم من يعقوب كيف يستغلّ أصابعه وأنفه وأذنه لفهم ما حوله في سبيل مساعدة الناس. تعلّم من الأعمى مهارة اكتشاف الكسور ومعرفة أنواع الرضوض وعلاجها بمجرّد تمرير الأصابع وسماع طقطقات العظام والغضاريف.

في ليلةٍ مظلمةٍ، اشتكى عمّه من ألمٍ في ظهره. سدَحه عيسى على الأرض متحسّسًا أضلاعه. ثمّ ضغط بقوّةٍ على فقرات الظهر. فصرخ الأعمى من الوجع وتمتم:

- ما هو كذا، لا بارك الله فيه من علاج؟ ما تعلّمت منّي كيف تداوي الموجوع!

في الصباح، شاهد عيسى الأعمى وهو يقف وينثني ويتحسّس موضع الألم. طلب منه عمّه أخذه إلى الساحل. سمعه يخاطب رجلًا في محلّ أعشاب وعطارة ويسأله أن يعلّم الصبيّ بعضَ فنون الصنعة. تحدّث يعقوب إلى الرجل عمّا قام به عيسى البارحة وأخبره بأنّه عالجه ليصبح اليوم بحالٍ أحسن.

- الولد جيد، ويتعلّم بسرعة، لكن يده خضراء تحتاج تدريب.

صار عيسى يذهب إلى الساحل مرّتين في الشهر. يقضي فيهما يومَه كلّه في خلط الحبوب والأعشاب الجافّة. وعندما أخبر العطّارُ عمَّه بأنّ ما تعلّمه الصبيّ كافٍ لأهل قريةٍ صغيرةٍ، طلب الأعمى من عيسى أن يبتاع كلّ ما يحتاج إليه من أعشابٍ وزيوتٍ وعطورٍ ويحضرها إلى البيت.

لم يكره عيسى الحياة التي اختارها له عمّه ما بين المسجد والسوق وعلاج بعض كبار السنّ، لكنّه كان يشتهي أن يخالط أقرانَه في القرية. كان يرقبهم من بعيدٍ يمرحون ويتضاحكون ويتسابقون ويصطادون بعض الطيور ويتصارعون أمام فتيات القرية.

- ليه تسابقهم؟ أنا عندك، سابقني.

- أسابقك أنت!

- ليه مستغرب؟ تظن الأعمى ما يعرف يركض؟

ضحكا. كان عمّه ظريفًا صاخبًا، إذا دخل مكانًا ملأته الأصوات

والضحكات. حتّى وهو نائمٌ لا يصمت، بل يفسح المجال لشخيره العالي. يسمّيه البعض يعقوب الأزرق، سأله عيسى عن سبب التسمية فضحك.

- تعرف العود الأزرق؟

- هو أطيب أنواع البخور.

- بعض الرجال يقول إن الجلسة ما تحلى سوالفها إلا بي، وإن المجلس بدوني مثل المجلس بلا بخور.

رغم حرصه على عدم فوات تكبيرة الإحرام وإطالته السجود، كان يعقوب مقبلًا على الحياة ولذّاتها. يتغزّل بنسوة القرية عندما يشتمّ روائحهنّ. سأله عيسى عن عشقه للنساء رغم مداومته على صلاته، أجاب ضاحكًا:

- أواظب على الصلاة لأني أواظب على المعاصي. الإنسان ما يولد عابد يا عويس، لكن يقضي حياته يحاول تجنّب المعصية اللي يحبّها قلبه.

- وليه ما تعرّس وترتاح؟

يعلم عيسى أن عمّه على شفا الثمانين رغم نشاطه الواضح، لكنّه سمع من أبيه مرّةً أنّ يعقوب سبق أن تزوّج. ما لا يعلمه هو: لماذا كان ذاك السؤال البسيط سببًا في ذهاب عمّه إلى الفراش مبكّرًا متجنبًا الحديث؟

في المساء التالي، وبينما كانا صامتين يشربان حليبًا سخّنه عيسى على طرف النار، تنهّد يعقوب.

- البارحة حلمت بأمّي.

- جدتي صيتة! خير ان شاء الله؟

- سألتني البارحة يا عويس عن العرس، وتذكّرتها.

- ترا ما كان ودّي..

لم يتح له يعقوب فرصة إكمال اعتذاره، وانطلق في الحديث:

- بأخبّرك يا عيسى بشي ما خبّرت به أحد أبد. كنت أحبّ أمّي حبّ ما أدري كيف تحمّله قلبي الصغير. أتذكّر أنها علمتني أني أعمى من يوم كنت ورع، لكن اليوم اللّي عرفت فيه معنى العمى هو يوم قال لي فيه ولد الجيران إن أمّي جاية. كيف عرف؟ لا أنا شمّيت ريحتها ولا سمعت صوتها، وصلت أمّي فبكيت. كيف عرف الولد؟ كيف واحد غيري يقدر يحس بها قبلي! ضمّتني وأخذتني للبيت وشرحت لي معنى البصر. ما فهمت اللّي قالت لي، لكنّي عرفت إنّي ناقص عن كلّ عيال القرية، وإن عندهم شيء ما هو عندي. ناقصني اللّي يخلّيني أحسّ بأمّي مثل ما يحسّون هم بأمّهاتهم. يوم صلّيت العشاء دعيت الله ساجد حتّى بكيت، دعيته أن يعطيني البصر بدال الدموع عشان أشوفها. قلت له: يا رب ترا ماني زعلان على السنوات اللّي راحت، بس أبيك ما تحرمني في السنوات الجاية. دعيته في كلّ سجود، ما رجع بصري.

تأمّل عيسى عمّه الذي واصل حديثه، تفصل جُمَله زفرةٌ طويلةٌ أو نظرةٌ من عيني الأعمى إلى السماء. لم يسمعه يتكلّم بصوتٍ خفيضٍ

موجوعٍ كهذه الليلة!

- يوم وصل سنّي خمسطعش، توفّت أمّي وهي تولد أخوي حمود اللّي سُمّي أخوك عليه. بلغت العشرين وصار دعائي غير. دعيت الله يعيد بصري عشان أشوف رفيقات أمّي. ما رجع بصري. بلغت الثلاثين، دعيت الله كثير يخلّيني أشوف عشان أختار زوجة مزيونة مثل أمّي. تزوّجت بنت خالي. في أوّل أيّام العرس كنت أدعي في سجودي أن يرجع بصري عشان أشوف عيالي وبناتي اللّي بيجون وبأسمّي وحدة منهم صيتة على اسم أمّي. ما كتب الله لنا التوفيق وطلّقت زوجتي بعد سنة، ما جانا صِيب، لا عيال ولا بنات. سمعت شيخ في موارية يقول إن نصف عمر الإنسان هو الأربعين، دعيت الله وتضرّعت إن يجعلني أشوف ما بقى من عمري بعد الأربعين. راح نصّ عمري وودّي أشوف نصف عمري الباقي. بلغت الأربعين وبلغها معي عماي.

لم يقل عيسى كلمةً! كان ينظر إلى الأعمى منطلقًا في حديثه وقد علَت وجهَه ابتسامةٌ أربكته، لم تكن تناسب ما كان يسمعه. واصل عمّه:

- صارت السنوات الباقية اللّي أدعو الله يمنحني فيها البصر تقل مع الوقت، كانت تقصر، لكن أملي ما قصر أبد. ويوم بدأت مجهرة تتغيّر، بدأ الرجال يطلبون مني ألبس نظارة سوداء. ذيك النظارة اللّي جنب فراشي، قلت: لا. وسألتهم: هي لي أو لكم؟

ليه تخافون نظرة عيني؟ ما راح أمنع وصول النور لعيوني. تغيّر كل شيء. قنعت وطلبت من الله أن يخلّيني أشوف آخر خمس سنين من عمري، بس آخر خمس سنين، فيها بركة. ثم بعدين قنعت بآخر سنة، آخر شهر. آخر يوم. آه يا عويس! البارحة، البارحة ما أمسيت، بعدما ذكّرتني بسوالفك وسؤالك عن العرس، قبل أرقد، دعيت الله وألحيت بالدعاء أن يخلّيني أشوف خمس دقايق بس، آخر خمس دقايق قبل قبض روحي. دقايق تكفي أشوف الشوارع اللّي مشت فيها أمّي والحواري اللّي قضيت فيها طفولتي، أشوف المعزى والخروف والديك والطيور والسماء، ودّي أشوف المرايات.

تذكّر عيسى ارتباكه عندما سأله عمّه عن المرايا كما سأل غيره من قبل. حاول وصفها فلم يفهم الأعمى. هل للبصر صدًى يرتدّ إليكم عبرها كما للصوت صدًى؟ وصله مرّةً سؤال عمّه فصمت. كيف يشرح! عجز عن الإجابة، كما عجز عن شرح معنى الألوان له. لم يجد عيسى سوى النساء حلًّا. قال لعمّه إنّ اللون الأزرق يشبه فلانة والأحمر يقارب فلانة. ومع الوقت صار يعقوب يحبّ بعض الألوان ويكره بعضها. عاد عيسى إلى حديث عمّه:

- نشدتك وما علمتني. وش شكل المراية؟ كيف قطعة قزاز تخلّيكم تشوفون نفسكم؟ ما فهمتها، وش السر اللّي فيها؟ السر اللّي يخلّيكم تشتهون تشوفون أنفسكم وتخلّون شوفة باقي العالم! ما ودّي أشوف نفسي، ودّي أشوفك أنت يا عيسى بعدما راح أبوك ما شفته. ما يئست من رحمة الله، أدري وأحس، مثلما

أدري وأحس بك الحين، بأن الله ما راح يردّ طلبي. ما قلت لأحد من قبل يا عويس هالكلام. من بعد الله، أنت الوحيد الذي ما أستحي منه يشوفني ضعيف. ما رزقني الله البصر، لكن الله رزقني إياك يا عيسى.

وقف يعقوب بصعوبةٍ. وقال ضاحكًا وهو يزفر بحرارةٍ:

- بنقضي ليلنا هنا نسولف مثل النسوان؟ يا الله، أمسينا.

وهو ينهض ليلحق بعمّه، مسح عيسى دمعةً أفلتت من عينه.

* * * *

في آخر أيّامه، لم يعد يعقوب قادرًا على الخروج. كان يجلس مرتديًا النظّارة السوداء في طرف المجلس الذي ضمّ رجالًا قدموا إلى عيسى. كان يعقوب في السابق يلقي سمعه لشكاوى الرجال ويرفع صوته أحيانًا مقترحًا عشبة أو علاجًا، من دون أن يطلب منه أحدٌ المشورة. خَفَتَ صوته مع الأيّام. وشيئًا فشيئًا صار لا يتحدّث. ثمّ توقّف بعدها عن الحضور إلى المجلس مكتفيًا بالاستلقاء على فراشه داخل البيت.

ذبل يعقوب. فقدَ الكثير من وزنه. لم يعد يضحك. ذات مساءٍ لم يشخر كعادته. اقترب منه عيسى، فوجده مستيقظًا ونفَسُه يتردّد بضعفٍ. سأله عمّا إذا كان يحتاج إلى شيءٍ. لم يردّ.

بعد ساعة، سمعه يسعل ويتنفّس بصعوبةٍ. جاء صوته ضعيفًا:

- عويس.

- لبيك.

- أنا، أشبه من؟

- تشبه عمرك.

- من؟ قل لي.

- تشبه أبوي لكنك أطول.

- ومن بعد؟

- يقولون إن مشيتي فيها من مشيتك.

- أنا زين؟ ... شفيك ما ترد؟

- خشمك زين وحجّتك زينة، جبهتك بيضاء وعريضة.

- وعيوني؟

- وساع وزينة.

- ايش لونها؟

- بنّيّة.

- بنّيّة؟ مثل منيرة! يا حليل منيرة.

انهمرت أسئلة عمّه رغم تعبه الواضح. أخبره عيسى بكلّ ما هو جميل فيه. لم يخبره عن أسنانه المتفرّقة ولا عن شعر أذنيه الكثيف. سكت الأعمى مفسحًا المجال لأصوات أنفاسه المتقطّعة. وحين ظنّ عيسى أنّ التعب سيوقف أسئلة الأعمى، باغته سؤالٌ:

- عويس، ايش تشوف؟

- نعم؟

- ايش تشوف الحين؟

- ما أشوف شيء.

- ليه؟

- الكهرب طافي وحنا بالغرفة في نص ليل، ما أشوف إلا الظلمة. سواد.

- ظلام بس؟

- ايه.

- حتى أنا أشوفه. كنت داري. الحمد لله، كنت داري.

لم يفهمه. وقبل أن يغيب في النوم، خيّل لعيسى أنه سمع ضحكةً خافتةً. عندما استيقظ فجرًا، وجد الكهرباء قد عادت والأزرقَ فارق الحياة ونظّارتَه السوداء على وجهه. رأى بقعة دموعٍ أو عَرَقٍ بلّلت موضعَ فمِ المُهرة على المخدّة. اكتفى بتقبيل جبهته. لم تكن قد بردت بعدُ. أخبر الرجال، فجاؤوا، وحملوا الأعمى إلى المقبرة. وكان عيسى قد سبقهم إلى هناك. ورغم إصراره، منعوه من المشاركة في تغسيله لما ظهر عليه من شدّة الحزن. انتظر خارج العريش مع الجموع حتى كُفِّن عمّه وجُهّز للصلاة والدفن.

البيت موحشٌ إذ صار بلا ضحكاتٍ ولا شخيرٍ ولا أنفاسٍ. تغيّر البيت! كلّ شيء يتغيّر هنا يا يعقوب! وهناك في فراش الفقيد، وجد الوسادة. ضمّها. وأغمض عينيه وهو يشمّها. وضعها في حِجره كما يفعل يعقوب. مرّر أصابعه عليها. انتبه إلى شيء. نظر إلى الوسادة. وجد الفرس الكبيرة ولم يجد المهرة الصغيرة. لقد رحلت مع يعقوب تاركةً أثر فتحات الخيوط المختفية خلفها.

* * * *

كسب الشابّ عيسى احترام القرية. قدّموه ليؤمّهم في الصلوات الخمس وفي خطبة الجمعة. ويوم توفّي مذاوي واحتاجوا إلى شخصٍ يهتمّ بالمقبرة بعده لم يجدوا خيرًا منه.

«تهتمّ بنا مرضى وحنّا حيّين، وبتهتمّ بنا يوم نموت»، قالها مداعبًا أحدَ كبار السنّ الذين يمضي معهم ساعات الضحى. جلوسه مع هؤلاء الرجال في القرية وفي السوق خير مصدر للمكارم والمعارف كما يظنّ. وفي إحدى تلك الجلسات قصده رجلٌ غريبٌ وقدّم نفسه:

- أنا ابن خلفان، أشتغل مع أخوك طافي من سنين.

- ما عندي أخو يقال له طافي.

- حمود، أقصد النوخذة حمود.

حمود! الذي قيل إنّه عاش في الصحراء أصبح من أهل البحر ثمّ أمسى ربّانًا!

لم يرتح عيسى لابن خلفان ولا لقصص يرويها عن حمود لا يصدّقها عاقلٌ. ولم يطمئنّ للمال الذي أتى به. ما بي حاجةٌ إلى مالٍ، أخبرَ الرجل. جلس يفكّر بعد مغادرة ابن خلفان، امرأة سوداء! هل تقصد أمّ سويد يا حمود! لم تسأل عن أبيك ولا عمّ أبيك ولا أنا أخيك الوحيد! لكن تسأل عن أمّ سويد التي رحلت منذ عشرين عامًا!

تكرّر قدوم ابن خلفان كلّ سنةٍ. وضع عيسى ما وصله من مالٍ مع سابقه. بدأت النقود تتراكم. تجرّأ، وقرّر صرفها. فاشترى جزءًا من مزرعةٍ بجانب بيته. بفضل المال الذي يرسله حمود كلّ عامٍ صار يذهب إلى الساحل مرّتين وأحيانًا ثلاث مرّاتٍ كلّ أسبوعٍ معزّزًا

مشاركته في مجالس الوجهاء. وقبل عودته من الساحل كان يشتري ما تحتاج إليه القرية من زيوتٍ وأعشابٍ.

تغيّرت مجهرة. حتّى أمراض الناس فيها لم تعد كما كانت. صبيّ يمرض من الماء! الذي جعل الله منه كلَّ شيءٍ حيًّا! لا أؤمن بالخرافات، لكنّ ابنك يا تيماء عجيب.

تيماء ابنة سالم الرجل الشهم، الذي لم يتخلَّ عن تنفيذ وصيّة صاحبه. ترك كلّ نساء مجهرة من أجل البكماء التي أوصاه بها أبوها. رجال القرية سيرحّبون بسالم زوجًا لأيّ واحدةٍ من بناتهم، لكنّه رفض الزواج حتّى تكبر البنت. كبرت ورأى الرجال المقبلين على الزواج يرغبون عنها لأنّها لم تُمنح كبقيّة الناس سمعًا وحديثًا. تقدّم وتزوّجها. منحها الحبَّ والعيش الكريم وتيماء.

كان احترام عيسى لتيماء من احترامه لأبيها. ولو لم يكن أحبّ مريم بنت البلسي ربّما كانت تيماء من نصيبه. لكنّ الله أراد شيئًا آخر. مرّت السنوات، رأى فيها الرجال يتغيّرون بعد الزواج. وعندما قال له أحدهم إنّه سيورث أبناءه ملامح جدّهم، عزف عن الزواج. الزواج يصلح لمثل أبي، لا لمثل يعقوب ومثلي. الزواج كالزراعة يحتاج إلى تفرّغٍ تامٍّ. وكلّ رجال مجهرة يعرفون حالة مزرعتي التي اشتريتها. مثلي يجيد اقتلاع الأعشاب الجافّة والنباتات في المقبرة لا رعاية مزرعةٍ. لست فلّاحًا رحيمًا يعطي بصبرٍ. ولست أبًا يقسو ويضرب أبناءه. مثلي يصلح فقط للعلاج والمسجد وحفظ مجهرة من الزمن الذي لا يُبقي شيئًا على حاله.

تفسير الرؤى لم يعد صعبًا عليه كما كان. أصبح يشعر بأنّ الله يقذف في روعه المعنى. لم يقل لسارّة إنّها ستطلَّق من زوجها عندما سمع رؤياها. تذكّر نصيحة عمّه يوم بلغهما نبأُ وفاة أمّ سعيد. لقيَا سعيد في السوق ولم يكن يعلم حينها. لم يقل يعقوب شيئًا. همّ عيسى بالحديث فعصر الأعمى يده مانعًا إيّاه ومقاطعًا ليغيّر دفّة الحديث.

إيّاك أن تصبح بريد الأحزان والمصائب يا عويس. لا تخفْ، فهي لا تتأخّر، بل تصل مثل البرق ما إن تحدُث، لكن دع هذه الوظيفة لغيرك. قال عمّه له معاتبًا.

لهذا لم يخبر سارّة، لكنّه، في المقابل، لم يكذب. أصبح يُتقن فنّ إيصال معنى الرؤيا من دون قول الأمور بشكلٍ مباشرٍ يفجع أصحابها. «عليك بترك السجائر»، قالها للرجل الذي كاد رفاق السوء يُوردونه المهالك. ومنذ ترك السجائر وابتعد عنهم نجّاه الله. كان أكثر ما يسعده هو تحقّق تعبيره للرؤيا. وحدَها تطمئنه على أنّ قلبه ما يزال خيّرًا ويخاف الله. للأنبياء وحي السماء وللصالحين الرؤى والكرامات. هكذا أخبره عمّه.

ما إن غادر ابن خلفان مجلسَه ذاك العام حتّى شدّ عليه ندمٌ مضاعفٌ، مرّةً لمعرفته برؤيا ابن خلفان: صبيّ يستظلّ بنخلة يتساقط رطبها، يصيح ويدعو طائرًا يحوم وحيدًا في السماء. وأشدّ الندم ما أصابه حين أخبر ابن خلفان بتفسير تلك الرؤيا. إنّها عودة طافي إلى مجهرة وموته فيها. كانت الرؤيا واضحةً. مَن غير طافي؟ ذاك الذي خرج من القرية وحيدًا وأخذ يحلّق عاليًا مُجيدًا فنون الطيران. حلّق

على عجلٍ. بقي يطير طويلًا ناسيًا أنّه لم يتعلّم بعدُ مهارة الهبوط. لماذا أخبرت ابن خلفان؟ كم أمقت طافي وهجره. ومع هذا لم أقوَ على الكتمان.

عاد طافي وغيّر كلّ شيء! أصبح عيسى مُلزَمًا بالمكوث معه في البيت، ولا سيّما أنّ ابن تيماء سبق طافي إلى البيت. هل أصبحت مسؤولًا عن طفلين الآن!

لم يعد ينتظر النوم طويلًا كما كان منذ رحل طافي. أصبح الحديث معه وتعليم الصبيّ يستنزفان طاقته. أحبّ الصبيّ. ليته كان من آل صميح. لولا الخوف من إزعاج الكبار لأسعدني أن أرى غيث يهتمّ بالمقبرة وربّما المسجد. كلّنا ابن آدم. الصبيّ طيّبٌ وحريصٌ على معرفة الكثير. يشبهني. يحبّ الجلوس مع الكبار. يهتمّ بقصص الآباء. لا يشتكي الملل كأترابه. ليته فقط يقلّل من الجلوس مع طافي. لقد شاب أخي ولم تُربّه مجهرة أو أبٌ وعمٌّ. ربّاه البحر والغرباء. وبئس التربية. لولا أنّه أخي لما جلس بمنزلي ليزرع تلك القصص السخيفة في عقل الصبيّ المسكين الذي لجأ إلى طافي وخزعبلاته بحثًا عن أبٍ. مادمت تنصت إلى طافي فسأخبرك أنا أيضًا بقصصٍ، قصصٍ حقيقيّةٍ تفيدك مثل قصّة سويفي رحمه الله، الرجل الذي أحبّه الجميع لشجاعته، لكنّ الشجاعة لم تجعله يخلد في القرية. رحل ولا يعلم أحدٌ أين استقرّ به الحال. إيّاك يا غيث والرحيل عن قرية أمّك. إيّاك أن تقلّد أباك أو تصدّق طافي.

* * * *

في عريش المقبرة، تأمّل عيسى جسدَ أخيه المنهك أمامه وهو ممدَّدٌ. حاول تذكّر ملامح حمود وهو صبيٌّ. لم يستطع!

على امتداد خمسين سنةً لم أكن أرى إلّا وجه الصبيّ الأرعن عندما أتخيّلك. والآن، وفي سنواتٍ قليلةٍ، مسح وجهُك الأشيب كلَّ ملامح ذلك الصبيّ من رأسي. حتّى الخيال يتغيّر! فليغفر الله لك يا حمود. أمّا أنا فلن أفعل.

لئن قلت مازحًا إنّك ستوصي بأن يغسّلك غيث ويدفنك، فإنّك تستحقّ ذلك فعلًا. ولولا خشية أن يحاسبني الله في تجاهل آخر أفراد عائلتي لتركتُ أحد الرجال يغسّلك. محاطًا بروائح السدر والكافور، مسح على جسد أخيه: الصدر الذي لم يضمّه يومًا، الذراع التي لم تمتدّ إليه في صباه، العينين القاسيتين اللتين ذكّرتاه بعيني والده. صدق عمّي يعقوب، ما أقسانا آل إبراهيم!

تيماء تغيّرت هي أيضًا. أصبحت لا تستحي من مقاطعة الرجال في مجالسهم. كسبت عداوة عشرةٍ من رجال آل صميح ومثلهم أو يزيد من آل جبر. أحضرت الغرباء ليزرعوا نخلها. لم تعد تقنع بحظّها من الماء. تقول إنّ القسمة السابقة ليست عادلةً ولا تروي النخل. صارت تجادل الرجال عند المسجد. ذات مرّةٍ انتهيت من الصلاة وعاتبت شري ومفلح أمام الرجال بسبب صراخهم عليها. كانت تجادلها وتطالبها بالعدل. المرأة التي لم تأتِ للاطمئنان على ابنها بعدما فقد يده تتحدّث عن العدل! كنت أتجنّب النظر في عينيها. وحاولت تحاشي ما لم يتكشّف لي منها.

بينما كان رجال القرية يرون نخلَ تيماء يعلو ونتاجَه من التمر يطيب موسمًا بعد آخر، كان عيسى يرى شباب تيماء يذوي ورونقها يخبو. لم تعد تيماء كما كانت. أصبحت تفتح مجلسها لرجال القرية وأمام الغرباء أيضًا. أصبحت تعاملهم معاملة النِدّ للندّ. انقسم الرجال والنساء حولها: فهاهنا مَن يُثني على ما تقوم به من توزيع التمر الطيّب على جيرانها في البيت والمزرعة وبعض أصحاب العوز في القرية، وهاهنا مَن يحمّلها مسؤوليّة كسرِ منافسيها حتّى أعرَض المشترون عنهم. قيل إنّها كانت تُنزل الأسعار وتمنح التمر بالمجّان أحيانًا، نكايةً بمفلح ودرسًا لبقيّة أرباب التمر، حتّى خسر وباعها مزرعتَه بثمنٍ بخسٍ. وقيل إنّها لجهلها قيمة التمر الجيّد ودخولها مجالًا لا يليق بامرأةٍ تبيع تمرها بخُسرانٍ.

تغيّرت مجهرة. الرجال الذين كانوا يلمزون أخي وتركَه أهلَه ويُثنون عليّ وعلى ما قمت به مع والدي وعمّي يعقوب، أصبحوا لا يتحدّثون إلّا عن قبر طاني الذي يفوح بعطر الجنّة. أيّ فعلٍ خيّرٍ قمت به يا حمود ليقبلك الله هكذا رغم ضعف صلاتك وقطعك للرحم!

الجميع تغيّروا، حتّى الصبي. عاد غيث وقد ذهب عقله مع يده. كان يصرخ ليلًا وهو نائمٌ. أحدّثه نهارًا فلا يسمعني. عقله غائبٌ. ما الذي حدث في الأشهر التي قضّيتها بعيدًا؟ لِمَ لا تخبرني؟ سألت رجالًا كثيرين في الساحل ولم يعرف أحدٌ منهم ما جرى.

* * * *

ها قد تغيّر الصبيّ كما تغيّرت أمّه. وصلني علم ما حدث خلال عشاء عقيقة ابنة دريهم، لم يكن كما قال غيث. ما حدث أنّ أحدهم

سأله عن يده فأخبرهم بأنّه يشعر بها وبأنّها تؤلمه. ثمّ قام عواض يداعبه بضرب مكان اليد المقطوعة، فغضب غيث من ضحكهم وادّعى أنّها تؤلمه وغادر من حينه.

ذهبت طاعة غيث لي. ذات يوم نظّف عريش المقبرة، وأعاد ترتيبه من دون أن يستأذنني. وجدت بعض أدوات الدفن القديمة مرميّةً خارج المقبرة، أحدها المجرفة التي حُفر بها قبر والدي. غضبت قليلًا من الصبيّ وجهله. أمّا اليوم فقد اكتشفت بالصدفة أنّه نبش أحد القبور! أعوذ بالله من غضب الله. أسأل الله العفو وألّا يخسف بمجهرة وأهلها بسبب جهل هذا المجنون. لا شكّ أنّه ظنّ الموضع فارغًا ولم ينتبه إلى وجود القبر. تبدُّل غيث أصابه بتكبّرٍ وجهلٍ أوقعاه في هذا الخطإ الذي لا يغتفر.

اتّجه عيسى إلى البيت وبيده مجرفة، وقد عزم على إخافة الصبيّ وتهديده بالطرد من المنزل. كان يهرب من هذا اليوم الذي قد يصبح فيه أبًا، لكنّ الصبيّ تمادى وامتدّت يده إلى الموتى. وصل إلى البيت. كان غيث جالسًا في الغرفة. دخل عيسى وصدمته رائحة نتنة. انطلق في نصيحته القاسية وهو يتّجه إلى النافذة ليفتحها. لم يعلّق غيث. رآه عيسى مطرقًا. فسأله عن رائحة العطن. ومع دخول النور عبر النافذة، توقّف عيسى عن الحديث وهو يرى حفرة عميقة أمام الصبيّ. اقترب منه. رفع غيث بصمتٍ ما في حِجره: بعض بقايا حاجيات حمود وخرقةً قذرةً. احتلّت الحفرةُ المكانَ الذي كان عمّه يعقوب ينام فيه. صاح به عيسى يستوضح ما حدث. لم يصله ردٌّ. اعتراه غضبٌ عارمٌ. فانحنى، وصفع غيث صفعةً تردّد صداها في المكان.

(11)
عصفور في اليد

هل بلغنا آخر الشهر؟ تساءل غيث بينه وبين نفسه حين رأى رجلًا يعرفه جيّدًا يدخل المقبرة. تجنّب عيسى سؤالي عن ذلك الرجل. وهو لا يتجنّب النطق بالإجابات إلّا عندما يعرفها جيّدًا. مَن هذا الكهل الأنيق الملبس الذي بيده ساعةٌ ذهبيّةٌ شديدة اللمعان؟ يأتي في يوم السابع والعشرين من رمضان ويقضي العصر كلّه يدعو أمام قبرٍ. ثمّ يغادر ماسحًا دموعه. ليس من أهل القرية. فما الذي يجيء به كلّ رمضان إلى المقبرة؟ هل يبكي أمام قبر قريبٍ دفعته الأقدار إلى مجهرة كما حصل مع الأستاذ ظافر؟

- صرت تراقب الناس وهم يدعون الله الرحمة لأهلهم؟
- كيف ما أنتبه يا شيخ؟ غريب يزور قبر مثل الساعة في نفس اليوم من رمضان، كل عام!
- لا تنشغل بالناس.
- إذا ما أشغلتني المقبرة وزوّارها، ايش يشغلني؟

علم أنّه لن يجد جوابًا عند عيسى. فبحث عنه عند طافي. «تسألني أنا عن مجهرة؟» ضحك طافي. وجد غيث الجواب لدى أبي فطّوم. علم أنّه رجلٌ أحبّ فتاةً من مجهرة، لكنّ أهلها رفضوه وزوّجوها من

ابن عمّها. ماتت وهي تضع طفلها الأوّل. ومنذ وفاتها وهو يزورها كلّ رمضان. يأتي في الموعد بصمتٍ، يضع دموعه ويرحل.

ذات مرّةٍ، اقترب منه غيث بهدوءٍ. كان الرجل ينظر بحزنٍ إلى القبر. تجرّأ وخاطب الرجل:

- ادع لهم بالرحمة، ما بقى إلا الدعاء.

فوجئ الكهل. التفت. رأى فيه غيث رجلًا وسيمًا. عارضاه رماديّان مشذّبان. ملابسه نظيفةٌ. وساعة يده تنمّ عن ثراءٍ. ردّ بصوتٍ هادئٍ:

- ندعو لهم ليل ونهار في قلوبنا، أصدق الدعاء هو اللّي ما يوصل شفاهنا. مثل ما إن أصدق المشاعر هي اللّي ما نرخّصها ونطرحها قدّام الناس.

لم تعجب الإجابة المعقّدة غيث، رغم أنّها ذكّرته بطريقة حديث أستاذه. سأله:

- قبر قريب؟

- ايه، أقرب من كل قريب.

رأى غيث عشق العالم كلّه قد اجتمع في تينك العينين المتعبتين. لم يطل الحوار. ثمانية وعشرون عامًا منذ رحيل صاحبة القبر، لم يُمكّن منها النسيان!

لم تشغله الدنيا ولا الأيّام عن محبوبته. جال طافي البحار والرجلُ يتردّد على قبرها. ولدتُ وكبرتُ ودرستُ ورحل ظافر وفقدتُ يدي وهذا الرجل لا يزال يتردّد مثل كوكبٍ في مواقيته لا يتأخّر

عن الحضور في موعده. فكّر غيث وهو ينظر إلى ذراعه اليمنى. هل سأنسى يدي؟

لم يعلم حين دخلت السلّاءة الحادّة عميقًا في يده أنّ الجرح سيطول، أو هكذا أخبرته والدته: «لفّها بخرقة ما فيك إلا العافية». قالتها وهي تخرج السّلاة. كانت كفّه تتعافى ثمّ تعود وتلتهب. دهنها بدهان خلطه بيده المعافاة، لكنّه لم ينفع. خلال أشهرٍ بدأت اليد تنتفخ. وبعد فشل الأدوية التي جرّبها مع عيسى في البيت، منعه تقزّز طافي من الكيّ عن الانصياع لنصيحة عيسى. رحل طافي فزاد الألم. لم يعد ينام الليل بسببها. رضخ للشيخ. كوى عيسى الجرح فزاد الألم على نحوٍ لا يطاق. قرّر الذهاب إلى الساحل. فاعتذر عيسى. طلب منه مالًا فتلكّأ! بعد كلّ هذه السنوات التي خدمتك فيها، ولم أطلب أجرًا، تبخل عليّ بثمن علاجٍ!

رجا عيسى أن يخبر أمّه، لكنّها هي أيضًا لم تهتمّ. بدا لها أنّ نخلاتها أولى بالرعاية. يا لك من أحمق! كيف تنتظر منها العون؟ ألم تكن هي من تناست أنّ نخلتها سبب جرحك؟ ألم تسأل عن سبب إصابتك وكأنّها لم تكن هناك قبل أشهرٍ وتخرج بيديها السّلاة اللعينة؟ أجبتها: لقد سقطت وجرحت يدي في البيت، حتّى أحرمها لذّةَ التشفّي.

ذات ليلةٍ هجمت الآلام على غيثٍ ولم يكتم أنينَه إلّا عضُّه على يده الأخرى. انتظر حتّى طلع الصباح. لم يوقظ عيسى الذي صلّى الفجر ولم يسأل عن حاله. جمع غيث ما لديه من مالٍ. أخذ اللؤلؤة التي أعطاه إيّاها طافي. سار إلى وسط القرية. وركب أوّل سيارةٍ توقّفت أمامه.

كانت الطريق طويلةً. وحين وصل الساحل، سأل عن أوّل مركبٍ يحمله إلى الجزيرة. ركبه. ولم يتجرّأ على النظر إلى البحر. كان يتأمّل الدانة بيده. سأله رجلٌ بجانبه عن سبب قدومه، فأخبره. قال له الرجل إنّه يعرف أمهر الأطبّاء. تبعه غيث ودخل خلفه منزلًا لم تبدُ عليه أيّ أمارات الطبّ. كان أقرب ما يكون إلى بيت معالجٍ شعبيٍّ مثل عيسى. نظر إلى يده. وسقاه شرابًا.

عندما استيقظ، وجد نفسه بجانب جدار مسجدٍ. لم تكن الدانة الشيء الوحيد الذي فقدَ. أصابَه الهلع وهو يرى ذراعه بلا كفٍّ. سقط الدمع من عينيه. كان الوجع مبرّحًا. نهض بيده اليسرى، فأحسّ بثقلٍ في جيبه الأيمن. حاول بصعوبةٍ إخراجها من جيبه. كانت خرقةً بيضاء. ورغم إحساسه بالخوف فإنّه أراد التأكّد بنفسه. نعم، كانت يده اليمنى مقطوعةً وأقلّ انتفاخًا ممّا كانت عليه. ردّها إلى الخرقة وانخرط في بكاءٍ حارٍّ.

* * * *

لا شكّ أنّ أسبوعًا كاملًا مرّ وهو يبحث عن ذلك الرجل الذي عالجه وصاحبه اللصّ المخادع الذي قاده إليه. لم يجد أيّ واحدٍ منهما. آلاف الناس يأتون كلّ يوم إلى الجزيرة الكبيرة. عطف عليه أحد الحدّادين وتركه ينام في محلّ الحدادة. مكث يعمل عند الرجل شهرين بأجرٍ. استعاد عافيته وجمع قليلًا من المال، ما يكفي لعودته. رجع إلى مجهرة حزينًا مختلفًا وناقصًا.

ليلة وصوله، لم يخبر أحدًا بما حدث. شغله الألم الذي توزّع

على أجزاء يده. ذراعه تحكّه، وتشكّ معصمَه وخزاتٌ تطرد النوم، لكنّ أشدّ آلامه جاء من موضعٍ لم يتوقّعه. أشدّ ما يؤلمه هو مكان اليد المقطوعة. كان يشعر بنارٍ تسري في عروق كفٍّ لم تعد موجودةً. يغمض عينيه فيشعر بحريقٍ في كلّ أصبعٍ وكلّ أنملةٍ.

لم يطل الحديث مع عيسى. نام ذلك المساء في مكان طافي. في المنام، سأله طافي ألّا يحزن. رأى النوخذة العظيم وقد وضع يده المقطوعة في حجره. قبّلها. ثمّ أعادها إليه. استيقظ غيث في الصباح وقد اطمأنّت نفسه قليلًا. لفّ كفّه المقطوعة بخرقةٍ. كفّنها ودفنها في حفرةٍ عند طرف البيت من غير أن يراه عيسى. لم يستمرّ الألم كلّ يومٍ. سبقتني إليك يدي يا طافي فرددتها إليّ! يدي لم تمت بعدُ. هي مثلي لن تموت.

نصحه عيسى بأن يرتاح في نهار رمضان وألّا يرهق نفسه بالصيام، فهو معذورٌ ويجوز له الإفطار.

لن أسمع كلامك أيّها المنافق، يا من يدّعي الصلاح ويخطب عن صلة الرحم وهو لم يحبّ أخاه قطّ، يا من يعوذ بالله من النار أمام المصلّين ثمّ يعود فيكوي بها المرضى. وقد أهلكت بعضهم. يا من يقول إن الله خلق الناس سواسية ثمّ يفرّق بينهم لأنّهم ليسوا من آل صميخ!

أصبح يغادر البيت مبكّرًا كلّ صباحٍ ويتجوّل في القرية. يقصد المغارة. ثمّ يلوذ بالمقبرة، معرّجًا على الأزقّة متفاديًا المزارع. تجنّب النخيل وأهله. تعاطف فتيان القرية مع خسارته. قلّةٌ منهم لم يصدّقوا ما ذكره من ألمٍ يشعر به في يده المقطوعة.

* * * *

بينما كانت مجهرة تتجهّز لاستقبال العيد، حضر عقيقةً واختلط بالناس. قام كبار السنّ للعشاء. وبينما كان غيث يتحدّث لأحدهم في انتظار دوره في الصفّ الثاني أو الثالث، هجم محدّثه بسكين على المكان الذي امتدّت فيه ذراع غيث، نحو مكان يده المقطوعة ليغرس نصلها في الوسادة غير بعيدٍ من المعصم. قفز غيث صارخًا من الألم. رفس برجله المعتدي الذي غرق في الضحك. عمّت الفوضى واللغط المكانَ. انطلق غيث من المجلس إلى البيت متجاهلًا محاولات صاحب الوليمة ثنيَه عن المغادرة.

كيف لي أن أخبركم أيّها الأوغاد أنّي أشعر بتلك الطعنة الغادرة! عشتم أطول منّي لكنّكم لم تتعلّموا شيئًا. لم يفتح الموت أعينكم بعدُ. ولم تسمعوا صرخاته المدفونة. حتمًا هي صرخات آبائكم الغائبين يحاولون الحديث معي، ومعي فقط، لا معكم.

لم يستيقظ إلّا عند الضحى. أكل خبزًا وجبنًا وضعهما عيسى بجانبه قبل خروجه. اتّجه غيث إلى حيث تخفتْ الأصوات في رأسه قليلًا. اقترب من المقبرة. وصلها بحثًا عن الوحدة. لم يجدها. فاتّجه نحو العريش وهو يلمح الكهل الغريب. آه، هل اليوم هو السابع والعشرون من رمضان؟ ظننته الثامن والعشرين. لم يلوّح له غيث كعادته وهو يمرّ بجانبه. فلا مظهر الكهل الذي توسّد القبر يناسب التحيّة ولا كفّ غيث اليمنى مرئيّة. سار بصمتٍ. لخلوة العاشقين حرمتُها. وحدَهم العشّاق تحبسهم الذكرى وينساهم الزمن.

دخل العريش. جلس على الكرسيّ الخشبيّ المنقوش بحروفٍ

هنديّةٍ. سمع صوت خشبٍ ينكسر تحته. قام. حاول تحريك الصندوق بقدمه. وجده ملتصقًا بالأرض. لم يحرّكه أحدٌ منذ وضع هنا! بعدما سحب بيُسراه الصندوق عنوة، رأى تحته خنفساء تمشي محاولةً الهرب. في المساحة الضيّقة بين الصندوق المهشّم وجدار العريش، وجد نظّارةً سوداء وسكينًا وفردتي حذاءٍ تكوّرت إحداهما. رفع النظّارة التي طمر التراب إحدى عدستَيها وبقيت الأخرى نظيفةً إلّا من غبارٍ وشباك عنكبوت. مسح العدستين بثوبه. رأى انعكاس وجهه. لمح خيطَ قماشٍ أزرق يميل إلى السواد التفّ حول مفصل النظّارة. حاول فكّه. فانقطع الخيط الطويل في يده. رمى النظّارة أرضًا. التفت حوله. ما هذا يا عيسى! وتقول إنّي من سيفسد المقبرة!

علّق غترته على باب العريش وأخذ ينظّف المكان. أخرج برميلين يحملان اللوح الخشبيّ الذي يوضع عليه الميّت. أخرج كلّ تلك المجارف وأدوات الحفر القديمة. قضى نهاره كلّه في ترتيب العريش. هذه المقبرة ستلقى العناية التي تليق بها وتليق بأجساد الموتى. حمل كلّ الأوساخ وكلّ ما لم يعجبه إلى خارج المقبرة ورماه في حفرةٍ بعيدةٍ.

لم يبق من يمنايَ سوى ألمها. ولم تعد الأخرى تنجز ما كنت أستطيعه سابقًا، لكنّ عزيمتي تحمل الجبال.

حين عاد، كان الكهل لا يزال جاثيًا على ركبتيه منكبًّا على قبره كمن أطال سجدته الأخيرة. اقترب منه. بادره بالسلام. لم يردّ. وقف غيث على رأسه متفحّصًا. لقد فارق الحياة منذ زمنٍ. لا شكّ أنّه مات البارحة، هنا أمام قبرها. لم يتردّد كثيرًا. سيدفنه هنا في

مجهرة. حمله على كتفه وسجّاه بخشوعٍ على لوح الموتى في العريش وانتظر الغروب.

كنت قد سمعت عن شخصٍ مات هنا في المقبرة وكانت وفاته سببًا في توسيعها. وأنت الثاني أيّها الرجل الغريب، ما اسمك؟ من أيّ القرى أنت؟ لم تستطع قريتك أو مدينتك ولا سنواتك الطويلة أن تنسيك إيّاها. ها هي روحك تفيض وتسبقك إليها. شاء الموت أن يجمعكما في مقبرةٍ واحدةٍ! لا، بل شاء الموت أن يجمعكما قبرٌ واحدٌ.

بعد هبوط الظلام، بدأ يحفر قبر تلك المرأة. كان الحفر بيدٍ واحدةٍ شاقًّا، لكنّ ذلك زاد من إصراره. بلغ اللحد، لم يكفّن الرجل ولم يغسّله. كفى بالعشق العذريّ طهرًا. صلّى عليه وحيدًا. ودعا الله أن يجمعهما في الجنّة كما جمع الموتُ جسديهما في مجهرة. لم يزر عيسى المقبرة إلّا بعد سبعة أسابيع. أزعجه ما رأى من تغييرات في العريش. صرخ في وجه غيث وعاتبه، بل هدّده بأن يمنعه من دخول المقبرة. تمنع مَن أيّها الأحمق؟! تمنع ابن الموت؟! هل نسيت أنّ مجهرة اختارت المقبرة مسقطَ رأسي؟!

لست وحدك يا عيسى من تصله الرسائل. طاقي اختارني أنا لا أنت. اختار أحلامي لا أحلامك. ردّني من الغرق وردّ إليّ يدي كي أقوم نحوها بما يجب. لم يكن عيسى في البيت عندما ذهب غيث وحفر في طرفه ليخرج يده الملفوفة في الخرقة. جلبها واتّجه نحو الغرفة التي كان ينام فيها بجوار طاقي، الغرفة التي لفظت عيسى ولم ينم فيها مطلقًا.

أين أدفنها؟ لا أعرف مكانًا أفضل من المكان الذي فتّحتَ فيه عينيّ على الحقيقة يا طاقي.

عندما أوقفه عيسى بالقوّة عن الحفر، لم يكن غيث يسمع صراخه.

لن تفهم أيّها المنافق.

رآه يقف بجانبه، ممسكًا بمجرفٍ قديم كُسرت عصاه.

- ترمي شيء ما هو لك يا الجاهل. عمري ما رميت شيول انحفر به قبر واحد من شيبان مجهرة! تجي أنت يا الورع وترميها كلها!

لا يتذكّر إلّا أنّ عيسى صفعه بلا سببٍ مقنعٍ. ثمّ دفعه بعصا المجرفة في صدره. نهض غيث ببطءٍ وفي حركة ملأها بالغيظ أعاد الدفعة إلى عيسى بيده اليمنى. دفعه بيده المقطوعة مثل رمحٍ فسقط على ظهره متعثّرًا، وانزلقت المجرفة من يده بينهما. تلقّفها غيث بيسراه. هوى بها على رأسه قبل أن ينهض. ضربة واحدة في صدغ الرأس الأيمن لم تُخرج دمًا كثيرًا. شاهد عيسى على الأرض شبه فاقدٍ للوعي، يتمتم بكلماتٍ مبهمةٍ. اقترب منه فتبيّن أنّها لعناتٌ. بيده الوحيدة، ضغط غيث بكلّ ما منحه الموت من غضبٍ على رقبة عيسى. لا يعلم لماذا واصل الضغط طويلًا رغم توقّفه عن الحراك. نهض وأشعل نارًا. وضع نصل محشّ على جانبها. عندما صار النصل جمرة، كوى بيدٍ ترتجف رأس عيسى في مكان الضربة. حاول تغطية الجرح. سيخبر الرجال أنّ عيسى مرض فجأةً وكوى نفسه بنفسه ونام نومته الأخيرة. لم يقم بعملٍ جيّدٍ. لماذا لم أفقد يدي اليسرى بدلًا من تلك التي أجيد استخدامها!

عندما تأخّر عيسى على غير عادته عن صلاة الفجر، قدّم الرجال عايض ليؤمّهم. وصل غيث المسجد متأخّرًا. بعد الصلاة، أخبر الرجال بوفاة عيسى. علا بينهم صوت الحوقلة والشهادتين والصلاة على النبيّ. كنت أعلم أنّه مريض، قال أحدهم. لم يحتمل فراق أخيه، علّق آخر. التفت عايض إلى غيث ورفع صوته:

- الله يعظم أجرك يا غيث في عمّك اللّي ربّاك، ما راح نلقى أحسن منك يغسّله ويدفنه.

تمتم البعض مؤيّدًا عايض وهم يواسون غيث في مصابه. جاءهم ردّه:

- أوصاني أغسّله وأكفّنه في بيته وبيت أبوه.

هل يعقل أن ينتهي الأمر هكذا! أرأيت يا عيسى، لم يكن من داعٍ إلى الكيّ حتّى يصدّق الناس موتك. الموت وحدَه هو ما كنت أحتاج إليه. جرّ غيث جسد عيسى وغسّله. أطال في غسله. وعندما ضغط على بطن الجثّة برفقٍ نزولًا لإخراج ما في أحشائه، سمع غيث صوتًا. ضحك. ونظر إلى وجه عيسى الجامد:

- طلعت تضحّك! على قولتهم.

نقل عايض النعش بسيّارته الكبيرة الجديدة التي اشتراها بعد تقاعده من العمل. صلّوا عليه. رفض غيث أن يؤمّهم. قال لعايض: لي الغسل والمقبرة ولك الإمامة. بادر عايض وأعلن أنّ العزاء سيقام في بيته لأنّه من آل صميح ولأنّ غيث أعزب.

عاد غيث إلى البيت الفارغ. تأمّل جدرانه وباحته. دخل غرفه

واحدةً إثر أخرى. تغيّر كلّ شيءٍ هنا، لكنّي سأنتظر حتّى يمنحني آل صميخ الحقَّ فِي الجلوس. وسأشتري البيت إذا طلبوا مقابلًا لم يبت عيسى خارج بيته إلّا في حجّاته الثلاث، الليلة يبيت عيسى ليلته الأولى في مقبرتي وإلى الأبد.

* * * *

في ضحى اليوم التالي، استنشق نفسًا عميقًا وهو يقف في منتصف المقبرة. لم يعد هنا مَن يستطيع إيقاف مخطّطه القديم الذي يُقيم العدلَ في حاضر مجهرة، بل وفي ماضيها أيضًا. قضى أسابيع عديدةً يرسم في دفتره مخطّطَ القبور الجديد، وما يجب أن تكون عليه. في المرحلة الأولى وعلى مدار عامٍ كاملٍ سيعمل على تعديل مائة قبرٍ. ربّما يستغرق الأمر سنواتٍ. لا يوجد مبرّرٌ للاستعجال. ولا يضير الأمر مجهرة التي انتظرت قرنًا أو أكثر حتّى وصول غيث!

لم يعد يحتاج إلى مطرٍ ليطمس الآثار. لا عيسى هنا، ولا رجال مجهرة ينتبهون عند زياراتهم الخاطفة إلى المقبرة.

لم تأت تيماء لزيارته. فطّوم فعلت لتطمئنّ عليه. هذا الملاك، كيف استطاع العيش مع تلك المرأة؟! وحدَها فطّوم تهتمّ بأمره. عندما هطل المطر واستمرّ أسابيع بلا توقّفٍ فحبسه في البيت حتّى كاد يهلك لم يزره غيرها. كانت تحضر أكله، والتمر واللبن أحيانًا. لولا الخجل لأخبرها أنّ (صالونة) الخضار التي تصنعها هي ألذّ أطعمة الأرض عنده.

لم تتزوج بعدُ. كيف تفلح وهي تسكن مع تيماء! حدّثته فطّوم عن

المزرعة والنخل. أخبرته، وهي تمدّ إليه بعضه، أنّ تيماء منحت تمرها كلّه مجّانًا للجميع! هل امتنعت عن دفع علاج ابنك لتزرعي نخيلًا توزّعين تمره بلا مقابلٍ؟! هل قطعت يدي لكي تزرعي ما لا قيمة له في نظرك!

* * * *

يا لها من رائحةٍ! كانت تدلّه على المطر قبل قدومه. لو تأمّلوا بوادر المطر من برقٍ يُعمي الأبصار ورعدٍ يصمّ الآذان لعلموا أنّها بوادر عذابٍ لا رحمة. بالأمس شاهد بعض الرجال يصلّون صلاة الاستسقاء. لم تكتف هذه المرأة بتقليل احترامي عندما وقفت وكأنّني لست موجودًا أمام رجال المسجد مُلزمةً الجميع بالصلاة طلبًا للسقيا! تطلب المطر! المطر الذي تعلم أكثر من غيرها أنّه يقتلني! ومن أجل ماذا! من أجل نخلات تهب تمرَها بلا ثمنٍ!

كان يتأمل النّار التي أضرمها في بيت عيسى ليسخّن حليبًا. فجأةً أحسّ بحرقةٍ في جوفه فنهض. لقد ولّى زمن الصبر على البلوى. ولّى زمن عيسى. وآن الأوان كي تتعلّمي يا تيماء معنى الألم. لم تخمد النار في صدره. وغلى الحليب وفاض. عاد إلى البيت فجرًا من مزرعة تيماء. كان عرقه يتصبّب.

سأمرض يومين أو ثلاثة، لا بأس فقد أخذت حقّي كاملًا بيدٍ واحدةٍ.

وضع رأسه على الفراش. مدّ يده في الظلمة. وصل إلى الربابة بذراعه المقطوعة. أحسّ بسبّابته الخفيّة تلمس الوتر. سمع رنّته في

جسده. واستسلم للذّة النعاس. كانت ليلته الأولى التي ينام فيها من دون شعورٍ بألم يده.

* * * *

تناقل الرجال خلال أسابيع إشاعاتٍ عديدةً عن المرض الغريب الذي حلّ بنخل تيماء. كانوا يعزّونه ويستفسرون عن هذه المصيبة فيجيب: لا أعلم. أصاب الجنونُ تيماء. كانت تجرّب كلّ يومٍ طريقة مّا. جرّبت قراءة القرآن. غطّت مبروكة وكلّ القرية بطوابين الدخّان الذي أحرقت من أجله الكثير من جريد النخل. أحضرت سوائل كيماويّة من الساحل قال أصحابها إنّها تقتل سوسة النخل الحمراء وحفّار النخل وحفّار العذوق وكلّ الأمراض التي قد تكون السبب. قال البعض إنّه الوجام الذي لا دواء له. وقيل إنّ سحرًا عُقد في رأس إحدى النخلات. وقيل إنّها عين الحسد رماها بها أحد تجّار التمر في الساحل.

ليتها زارته. كم كان يودّ أن يرى ألمَ تيماء بعينيه. هل ذاقت السهر وضاق عليها الليل؟ هل زارها الحزن وساورها الندم على ما سبّبته له من بؤسٍ؟

فتح عينيه وهو يشمّ رائحة المطر. اتّجه إلى المقبرة. لقد وصلتني رسالتك أخيرًا.

البارحة رأى طاقي، رأى ظافر، رأى والده، ورأى جدّه سالم لأوّل مرّةٍ. استيقظ مدركًا أنّه دفن يده في المكان الخطإ. لقد أخبرتني منذ البداية يا طاقي بأن أُبعد اليد من حجرك وآخذها صوبي. وأيّ الجهات صوبي؟ المقبرة، والمقبرة فقط.

لا بدّ أن يختار ليده قبرًا خاصًّا، قبرًا بمنزلة القلب للمقبرة، قبر حبيب الله. سأضع يدي مع حبيب الله. المجانين يدخلون الجنّة. وستدخلها يدي قبلي. عندما بلغ لحدَ المجنون، فتحه. وجد شيئًا غريبًا. لقد وضع غيث الكهلَ الغريبَ مع من أحبّ. لكن ما بال هذين الجسدين مدفونين معًا! أيّهما حبيب الله؟ نبش الرفات، فرأى جمجمتين، إحداهما بأسنانٍ سوداء كالفحم! لا شكّ أنّ هذا لم يكن قبر حبيب الله بل قبر حبيبين. وحدَه الموت يجمع الأشتات. تردّد. ولم يدفن يده. دفن الجمجمتين. وأعاد القبر كما كان. سمع صوت الرعد. رائحة المطر تزداد. نظر إلى يده اليسرى التي حملت أختها في خرقةٍ.

جدّي سالم! كيف غاب عن ذهني؟! لهذا كان معنا في الحلم! لقد اجتمع كلّ من أحبّهم أو أحبّ ذكراهم في رسالةٍ واحدةٍ، جاء بها الموت، رسولي الأثير.

تحت وميض برقٍ بعيدٍ، وقعت عينا غيث على قبر جدّه. هل يعقل أن تكون تلك الأقاويل حقيقةً؟ هل ولدتني تيماء في هذا القبر لا خارج المقبرة! طاقي كان صريحًا وواضحًا في قول ذلك.

هنا، في هذا القبر قدمت إلى الدنيا، عبر باب الموت. وهنا سأضع يدي. لا قبر في مجهرة ولا أيّ مكانٍ في العالم يمتاز على قبرٍ شهِد ميلادي. لم تخبرني تيماء بذلك. أرادت أن تسلبني قصّة نادرةً أستحقّها!

غابت الشمس. ومع أوّل قطرة مطرٍ أصابت وجهه، رفع غيث المجرفة عاليًا. هَوت ضربتُه الأولى على قبر جدّه. لم يحسّ بالمطر الذي

نزل غزيرًا. لن يضرّني بعد اليوم. سأصحو غدًا بلا ألمٍ. لقد شفتني الحقيقة وحرّرتني. لا، لست ابنها، أنا ابن الموت.

بلغ اللحدَ. رمى المجرفة خارجًا. شاهد المطر يجتمع أسفل القبر عند قدميه، ولم يشعر بوقوف تيماء فوق رأسه.

* * * *

كان غيث قد بدأ يفتح كَفَن جدّه ليضع الخرقة التي فيها يده. وقف داخل القبر يتأمّل المكان الذي شهِد ميلاده. لم يدرك ما حدث. أضاءت الدنيا. ثمّ أظلمت فجأةً. أحسّ بأنّه يغرق في الماء أسفل القبر حين شاهد تيماء. كانت فوقه خارج القبر. عرف بُرقعها وحنكها. هل جاءت لتراه؟ كانت تمدّ يدها بلوحٍ لتنتشله من الغرق، لكنّ البحر يجذبه من الجهة الأخرى.

.. لحية يونس

.. من أنت؟ ..

.. ألف ومئتان وستة وخمسون.

تقافزت الصور في رأسه بلا سببٍ! شعر ببرودةٍ في رجليه، فعاد إلى اليوم الذي وقف فيه هو وفطّوم بجوار أمّه في الشّرب. سمع ضحكات فطّوم تحت النخيل. أحسّ بصفاء عيني تيماء المبتسمتين يومها. وغاب في نومه العميق.

* * * *

كانت تيماء تبحث عن غيث في بيت عيسى. وحين لم تجده، هبّت مسرعةً إلى المقبرة. وقفت يمنعها الخوف القديم عند الباب، لكنّ

الغضب أعماها عندما رأت شبحه من بعيدٍ. صرخت باسمه لأوّل مرّةٍ فلم يُجبْ. دخلت راكضة إلى المقبرة. لم تظنّ يومًا أنّها ستكرّرها ثانيةً، لكنّها لن تستطيع النوم ما لم تتأكّد ممّا رأته في مزرعتها. داست على بعض القبور وزلقت قدماها في طين المطر الغزير. أتاح البرق الخاطف رؤية غيث هناك وقد خرج نصفه من باطن الأرض وهو يرمي شيئًا مّا. ثمّ انحنى ليختفي في الأرض. نادته فلم يسمعها. اقتربت منه. وراعها ما رأت.

عرفت القبر. فهي لا تعرف قبرًا سواه. لم تقوَ على الحديث. شاهدت غيث يرفع بيدٍ واحدةٍ كفَن والدها الذي كاد يغطّيها يوم مولده. رأت يده المقطوعة مفرودةً في الهواء كنخلةٍ بلا رأسٍ. وعندما التفت، لمحت الشرر يتطاير من عينيه. كان الشرّ متجسّدًا. التقطت شيئًا مّا أسفل قدمها وسلّمت الدفّة لهلعها.

قبل أن ترمي تيماء المجرفة أرضًا، رأته يهوي على ظهره. وقد اختفت إحدى عينيه خلف جرحٍ يدفق الدم مثل نافورةٍ متقطّعةٍ. استلقى غيث بوجهٍ تشوّهت ملامحه. فمه ينزف تحت المطر، مُصدرًا نخيرًا مكتومًا.

وكما ولدته هنا صامتًا، لم يصرخ عند موته. قدح برقٌ أضاء المقبرة كلّها. عاد غيث متمدّدًا في الموضع نفسه، الموضع الذي وقعت عيناها عليه أوّل مرّةٍ. وعلى صوت الرعد الذي هزّ كلّ مجهرة، بدأت تيماء الدفن.

(12)
الصَّرام

نعم أتذكّر.

فركت أمّها حلمة أذنها بشدّة. أطلقت الصغيرة أنينًا مكتومًا. هل نسيتِ ما قلنا؟ قالتها الأمّ وهي تغلق غطاء زجاجة العطر الكبيرة بإبهامها وسبّابتها. وما إن أحكمتها حتّى أعادت فرك أذن الطفلة مرّةً أخرى. وهي تنظر بذعرٍ إلى ما حولها، تعلّقت فطّوم بحضور تلك المرأة التي ابتسمت لها ونظرت بحبٍّ أزال الألم الذي اخترق أذنها. ذلك اليوم، خرجت فطّوم بقرطها الأوّل وبصديقتها البالغة الأولى، تيماء.

قابلت نسوةً غيرها في المنزل، لكنّ هذه المرأة تختلف عنهنّ. كانت تلاعبها وتخصّها بابتسامةٍ كلّما رأتها وحيدةً. تتذكّر جيّدًا أنّها كانت تحمل الرّمّان وتسلّم كلّ طفلٍ يقبّل أنفها رمانةً في يده. وحدَها فطّوم مَن تظفر برمّانتين.

لا تعلم فطّوم لماذا ابتعد بيتهم عن القرية. الملل يصيبها غالب الوقت، وخصوصًا عندما تكلّفها أمّها بمهمّات الكبار. تعلّمت التنظيف صغيرةً. وتولّت حمل إخوتها وهي لاتزال في الرابعة. تقول أمّها إنّها أصغر من مشى من أطفال مجهرة:

- ما كمّلتي شهرك الخامس، فجأة وقفتي ومشيتي، ما حَبَيْتِي على أربع مثل الورعان. خفت عليك من عيون النسوان. لو شفتي دِق رجليك وعَصَاقِلِك وأنتِ تمشين وتطيحين كان ضحكتي وما صدقتي.

ما فائدة المشي حبيسة البيت! كانت تحلم بمرافقة والدها في واحدةٍ من رحلاته الصباحيّة. يخرج بمزاجٍ رائقٍ كلّ يومٍ، لكنّه يعود بآخر متعكّرٍ. لا شكّ أنّه التعب والجهد. أتاحت لها فترات حمل والدتها المتوالي قضاءَ بعض الوقت مع أبيها. كان يدلّلها بعباراته كلّ صباحٍ: الشاطرة، القِبلة، قلبي، عيون فرج. يحبّها لكنّه لم يأخذها معه في السيّارة.

في البيت، تعمل كثيرًا وتلهو قليلًا. لم تكن تكره العمل. فالاعتناء بسرور والصغار يُنبت في قلبها شعورًا لا تفهمه، لكنّها تحبّه. علّمتها أمّها مبكّرًا الاعتماد على النفس: «إياكِ أن تكوني مثلي، اعتمدي على نفسك». ولماذا لا أكون مثلك؟ تساءلت كثيرًا وهي تتأمّلها.

كانت ترى أمّها أجمل النساء، تخطف الأبصار في الأعراس. النساء ينظرن إليها بإعجابٍ مشُوبٍ بالحسد. ورثت فطّوم شعرها الطويل لكنّها لم ترث قوامها وتضاريسها ولا تلك الرموش التي كانت تسرح معها كلّما جلست كي تمشّط شعرها.

ما إن تنهي مساعدة أمّها في التنظيف والكنس، حتّى تنطلق في باحة البيت وتنظّم لعبة الفريق. هكذا كان والدها يسمّيهم، الفريق!

- وأنا الرئيسة أو الملكة؟

- لا. أنتِ الكابتن.

- ايش يعني؟

- يعني أنتِ اللّي تتحملينهم كلهم وتخلّينهم يلعبون مع بعض.

علمت لاحقًا أنّ الكابتن هو مَن يقود فريق كرة القدم. طلبت من أبيها كرة قدم فأحضرها من الساحل. وقال لها وهو يسلّمها إيّاها: «انتبهي لا يشوفونك النسوان تلعبين، الكورة للأولاد».

ركلتها. ووصلت إلى قناعةٍ مبكّرةٍ مفادها أنّ الكرة ليست للنساء، لأنّها مملّةٌ. كانت تفكّر، وهي تنظّف الصحون، في ابتكار ألعابٍ جديدةٍ. بدا لها أنّ من مهامّ الكابتن رفع مستوى الترفيه في البيت. وزّعتهم. ولعبوا أدوارًا متخيّلةً. ضحكت وهي ترى (جِلال) الصلاة الخاصّ بأمّها ملفوفًا على وجه سرور حين يتقمّص دور الأمّ. كان يحاكيها وهي تصلّي. لا يوجد أجمل من رؤية الأطفال يقلّدون الكبار.

في سنتها الأولى بالمدرسة، لفتت أنظار المعلّمات. كانت تحبّ القراءة والقرآن. وقرأت من دون تلعثمٍ سورةَ الفاتحة كاملةً كما حفظتها عن أمّها. اكتشفت أنّ قيمة حفظ سورة الفاتحة ليست في أداء الصلاة والحماية من العين فقط، بل أنّ إتقانها جيّدًا أسرع طريقٍ إلى إثارة إعجاب المعلّمة.

(ألهاكم التكاثر، حتّى.. حتّى...)

توقّفت وهي تشاهد تيماء من بعيدٍ تدخل البيت وتتّجه إلى غرفة أمّها متثاقلةً. حاولت الصبيّة لقاءها والسلام عليها. لم يتح لها ذلك.

أشارت أمّها بألّا تدخل الحجرة. وقفت خلف درفة الباب واسترقت السمع والبصر. رأت تيماء تبكي! كانت المرّة الأولى التي ترى فيها بالغًا غير أمّها يبكي. سمعت تيماء تقول إنّ والدها نسي شيئًا، ولم تكمل. ما أقبح النسيان!

لا تنسي ما حفظت، هكذا علّمتها المعلّمة.

(ألهاكم التكاثر.. ألهاكم التكاثر.. ألهاكم التكاثر)

سمعت أمّها تخبر الباكية بأنّ النسيان للمسنّين نعمةٌ. حدّثتها عن إحدى جدّاتها التي كانت تنادي ابنتها باسم أمّها.

- تتخيلين؟ كانت تظن أن بنتها هياء هي أمّها! انهارت هياء المسكينة، وكل ما جينا نزورها نسمع العجوز تنادي بنتها «يمّة» وتحب راسها. كانت هياء تبكي وما ترضى تعطيها راسها لين قلنا لها إن العجوز بتفرح لو خلّتها براحتها. دمعت عيني وأنا أشوف العجوز تحب راس بنتها وتكلّمها تظنّها أمّها.

لم يبدر من تيماء صوتٌ.

* * * *

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثمّ.. ثمّ..).. كانت تكرّر الآيات وهي تنظر إلى السحب التي تلبّدت. توقّفت محاولاتها لحفظ سورة التين حين سمعت صوت والدها. هرعت مستجيبةً له. كان في الخارج يحمل أمتعةً من صندوق السيّارة. رأت أكياسًا كثيرةً. تناولت بيديها ما استطاعت حملَه وتبعت والدها. رأت أمّها تخالفها

السير متجّهةً إلى السيّارة وهي في كامل زينتها! وصلت إلى المطبخ، وأنزلت ما معها وعادت لتكرّر ما فعلت. أمام السيّارة وجدت أمّها تنظر بعينين تتّقدان غضبًا إلى أبيها المحتقن بالقهر. فجأةً رأت أمّها تصفعه. شهقت الفتاة شهقةً عاليةً، وكاد قلبها يتوقّف وهي تلحظ استدارة والدها محدّقًا فيها بدلًا من أمّها. هربت إلى المنزل واختبأت في عتمة المطبخ. حاولت ترديد ما حفظته من سورة التين، فترصّدها النسيان.

بعد نصف ساعةٍ، سمعت صوت والدها يناديها. ركضت إليه وشاهدت أثر خطٍّ أحمر على خدّه. لا شكّ أنّها أساور أمّها الذهبيّة التي اشتراها هديّةً لها.

– جيبي غترتي البيضاء والطاقية والشنطة اللّي عند الدولاب.

عندما كانت تمدّ له الأمتعة عبر نافذة سيّارته المفتوحة، أرادت قول شيءٍ لم تعرف بعدُ ما هو، لكنّها لم تستطع. تحدّث هو. بدا لها الطلب مدهشًا. فنظرت إلى والدها لتتأكّد ممّا قال، أعاد:

– اركبي.

ركبت السيّارة. ونسيت أن تأخذ معها غطاءً لرأسها. سارت السيّارة بهما. لم يقل والدها شيئًا. كان صوت الإطارات التي تدوس الطرق الترابيّة هو كلّ ما تسمعه. سمحت لها سرعة السيّارة التي تقارب سرعة ركضها هي بأن تفتح نافذتها وتطلّ برأسها لتتأمّل الإطارات والطريق عن قربٍ. حثّت السيّارة سيرها وانطلقت تتهادى حول نخيل مجهرة. لم يفسد المتعة سوى رؤيتها أثرَ جرح والدها عندما

التفت ليخلع عقاله وغترته وطاقيّته ويضعها بينهما. كان الهواء عليلًا، حمل رائحة النخيل.

بدأ المطر ينزل. طلب منها والدها إغلاق نافذتها. رأت قطرة ماءٍ كبيرةً على صلعته. تمنّت أن تمسحها، لكنّها لم تتجرّأ. قفلا راجعين. ارتعدت مع هزيم الرعد الذي أضاف إلى صوت ارتطام قطراتٍ بسقفِ السيّارة هيبةً لم يكن في حاجة إليها. نظرت إلى السقف خائفةً. رؤية المطر وسماعه من داخل السيّارة مختلفان. أتاحت لها النوافذ رؤية ما يفعله ماء السماء حين لا تكون فطّوم في بيتها. أخرجتها يد والدها من تلك الرهبة. وضع يده على كتفها البعيدة وجذبها إليه.

- المطر زين وأنا أبوك، ما يجي منه شَر، لا تخافين. هذا هديّة الله للضعوف والفقارى وللدبش والزرع.

رأت المطر ينزع اللون الأصفر عن القرية. أصبحت الأشجار خضراء والإسفلت أسود وخزّانات الماء الصدئة حمراء بعدما زال غبارُها. وصلا إلى البيت. لم يوقف السيّارة في مكانها المعتاد، بل أدارها استعدادًا للمغادرة. نزلت. وبعد أن أغلقت الباب وسارت السيّارة انطلق لسانها من غير أن تشعر. توقّفت السيّارة. مشت إليه وهو يفتح النافذة. وضعت يدها على الباب بقربه. سألها:

- قلتي شيء؟

- يبه، لا تخلّي أمّي، لا تخلّينا.

هي اللّي راحت وخلّتني. أمّا أنتِ واخوانك ما راح أخلّيكم يا قليبي.

قبّل يدها الصغيرة وانطلق.

كان صراخ أمّها عاليًا. قضت ذلك المساء تستمع باستغرابٍ إلى بكاء أمّها. في الصباح، لم تذهب إلى المدرسة. نادتها سويّر وطلبت منها البقاء في البيت قبل أن تخبرها بمعنى الطلاق. تساءلت، وهي تصنع فطور الصغار: مادام الطلاق سيئًا ويُبكي الإنسان بحسرةٍ فلماذا يفعله الكبار؟

عندما سمعت صوتًا آخر انزاح عنها همٌّ كبيرٌ. وحدها تيماء تستطيع الترويح عن أمّها. قضّت طوال الضحى قربها. ثمّ وافقت على البقاء للغداء مع أمّها التي لم تأكل شيئًا منذ غداء الأمس. توافدت النسوة ذلك اليوم. وكانت سويّر تفرغ غضبها عليّ. ما الذي فعلته أنا؟!

شعرت بذنبٍ لا تعلمه. قطعت ذلك اليوم الطويل بين صنع القهوة للقادمات والاعتناء بالصغار. وحين رأت النسوة الزائرات قد أحضرن دلال القهوة والشاي معهنّ علمت أنّ عليها الابتعاد عن مجلسهنّ والبقاء مع الصغار وقتًا أطول.

لم يكن الصغار على درايةٍ بما يحدث. وَضحى تلعب بدفترٍ وقلمٍ أخذتهما من حقيبة فطّوم. سرور يقفز فوق الصفّ الذي وقفت غُزَيِّل محاولةً ضبطه، وهو يتكوّن من بندر وسالم وخويلد. يقفز سرور فتضحك غزيّل عاليًا وهي ترى الصغار يجفلون. وما إن يهبط حتّى يعود إلى تكرار الأمر. تتذكّر أنّها كانت تطلّ خلسةً على النساء لتطمئنّ على أمّها. لم تجرؤ على الدخول. بعد أوّل مرّةٍ اقتربت فيها منهنّ

بالمبخرة خرجت مطرودةً ومثخنةً بسباب أمّها وشتمها. في المطبخ، حاولت حفظ السورة. لم تستطع. أغمضت عينيها كما تفعل عندما تقرأ الفاتحة. أحسّت بالنار في ذراعها. جفلت ورأت دلّة القهوة تسقط أرضًا. لا شكّ أنّ ذراعها لمست الدلّة وأسقطتها. أبكاها القهر أكثر من لسعة النار.

غدًا أقف أمام المعلّمة وقد سبقتني بنات الصفّ إلى سورةٍ أخرى. وها أنا لم أحفظ بعدُ سورة التين، ولم أفعل ما يخفّف عن أمّي الحزينة. نظّفت المكان، وأعادت صنع القهوة بعد لفّ قماشةٍ بيضاء حول ذراعها ووضعِ كريم الشعر الأبيض على أثر الحرق. مرّ الوقت. دخلت أمّها عليها المطبخَ، فارتجفت وعلا نبض قلبها. ما الذي أخطأت فعله هذه المرّة! نظرت الأمّ إلى الخرقة وفتحتها فرأت الحرق. كم مرّةً يجب أن يحدث هذا ليثبُت لها أنّي لست أهلًا لثقتها! نعم، أستحقّ كلّ ما سيأتي.

توقّفت عن التنفّس عندما ضمّتها أمّها. وبيدها تلك مسحت دمعها. هل شعرت أمّي بالذنب تجاه أبي؟

كانت تشعر بحرارة الأنفاس التي نزلت على أذنها ورقبتها واهتزاز صدر أمّها الباكي بصمتٍ. إذّاك أدركت فطّوم معنى الطلاق.

* * * *

بدا الأمر وكأنّ كبار القرية قرّروا ألّا يخبروا الصغار بالحقيقة. هل هذا الصبيّ الذي يلعب أمامي وُلد فعلًا في المقبرة؟ لم يعطِ الكبار جوابًا واضحًا. تعلم أنّه وُلد صباح اليوم الذي زارتهم فيه تيماء شاكيةً

نسيان والدها. يبدو أنّ الشيخ نسي أن يتنفّس ذلك الصباح، صباح يوم ميلاد غيث. فمات.

كانت فطّوم تعتني بغيث عندما تزورهم تيماء. ينظر حوله طوال الوقت بدهشةٍ. علّمته العدَّ من واحدٍ إلى عشرةٍ وتشجّعت حين حفظها بسرعةٍ. لم تكن تيماء تقوم من المجلس للاطمئنان عليه كما تفعل أمّها مع إخوتها الصغار. آمنت الفتاة أنّ تيماء تثق بها ثقةً تامّةً.

«تيماء غير!» كان جواب أمّها عندما تسألها لماذا لا تسمح لها بزيارة صديقاتها وزميلاتها وحدَها.

- كل البنات يروحون لحالهم ويجون لبيتنا لحالهم.

- ما فيه روحة لحالك.

- خلّيتيني أودّي الصّفَاري لخالتي تيماء لحالي مرّة ورجعت وما صار شيء.

- تيماء غير.

فطّوم تحبّ تيماء وتتعاطف معها، لكنّها أرادت العيش كبقيّة فتيات القرية. تعلم أنّ حبّ والدتها وخوفها هو سبب المنع. ستطلب من والدها أن يأخذها بالسيّارة.

كانت تعلم أنّ شخصيّة والدها أقوى من شخصيّة أمّها، لكنّه لم يمدّ يده مطلقًا على أيّ واحدٍ منهم. لا شكّ أنّه الحبّ. يحبّ أمّي، لكنّها لا ترى ذلك. أبي مثل تيماء، لا يظهر مشاعره لمن يحبّ. لا يظهرانها إلّا للآخرين.

لم يترك لها الموقف فرصة استئذان والدها. لم تطلب منه أخْذها إلى بيت صاحبتها وحضور لقاء الفتيات. رجعت ورأت أمّها.

- أنا رايحة للعزيمة وراجعة بعد العشاء.

قالتها فطّوم، وغادرت من دون أن تنتظر جواب أمّها. ذهبت إلى صاحباتها في قلب القرية. وعادت إلى البيت وحيدةً في الظلمة. لم تعاتبها أمّها عندما رجعت.

- تذكّريني بنفسي وأنا بسنّك.

ليلتها عرفت أنّها أصبحت امرأةً. لم تعد تستأذن أمّها بعد ذاك المساء. أصبح المشي إلى مركز القرية والعودة منها هوايةً جديدةً. لم تفعل أمرًا تعرف مسبقًا أنّه سيزعج أمّها. بعد أيّامٍ أخبرتها سوير بأنّ والدها طلّقها مرّةً ثانيةً.

* * * *

كَثُر تردّدها على بيت تيياء. لم يكن واسعًا مثل بيتهم، لكنّه نظيفٌ ومختلفٌ. كانت تيياء تتنقّل بين المطبخ وغرفة نومها. نادرًا ما تدخل غرفة والديها المغلقة دومًا. ثمّ إنّها لا تنظر في المرآة التي تتوسّط البيت قرب المغسلة. رغم سخريّة تيياء كلّما رأتها تسرّح شعرها أمام المرآة، فإنّ ذلك لم يُخجل فطّوم. كانت تيياء في منزلة ما بين الأمّ والصديقة. لا تكلّ ولا تملّ. كلّ يوم تفعل شيئًا مختلفًا أو تسلك طريقًا جديدةً بين أرجاء القرية والمزارع.

ذهبت معها مرّةً إلى الشيخ عيسى، ورأت كيف يعالج الناس. كانت ترقبه بإجلالٍ. ولطالما تلطّف بها. عندما انفصل والداها مازحها

مرّةً، وذكر لها أنّه هو من جمع بينهما بعد طلاقهما الأوّل وأنّه لن يتوقّف حتّى يعيدهما مرّةً أخرى. أخبرها أنّ والدها يعشق أمّها عشقًا لو وزّع على نساء الساحل لكفاهنّ.

زارت مزرعةً كبيرةً أخبرتها تيماء أنّها اشترتها للتوّ. كان النخل قليلًا آنذاك، لكنّ تيماء أخذتها نحو شجرة رمّان وأرتها كيف تختار الرمّان الجيّد. جلستا وأكلت كلٌّ منهما ثلاث رمّاناتٍ. حملتا معهنّ الكثير من الرمّان إلى المنزل. وصفت لها تيماء طريقة والدها المفضّلة في تجميع حبّات الرمان. فتنها لونه. تُمسك بحبّة الرمّان في بطن كفّها. تقرّبها من عينيها. تنفخ عليها بهدوءٍ لتتقلّب الحبّة ويتقلّب معها اللون الآسر. سألت تيماء مرّةً بعدما وضعتا الحنّاء في أيديهما وجلستا تنتظران جفافَها:

- وين يروح لون الرمان؟ أضغط على الحبة وتنفقع بيدي ويختفي اللون! ماءها ما له لون!

أتاح لها تملّك تيماء تلك المزرعة قضاءَ وقتٍ طويلٍ في مساعدتها قبل العودة عند الغروب. لم تكن أمّها تفتقدها كما كانت تفعل من قبل، بل قالت لها إنّ جلوسها مع تيماء خيرٌ لها. كبُر الصغار، وأصبحوا يهتمّون بأمور البيت بدلًا منها. سرور أصبح رجلًا في السادسة عشرة، وقال إنّه سيجعل والده يعلّمه قيادة السيارة. أمّا وضحى التي تكبره بعامٍ فقد كانت تقلّد أختها الكبرى في كلّ ما تفعل. عندما قصّت فطّوم شعرها كي لا يعيقها خلال العمل في مزرعة تيماء طالبت وضحى بأن تفعل مثلها، لكنّ أمّهم رفضت. غزيّل ما تزال مصدر الضحك في

البيت، تسخر من الجميع، من خوف بندر من الظلام ومن رائحة سالم التي لا يزيلها الاستحمام بالصابون ومن الحوَل البسيط في عينَي خويلد، وحتّى من صلعة والدهم. لم يسلم أحدٌ من سخريّة غزيّل. تلك الصلعة التي لا تملّ فطّوم من لمسها وتدليكها، لا تتذكّر مَن طلب التدليك أوّلًا، أمّها أم أبوها. أمّها تحبّ تدليك الرقبة والكتفين، أمّا والدها فرأسه وقدميه. لا شكّ أنّ القيادة لمسافاتٍ طويلةٍ هي السبب.

مرّت أشهر منذ افترق والداها. رأت أباها يدخل البيت وأمّها هادئة لا تصرخ. علمت أنّ المياه عادت إلى مجاريها. سجدت لله شكرًا. تحقّقت نبوءة عيسى.

أبلغتها أمّها بعزمهم السفر إلى بيت الله في مكّة صباح الغد. لم تحزن عندما عرفت أنّها لن ترافقهم. ردّت بأنّها ليست حزينةً وتعلم أنّ السيّارة لا تتّسع لهم جميعًا، لولا حسرةٌ صغيرةٌ من تفويت فرصة زيارتها الأولى إلى مكّة المكرّمة. كانت تحفظ تفاصيل المسجد الحرام بفضل صورٍ عديدةٍ تملأ صندوق أمّها القديم.

في الصباح، حملت حقيبةً يكفي ما فيها من ملابس فترةَ أسبوعٍ كاملٍ حتّى عودتِهم. ركبت السيّارة مع أبيها في اتّجاه بيت تيماء. مازحها وهو في قمّة سعادته بالرحلة. ترجّلت من سيّارته أمام عتبة الباب المفتوح. واستنشقت دخان السيّارة المغادرة. ستطلب من والدها يومًا أن ترافقه في رحلةٍ إلى الساحل وأن يحدّثها عن كلّ الأماكن التي حفظت أسماءها منه.

دخلت بيت تيماء من دون أن تنادي. لم تجدها فيه. في اليوم التالي

أخبرها عيسى بالحادث، أكّد لها أنّها منذ اليوم بمثابة ابنته. وطلب منها ألّا تتردّد إن احتاجت إلى شيء. إلامَ سيحتاج مَن فقد أمّه وأباه وستّةً من إخوته؟! لم تقل شيئًا.

مرّت أسابيع طويلةٌ وفطّوم لا تجتاز خبر الحادثة. كانت تجربتها الوحيدة مع الموت عندما ماتت زميلةٌ لها في المدرسة. كانت الفتاة تبتسم بفمٍ مفتوحٍ وتُريهم ضرسًا يتضعضع في مكانه. في اليوم التالي بلغها خبر موتها. خرجت روحها مع خلع الضرس من فمها! كما يقولون. منذ ذلك اليوم وفطّوم لا تقطع أيّ شيءٍ صلبٍ بفمها. لا تفتح، مثل الفتيات، عقد الحبال ولا القناني باستخدام أسنانها.

قاسٍ هو الموت عندما يختطف روحًا من بين الأحياء، وهو أشدّ قسوةً عندما يختطف الجميع ويُبقي نفْسًا واحدةً تتذكّر! في بعض الليالي تزداد الوحشة، فتضطرّ إلى قضائها في حضن تيماء.

- تعوّذي من الشيطان يا بنت، ادعي لهم بالرحمة، هذا قدر الله وكلنا بنموت.

ما طعم حزنك يا تيماء بعد موت أمّك وأبيك؟ لا شكّ أنّك بكيت طويلًا. أخبرتها فطّوم بأنّها تفكّر فيهم كلَّ ليلةٍ قبل النوم.

- ما يتذكّر الا اللّي يحب، لكن هذي الدنيا، كلنا بنروح مثلهم. توفّت أمّي وأنا بزر أم أربع أو خمس سنين، وللحين وأنا أذكرها، وتوفي أبوي وما كنت جنبه. أحبهم كلهم وأحاول أشغل نفسي بالمزرعة. وإذا ذكرتهم دعيت لهم وأشغلت عمري بشيء ثاني.

النسيان سيء، لكنّ الحزن أسوأ. فتح رحيل أهل فطّوم بابَ قلب تيماء. أصبحتا متقاربتين أكثر من أيّ وقتٍ مضى. صارت الأمَّ الثانيةَ، لذا طلبت من خالها بأدبٍ أن يتركها تعيش مع تيماء في بيتها. وافق خالها بعد ملاحظته عملها في المزرعة طوال النهار، مبرّرًا لمن حوله بأنّ هذا الأمر سينسيها مصابها. فطّوم لم تنسَ شيئًا.

* * * *

قصّت عليها تيماء قصصًا عن والدتها الراحلة، الطفولة، المراهقة، الزواج، الحمل. اكتشفت ظرف أمّها عبر مواقف مضحكةٍ روتها تيماء. سمعت منها قصصًا عن والدها، لكنّها قليلةٌ ولم ترتقِ إلى ما تخيّلته فطّوم. لم تُظهر تلك القصص روحَ والدها المرحة ولا غناءه وإقباله على الحياة. هل أخبرتك يا تيماء عن اليوم الذي ارتطم فيه أبي بسيّارةٍ متوقّفةٍ لسببٍ مضحكٍ؟ كان يحاول قراءة لوحة على الطريق؟ أخبرني وهو يضحك أنّ اللوحة التي شغلت ذهنه أسابيع عديدةً وكاد يموت في الحادث بسببها كان مكتوبًا عليها (لا تنشغل بشيءٍ عن الطريق).

هل أخبرتك عن اليوم الذي لبس فيه باروكة شعر؟ نعم أبي لبس باروكة!

روت لها فطّوم أنّ والدها كان مهووسًا بالبحث عن علاج صلعه. جرّب كلّ شيء. ذات يومٍ، وهي صغيرة، قدم من الساحل مبكّرًا يحمل كيسًا حرص على إخفائه عنهم. قضى في الغرفة ساعاتٍ حتّى نام الصغار. خرج من غرفته مسرعًا نحو أمّي وهو يضحك فرحًا من دون أن يعلم بوجودي معها. كان يلبس باروكة شعرٍ غريبة الشكل.

لم تعجبني. ولم تكن الشيء الوحيد الذي أرانا إيّاه! ضحكت أمّي وهي تشير إلى إزاره المفتوح! انشغل بستر الصلعة ولم ينتبه إلى عورته المكشوفة أمامنا! لم أرَ تلك الباروكة بعدها بسبب ضحكنا عليه. كانت أمّي تقول لي «ستر عورته الفوقيّة وكشف العورة التحتيّة». ضحكت تيماء مع فطّوم حتّى دمعت عيونهما. حين سكنت الضحكات، عبر بينهما صمتٌ يذكّرهما بموعد النوم.

- ما أدري ليه كانت الصلعة شغله الشاغل.

- ...

- هو زين بها وبدونها.

- إلى الحين يجونك أمّك وهو في المنلم؟

- لا.

- أحسن.

فعلًا يا تيماء، النسيان أحسن. حاولت فطّوم الظهور أمام تيماء بمظهر مَن نسي، لكنّها لم تنسَ. قبل أن تنام، مرّوا بها جميعهم كما يفعلون كلّ ليلةٍ. تذكّرت أمّها وأباها. تذكّرت وضحى وتمنّت أنّها شفعت لها عند أمّها للسماح لها بقصّ شعرها كما أرادت. تذكّرت سرور وهو يسألها ذات يومٍ عن الأغنية التي سترقص عليها في ليلة زواجه. فمازحته بأنّها لن ترقص. تخيّلت بندر مسجًّى وحيدًا في القبر وهو الذي يخشى الظلام. أدركت طيب رائحة سالم وجمالَ عينَي خويلد. وأعادتها ضحكات غزيّل المجلجلة إلى باحة بيتهم، وإلى الخيمة التي بناها كلّ أفراد الفريق.

نعم أتذكّر كلّ شيء.

أصبح غيث رجلًا. صار يهتمّ بشؤون المقبرة ومزرعة عيسى. أحببتُه حبَّ المرء لأخٍ جديدٍ. لم يكن يتحدّث معي كثيرا، عكس أمّه. لكنّه شابهها في عدم إعجابه بالصالونة التي أجيد طهيها. يبدو أنّ الصالونة لا تروق لغير أهلي. كنت أحضّر اللبن والتمر، فيشكرني ويخبرني عن المقبرة والرجال الذين لقيهم في بيت عيسى. روى قصصًا عن طافي. سخر منه البحّارة في البدء ولقّبوه بالبدويّ. حينها طلب إحضار خمس خياش ثقيلةٍ من الساحل. لم يعرف أحدٌ ما بها. وعندما انطلق المركب، أفرغها أمام دهشة البحّارة. كان رملًا أحمر من الصحراء. فرش الرمل في مكان جلوسه. جلب ربابته، ولعب بها أمامهم. رأوا النوخذة المجنون في منتصف البحر يفترش رمل الصحراء ممسكًا ربابتَه. لا أعلم يا غيث مدى صدق هذه القصّة، لكنّ سردك لها يمتعني.

كيف كان البحّارة يتنبّؤون بالطقس واتجاهات الريح يا ترى؟ كيف يرى بعضهم المستقبل قبل حدوثه؟!

سألتْ غيث مرّةً أن يتنبّأ بمستقبلها. أخبرها بأنّها ستتزوّج ولن تنجب غير البنات، وستمتهن الخياطة على طريقة أمّه. عيسى لم يستسغ السؤال وقال إنّ الله هو الذي يسيّر الأمور. ألحّت عليه فأجاب: فطّوم لن تتزوّج. ستكبر وتنجح في تجارةٍ أو عملٍ، ثمّ إنّها لن تغادر مجهرة مطلقًا. تيماء ضحكت وهي تجيب على السؤال نفسه، قالت لها ستتزوّجين مرّتين وتغادرين مجهرة مع زوجٍ غنيٍّ من كبار ملّاكي المزارع.

لم يتوقّع أيّ منهم ما سيصيب المسكين غيث. انشغلت بالمزرعة مع تيماء، عندما وصلها خبر غياب غيث. ساورها قلقٌ لم يكن ظاهرًا على أمّه. عاد غيث بعد أشهر شخصًا مختلفًا تمامًا. كأنّ مرضه الغريب لم يكن كافيًا، ابتلاه الله بفقدان يده. سمعت من بعض الأشقياء إشاعاتٍ غير صادقةٍ بأنّه سرق وقُبض عليه وتمّ تنفيذ حدّ الله فيه.

لم تصدّق فطوم الإشاعات. تعرف غيث جيّدًا. لم ترَ في مجهرة أحدًا في مثل طيبة هذا الصبيّ اليتيم الذي وقف الجميع ضدّه. أخبرها مرّةً أنّه يشعر بألم يده المبتورة. ألقت بالسبب على الجنّ. كانت تدعو الله ليلًا أن يشفيه من الألم والجنّ. أخبرته أنّ الله لن ينسى الصدقات التي نذرتها أمّه وأنّ توزيع تمر مبروكة على الجميع مجّانًا ستحلّ بركته عليه وعلى أمّه. حتّى طاقي رحمه الله صاحب الكرامات رحل وهو راضٍ عنه. لن يُحرم غيث من الأجر والثواب.

قبل أن تتركه، سألته عن المسافة بين القرية والجزيرة:

- الجزيرة بعيدة؟

- البعد ما ينقاس بالأمتار ولا بالفراسخ، أبعد طريق هو اللّي ما مشاه أحد، مثل الدرب لقلب تيماء.

لم يعد غيث كما كان. وضع الجنّ في قلبه الطاهر بذرةَ الشكّ. أصبح يرتاب في حبّ أمّه له ويظنّ السوء في صلاح الشيخ عيسى رحمه الله ويتوهّم في كلّ ما حوله. لا أعلم لماذا لا تزوره تيماء وتخفّف من آلامه. ربّما أرادت أن تصنع منه رجلًا قاسيًا ليتحمّل ما ستلقيه الحياة في طريقه. هذه المرأة تحبّ أهلها كثيرًا. حدّثتني عن والدها

الذي أصابه الخرف في آخر حياته. كم كان يحبّ أمّها! لم يمهلها الموت لتعيش معه طويلًا. حكى قصصًا عن طهرها وجمالها ووسع حيلتها وحسن خلقها. عندما أصاب سالم الجبر الخرف نسيها. نسي شرعاء. رغم أنّ النسيان تسرّب إليه قبل ذلك، لم تتوقّع تيماء أن تسأله يومًا عن شرعاء فلا يعرفها. سألته مرّةً: من أنا؟ جاءها الرّد: تويم.

- ينساني مرّات ويذكرني مرّات، بس كيف نسى أمّي!

- الكلّ ينسى في آخر العمر.

- من يحب ما ينسى، بتنسين أهلك؟

لن أنساهم. اختارهم الله للقياه. وعوّضني عنهم محبّة تيماء وغيث، لكنّ محاولاتي فشلت في لمّ شملهما تحت سقفٍ واحدٍ.

* * * *

نعم أتذكّر كلّ شيء، يا بنيّ.

«لكلّ فلاح صَرَامُه». قالها مفلح مرّةً، مثلما أنّ لكلّ نخلة موسمًا وأيّامًا تفضّلها كما تؤمن فطّوم. البعض يفضّل بداية ظهور الرُّطَب الطيّار. البعض ينتظر الغرّ من الرطب، وهو يظهر في مناطق أوّل الصيف ويتأخّر في مناطق أخرى. بعض الرجال يفضّل مرحلة الصَّرام نفسها بعد أربعة أشهرٍ ويعشق أسابيعها الثلاثة التي يُجنى فيها التمر. تيماء من هؤلاء، تحبّ موسم الصَّرَام.

رغم أنّ فطّوم تستمتع بفترة خَرَاف الرطب فإنّ مرحلة كَنْز التمر التي تأتي متأخّرةً هي الأجمل عندها. تجلس مع تيماء بين النسوة ويبدأن الحديث مُحاطاتٍ بالتمر المنشور على بُسُطٍ نظيفةٍ. تبدأ كلٌّ منهنّ بوضع

التمر في أكياس بلاستيكيّة شفّافةٍ. يدخلنه حتّى يبلغ ربع الكيس ثمّ يتبعنه بأيديهنّ، ويضغطنّ بقبضاتٍ مضمومةٍ على التمر ليرصصنه جيّدًا إلى الأسفل. يكرّرن ذلك حتّى يصبح الكيس مثقلًا بالتمر المكنوز. بعد أن يربطن رؤوس الأكياس بقماشٍ محكمٍ، يقمن بصفّ الأكياس في شكلٍ أفقيٍّ. وبعدما ينتهين من ركن الأكياس بعضها فوق بعضٍ، يضعن فوقها الخشب والحديد وطابوق البناء ليسهم الثقل والزمن في طرد ما تبقّى من هواءٍ داخل الأكياس أوّلًا ثمّ نزول قطرات دبس التمر.

هذا العام، لن نصرم. طفت الفكرة المخيفة في ذهن فطّوم وهي ترى سعف النخيل يجفّ وعذوقه تذوي. كانت تيماء أوّل من لاحظ علامات مرض النخيل وتغيّره. مرّت الأيّام فأكّدت مخاوفها. قيل إنّ السوسة الحمراء هي السبب، رغم عدم العثور على أثرها. قيل إنّه الوجام. وقيل لعلّها الدودة الجديدة التي أصابت نخل موارية. وصلت الغيوم وتراكمت بعد دعوات تيماء.

شاهدتها فطّوم تصعد نخلة طويلة. ثمّ تنزل وتعود شاحبة الوجه لتتسلّق أخرى. تتفرّس في رأس النخلة، حتّى صاحت على فطّوم كي تصعد. فتسلّقت الفتاة النخلة التي أمامها. كان الثقب صغيرًا ولا يتجاوز قطره أنملة الأصبع الصغير، ثقب عميق في قلب النخلة أحدثه شيءٌ حادٌّ مثل قضيبٍ مدبّبٍ أو مِغْرَاس. لقد طعن أحدهم النخلة في قلبها. تعرف فطّوم أنّ للنخلة قلبًا، بل وذاقت طعمه الحلو مرّةً عندما قصّت تيماء نخلةً تعترض درب شاحنةٍ أحضرت معدّات حفر بئرٍ جديدةٍ. لكنّ فطّوم لم تعلم أنّ للنخلة روحًا تغادرها

إذا طعنت. قضتا ساعةً من الزمن في فحص بقيّة النخيل. لقد طعن النخل كلّه. من فعل هذا الجرم البشع؟ وفي حقّ امرأةٍ وأرضٍ تمنح ثمرها صدقةً للناس؟

لم تنطق تيماء. كانت تقف مقطّبة الجبين أمام نخلة فطّوم. اقتربت فطّوم ورأت ما كانت الأخرى تحدّق فيه. سمعت تمتمتها:

- نخلتك ما جاها شيء.
- نخلتي أنا؟ كيف؟ النخل كله مطعون وأكيد ان نخلتي مطعونة، يمكن ما تشوفين من تحت.

مشت تيماء واتّجهت إلى نخلتها هي. لم تتكلّم. وعندما دقّقت فطّوم النظر لاحظت في نخلة تيماء طعنتين.

لا شكّ أنّ المجرم أخطأ نخلتها وطعن نخلة تيماء ثانيةً بدلًا منها. سارتا واجمتَين إلى البيت. عند وصولهما، أشارت تيماء بوجهٍ متخشّبٍ نحو الباب وهي تقول:

- لا تقولين لأي أحد ايش شفتي اليوم. جهزي القهوة، بأرجع بعد نص ساعة.
- وين بتروحين.
- للّي ذبح مبروكة.

دخلت فطّوم البيت. أعدّت قهوة المغرب. ستعود تيماء منزعجةً وسأفرّج عنها كما فرّجت هي كثيرًا عنّي. ماتت مبروكة، لكنّنا سنعيد زراعتها من جديد. تعلّمت من أمّي أنّ الأحزان تتوالى، ومن أبي أنّ الفرح ينتصر أخيرًا، ومن تيماء ألّا أنحني أمام أحدٍ أو لشيءٍ. لذا،

ستبعث مبروكة من جديدٍ، ونبني من جديدٍ أنا وتيهاء وغيث بيتًا وعائلةً.

* * * *

نعم أتذكّر كلّ شيء يا بنيّ، لكنّي أحاول.

استجاب الله لتيهاء ولصلاة مجهرة. نزل المطر ذلك الثلاثاء، لم أرَ في حياتي الطويلة مثله، صبّت السماء قِرب الماء صبَّ الكريم الذي لا يخشى جفافًا. توقّفتُ عن تنظيف البيت الذي كاد يغرق. ما أسعد تيهاء بك أيّها المطر لولا فساد النخل.

القلق الذي ساورني على تيهاء منعني من الخروج. فلا أدري إلى أين ذهبت ولا أعرف من قصدت بـ«الذي ذبح مبروكة»؟

قلقتُ على غيث خشيةَ أن يكون المطر فاجأه وهو في العراء بلا سقفٍ يحميه. بردت القهوة، فأعدتُ تسخينها. ولم تأتِ تيهاء. حين سمعت صوت أنفاسها، كانت تقف عند الباب لاهثةً. هرعتُ مسرعةً لأمسكها. سألتها: ماذا حدث؟ هل سقطت في إحدى الحُفر؟ لا شكّ أنّها أم المطاليب وحفرها اللعينة. ردّت بكلامٍ متقطّعٍ لا يشفي الغليل. كانت تنتفض من البلل الذي أصابها.

نظرت تيهاء بعينين فارغتين إلى سقف البيت وهو يسرّب الماء. نزعت لاإراديًا حذاءها المثقل بالطين. استدارت بكاملها نحو المرآة. هل قلت إنّ أمّي وتيهاء لا تحبّان المرايا؟ أمّي تقول إنّ المرايا تكذب. أمّا تيهاء فلا أتذكّر أنّها توقّفت مرّةً أمام واحدةٍ، إلّا الآن. كانت كمَن فاجأته المرآة. نظرت في وجهها. أطالت النظر مشدوهةً. من رأت

هناك؟ جحظت عيناها، وانتفض جسدها كلّه وتراجعت ولم تقل شيئًا وهي تنظر بفزعٍ إلى عينيها. دارت في خطواتٍ راجفةٍ واستلقت على فراشها تحملق في السقف.

أربعة أشهر منذ تلك الليلة، بين غياب غيث وتبدّل تيهاء التي أعرف. لا يعلم أحدٌ أين هاجر غيث للمرّة الثانية. قيل إنّه شوهد عائدًا إلى الجزيرة بحثًا عن دواء شافٍ لآلام يده المدفونة. وقيل إنّه ذهب يبحث عن والده. وقيل إنّه تاب وسلك طريق الله والتحق بجماعة يدعون إلى الدين الحنيف في الجزر البعيدة.

أمّا تيهاء، آه يا تيهاء! كم حاولنا معرفة ما أصابها. لم تنطق بكلمةٍ، ولم تطلق صوتًا منذ عادت ذاك الثلاثاء. كانت ترفع بصعوبةٍ نظراتٍ فارغةً. ذهبت تلك اللمعة والنظرة الحادّة التي عُرفت بها. أصبحت غائبةً عمّا حولها طوال النهار. ضمر جسدها حتّى لم تعد تقوى على الجلوس. كنت أسقيها اللبن في فراشها. لا تقبل طعامًا ما لم يكن رائبًا لا يُمضَغ. حتّى الرمّان، لم تقوَ على مضغه. لم أخبر أحدًا بما رأيته معها في النخل كما طلبت منّي، لذا فسّرت النسوة ما أصابها بالسحر الذي نخر مبروكة وسوّس نخيلها. وقيل إنّ الجنّ تذكّرتها وألحقتها بأمّها وخالها. أمّا أنا فأيقنتُ أنّها لم تحتمل غيبة ابنها وهجرتَه من القرية في الوقت نفسه الذي فقدت فيه نخل أمّها.

أربعة أشهر كانت كافيةً لهزيمة تيهاء!

كنت أسخّن حليبًا عندما نادتني النسوة اللاتي قدمن لزيارتها. دخلت بينهنّ. وركضت نحوها. أشرن إليها. كانت تحاول النهوض.

استبشرنا خيرًا. أمسكت يدَها محاولةً رفعها. دفعت يدي. رأيناها جميعًا تنقلب على جنبها بصعوبةٍ. أكملت يبطءٍ حتّى أصبحت على بطنها. خشيت عليها وأنا أراها ترفع يدها كمَن يجدف سابحًا. كانت تضرب الأرض بيديها. خفت أن يكون الفراش قد غطّى فمها وأنفها ومجرى نفَسِها. اقتربت منها وأنا أبكي. قبّلت رأسها وسألتها عمّا إذا كانت تسمعني. سمعت صوتها الضعيف، الصوت الذي لم أسمعه منذ وقفت أمام المرآة ذاك الثلاثاء المطير. وأنا أقبّل رأسها، سمعتها تنادي بصوتٍ ضعيفٍ: يمة، يمة، وينك؟

نعم أتذكّر كلّ شيءٍ يا بنيّ، لكنّي أحاول أن أنسى.

فاضت روحها وشفتاي تلامسان صدغها، والنساء يحطن بها. طلبت منّي النسوة أن أحضر غسلها. ففعلت. رأيتها أمامي عاريةً، مغمضة العينين. من يصدّق أنّها لم تتجاوز الرابعة والأربعين! وعندما قلبَتْها مَن تغسّلها على جنبها الأيمن طلبت ممّن حولي ألّا يطيلوا وأن يعيدوها على ظهرها سريعًا. فقد سمعت من أمّي أنّ تيماء كانت شديدة الكره للنظر إلى الأرض. لم تطل المدّة التي قُلبت فيها على بطنها، لكنّها كانت كافيةً لأرى منظرًا فجعني واقشعرّ له جلدي. كان ظهرها مليئًا بآثار جروحٍ غريبةٍ وتشوّهاتٍ قديمةٍ، كأنّه أثر مرضٍ بشعٍ أو آثار نهش حيوانٍ مفترسٍ أو طيرٍ جارحٍ.

* * * *

عندما ظهر اسمي في الصحف ظننت أنّ غيث سيقرأ الأخبار ويعرف مكان عملي ويزورني. لو زارني فلن يتعرّف إليّ. لم أعد تلك

النحيلة. لم أرَه أو أسمع عنه بعدُ. كيف تلقّى خبر رحيل أمّه؟ أين دفعت به الدنيا؟ لا شكَّ أنّه هاجر واستقرّ على ظهر قاربٍ كطافي أو التحق بمدرسةٍ في قريةٍ بعيدةٍ كظافر.

لن أقول، كما يقول كلّ مَن هم في سنّي، إنّ أيّامنا السابقة كانت أفضل. أهل مجهرة كانوا بشرًا مثل غيرهم. لم يكونوا ملائكةً، لكنّني رأيت أجنحتهم وأحببتهم. وهأنذا، تزوّجت كما تمنّى غيث. وهاجرت للسكن في إحدى مدن الساحل كما توقّعت تيماء. واشتغلت ونجحت في التجارة كما تنبّأ عيسى. لم أنسَ أحزاني مثلما وصّتني أمّي. وأسعد بانتصاراتي الصغيرة كما علّمني والدي.

سمعت أنّ مجهرة تغيّرت كثيرًا بعدي. لم تعد بها بقالةٌ واحدةٌ صغيرةٌ فقط كعهدي بها. أصبحت مدينةً يقيم فيها خليطٌ من العمّال الأجانب بين أهلها. جدران الريّ أزيلت. لم يعد من الممكن ارتياد الكهوف والمغارة البعيدة لأنّ الجيش أدخلها في مناطق تدريب الرماية. مكان بيتنا لم يعد منعزلًا، بل امتدّ إليه العمران فأصبح في قلب الأحياء الحديثة. سمعت أنّهم أقاموا مقبرةً جديدةً خارج القرية. أم المطاليب حلّ محلّها دكّانٌ لبيع لعب الأطفال. لم يعد الباعة المتنقّلون يعبرونها كلّ ثلاثاء. لم أزرها منذ غادرتها للزواج. ولا أنوي العودة.

كلّ شيء تغيّر إلّا نخلتي. بقيت حيّةً ومحاطةً بأشجار الرمّان. لا تزال خضراء ويسمّونها منذ عقودٍ باسمي! «نخلة فطّوم»، تخيّل! لا أظنّ أنّ أحدًا في مجهرة يعرف اليوم فطّوم، بقي اسمها لكنّ مجهرة نسيتْ مَن تكون كما نسيتْ أبي وأمّي وتيماء وغيث ومبروكة. وعندما

تعطي مجهرة لنخلتي اسمًا آخر سترحل ذكراي أنا أيضًا. ووحدها مجهرة ستبقى، لأنّها تنسى.

النهاية



الفهرس